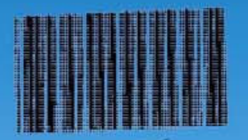
دكتور عبدالله محمود شحاته



أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمدا يوافى نعمه ويكافىء مزيده ، وصلاة وسلاما على سيدنا محمد عبد الله ورسوله وصفيه وخليله ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين :

أما بعد ، فإنه لم يظفر كتاب من الكتب سماويا كان أو أرضيا فى أية أمة من الأمم قديمها وحديثها بمثل ما ظفر به القرآن على أيدى المسلمين ، ومن شارك فى علوم المسلمين ، ولعل هذا يفسر لنا جانبا من الرعاية الإلهية لهذا الكتاب الذى تكفل الله بحفظه وتخليده فى قوله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر ٩

فما كان الحفظ والتخليد بمجرد بقاء ألفاظه وكلماته مكتوبة فى المصاحف ، مقروءة بالألسنة متعبدا بها فى المساجد والمحاريب ، إنما الحفظ والخلود بهذه العظمة التى شغلت الناس وملأت الدنيا وكانت مثارا لأكبر حركة فكرية اجتماعية عرفها البشر .

لقد عنى المسلمون منذ فجر الإسلام بالقرآن الكريم عناية كبرى شملت جميع نواحيه ، وأحاطت ما يتصل به : ولا نكاد نعرف علما من العلوم

التي اشتغل بها المسلمون في تاريخهم الطويل إلا كان الباعث عليه هو خدمة القرآن الكريم من ناحية ذلك العلم .

فالنحو والبلاغة والتجويد والقراءات والفقه والأصول ، كلها نشأت للحفاظ على القرآن ، وبيان أوجه بلاغته وطريقة قراءته وطرق استنباط الأحكام منه .

وهكذا علوم الفلك والنجوم والطب ، وعلوم الحيوان والنبات والتاريخ والقصص والأدب وغير ذلك من علوم الإنسان ، لا يخلو علم منها أن يكون الاشتغال به — في نظر من اشتغل به من المسلمين — مقصودا به خدمة القرآن ، أو تحقيق إيحاء أوحى به القرآن .

وتبعا لهذه الأنحاء المختلفة في نظر المسلمين إلى القرآن واشتغالهم به نرى التفاسير ذات ألوان متنوعة ، فمنها ما يغلب عليه تطبيق قواعد النحو وبيان إعراب الكلمات وبنائها ، ومنها ما يغلب عليه نواحي البلاغة والإعجاز ، ومنها ما يهتم بالفقه والتشريع وبيان أصول الأحكام وهكذا ..

وحدة السورة

وقد تعرض الأقدمون لبيان الأهداف والمقاصد لسور القرآن ، ومنهم الفيروزيادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ في كتابه القيم « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » ، وقد طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة بتحقيق الأستاذ محمد على النجار .

وفي مطلع القرن العشرين ظهر تفسير المنار للإمام محمد عبده والسيد رشيد رضا . وقد كان الإمام محمد عبده مصلحا ومجتهدا وإماما من أئمة التفسير والفتوى وكانت له في التفسير نظرات صائبة ومنهج قويم يعتمد على تسعة أسس (١) ، من بينها :

---

(١) منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم ، تأليف عبد الله محمود شحاته .

الوحدة الموضوعية للسورة ، وأن فكرة السورة يجب أن تكون أساسا فى فهم آياتها ، والموضوع يجب أن يكون أساسا فى فهم الآيات التى نزلت فيه .

وتأثر بالإمام تليمذه النجيب السيد رشيد رضا ، فكان يتبع تفسير كل سورة بملخص لأهم موضوعاتها وقضاياها .

وتأثر بتفسير المنار أساتذة التفسير فى العصر الحديث مثل الأستاذ محمد مصطفى المراغى ، والأستاذ محمود شلتوت وله تفسير للعشرة أجزاء الأولى من القرآن حاول فيه أن يوضح أهداف السور وأغراضها .

وللمرحوم الأستاذ سيد قطب جهد بارز ونظر نافذ فى الإحاطة بأفكار كل سورة وأهدافها ، يقدم فكرة عامة عن السورة بين يدى تفسيرها ، يستطيع القارئ من خلاله أن يرى وحدة عضوية وفكرية للسورة ، وكان أستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز يفتح عيوننا أثناء الدراسة الجامعية على موضوع السورة وفكرتها العامة قبل تفسيرها ، ويرى « أن هذه النقطة غفل عنها جميع المستشرقين ، فضلا عن بعض علماء المسلمين ، فعندما لاحظ بعضهم بنظرته السطحية عدم توافر التجانس والربط الطبيعى بين المواد التى تتناولها السور ، لم ير القرآن إلا أشتاتا من الأفكار المتنوعة ، عولجت بطريقة غير منظمة ، بينما رأى البعض الآخر أن علة هذا التشتيت المزعوم ترجع إلى الحاجة لتخفيف الملل الناتج من رتابة الأسلوب . وهناك فريق آخر لم ير فى الوحدة الأدبية لكل سورة — وهو ما لا يستحيل نقله فى أية ترجمة — إلا نوعا من التعويض لهذا النقص الجوهرى فى وحدة المعنى ، وفريق آخر يضم غالبية المستشرقين ، رأى أن هذا العيب يرجع إلى الصحابة الذين جمعوا القرآن ، وقاموا بهذا الخلط عندما جمعوا أجزاءه ورتبوها على شكل سور » . ويعقب الدكتور دراز « بأن هذه التفسيرات لا تبدو صالحة للأخذ بها ، إذ من المتفق عليه أن السور كانت بالشكل الذى نقرؤها به اليوم ، وبتركيبها الحالى منذ حياة الرسول ..

« ولقد اتضح أن هناك تخطيطا حقيقيا واضحا ومحددا للسورة يتكون

من ديباجة وموضوع وخاتمة ... ولا جدال فى أن طريقة القرآن هذه ليست لها مثيل على الإطلاق فى أى كتاب فى الأدب أو فى أى مجال آخر، يمكن أن يكون قد تم تأليفه على هذا النحو، وإذا كانت السور القرآنية من نتاج ظروف النزول ، تكون وحدتها المنطقية والأدبية معجزة المعجزات (١) » .

ويخطىء من يظن أن وحدة الموضوع للسورة تعنى أن السورة موضوع مستقل أو فصل فى باب ، أو بحث فى كتاب .

وهناك فارق كبير بين طريقة القرآن ، وطريقة التأليف عند الناس :

القرآن كتاب هداية يسلك إلى النفوس طريقها ويتخولها بالموعظة بين الحين والآخر . ولكنه جعل لكل سورة موضوعا غالبا عليها ، وسمات بارزة فيها .

يقول أستاذى المرحوم الشيخ محمد المدنى فى مقدمة كتابه « المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء » .

« إن فى كل سورة من سور القرآن الكريم روحا يسرى فى آياتها ، ويسيطر على مباحثها وأحكامها وتوجيهاتها وأسلوبها :

ومن المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بوضع الآيات التى تنزل عليه منجمة فى مواضعها من السور ، وأن ذلك كان عن وحى يتلقاه عليه الصلاة والسلام من جبريل ، عن الله رب العالمين ، فهل كان ذلك إلا لمعنى ؟ وهل يأمر الله تعالى بوضع هذه الآيات هنا ، وهذه الآيات هناك إلا لحكمة ؟ .

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم تأليف الدكتور محمد عبد الله دراز ، نشر دار القلم بالكويت . وانظر تعريف الأستاذ محمد عبد الله السمان بالكتاب تحت عنوان : المكتبة الإسلامية ، ، مجلة التضامن الإسلامى التى تصدرها وزارة الحج والأوقاف بمكة المكرمة ، عدد جمادى الثانية سنة ١٣٩٥ هـ - يوليو ١٩٧٥ م ، وبخاصة تعريفه بالفصل الثالث من الباب الثانى بالكتاب . وأيضا تفسير سورة النساء ، محاضرات لطلبة ليسانس دار العلوم للدكتور دراز سنة ١٩٥٥ م - مخطوط .

وقد عنى المفسرون بكثير من الجوانب المتصلة بدراسة القرآن الكريم ،

وقلّ فيهم من عنى بهذا الجانب الذى هو دراسة الروح العام لكل سورة والغرض الذى تهدف إليه :

« ومن الواضح أن سور القرآن مع كون كل واحدة منها ذات طابع خاص ، وروح يسرى فى نواحيها ، لا يمكن أن تعد فصولا أو أبوابا مقسمة منسقة على نمط التآليف التى يؤلفها الناس ، ومن أراد أن يفهمها على ذلك ، أو أن يفسرها على ذلك ، فإنه يكون متكلفا مشتطا محاولا أن يخرج بالقرآن عن أسلوبه الخاص ، الذى هو التنقل والمراوحة والتخول ، وبث العظة فى تضاعيف القول ، والوقوف عند العبرة لتجليتها ، والتوجه إلى مغزاها ، وانتهاز الفرصة أينما واتت لدعم العقيدة السليمة والمبادىء القويمة .

« إن هناك فرقا بين من يحاول أن يفعل ذلك ، ومن يحاول أن يجعل القارئ يلمح الروح السارى ، والبيئة المعنوية الخاصة التى تجول فيها السورة ، دون أن يخرج التنزيل الحكيم عن سنته وأسلوبه الذى انفرد به ، وكان من أهم نواحى الإعجاز فيه .

« وهذه الطريقة فى الدراسة القرآنية أجدى على الناس من تتبع الآيات آية بعد آية بحسب ورودها فى السورة ، ومن تتبع جمل كل آية ، وكلمات كل آية . وأحيانا حروف كل آية أيضا ، ليدرس كل ذلك على نحو من التفصيل أو الإجمال ، أو على نحو من التطويل أو الإيجاز ، فإن ذلك لا يعطى المنظر العام ولا يساعد على تصور عظمة الصورة مجتمعة الملامح ، منضمة التقاسيم ، كاملة الوضع [1] » .

* * *

إن هذه النظرة الكاملة للصورة تبرز شخصيتها وتجعل القارئ يتعرف على فكرتها العامة وتتبع موضوعاتها داخل الإطار العام المميز لها عن غيرها ،

---

(١) محمد محمد المدنى : المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء ، ص ٥ — ٧

فقد ادعى بعض المغرضين أن القرآن خليط غير مؤتلف أشبه بقول القائل عسل خمر لبن . . إلخ .

ولا نريد أن ندافع عن القرآن أو نلبسه حلة ليست له . فجمال القرآن وجلاله خالد خلود الدهر ، وإنما نريد أن نتعرف على القرآن كما هو ، وأن نقدم كل سورة من سور القرآن للقارىء تتهادى فى صورتها الواقعية ورونقها الحقيقى ، وشتان بين صورة متكاملة متجانسة ، وبين أجزاء مفككة مقطعة لهذه الصورة .

وكما يقول الإمام أبو حامد الغزالى : شتان بين من يقدم عبدا هدية لإنسان ، وبين من يقطع أوصاله ليقدمها هدية ، مع أن العبد فى الواقع هو مجموع هذه الأجزاء .

يقول الغزالى : الصلاة المشتملة على الركوع والسجود وسائر الأركان بدون حضور القلب أشبه بأجزاء العبد حين تقدم هدية . أما الصلاة المشتملة على الخشوع وحضور القلب فهى أشبه بالعبد الكامل حين يقدم هدية فيها الروح والحياة والجمال .

وشتان بين من يصف قصراً شامخا ببيان نوع أحجاره ولبناته وأخشابه وحديده ومقابض أبوابه . وبين من ينظر إلى جملته كبيت كامل أو كصرح عظيم :

إن هذه الدراسة تحاول أن تقدم كل سورة من سور القرآن فى صورتها العامة وأفكارها الرئيسية ، وتحاول أن تكتشف الروح الذى يسرى بين آياتها ويسيطر على مبادئها وتوجيهاتها .

وأذكر بالعرفان جهدا مشكوراً فى هذا الميدان لأستاذى الدكتور مصطفى زيد رئيس قسم الشريعة بكلية دار العلوم جامعة القاهرة . فقد فسر لنا سورة الأنفال أثناء دراستنا بالكلية ، فكانت دراسة رائدة فى هذا الميدان، قدم لنا فيها أهداف السورة وأهم الموضوعات التى عالجتها ، واتبع ذلك برعاية خاصة ، ونظرة ثاقبة ، وبصيرة نافذة بأهداف الشريعة ، وحكمة

بإشرافه على رسالتى للدكتوراه وخصنى بنصيب وافر من العناية والتوجيه، متعه الله بالصحة والعافية وجزاه خير الجزاء .

* * *

أما بعد ، فالكتاب الذى نشاهده الآن ليس تفسيرا حرفيا لآيات القرآن الكريم ، ولكنه ضوء يلقى على أهداف السور ومقاصدها، ويوضح بعض الأحكام والآداب التى اشتملت عليها . .

وآمل أن يستفيد منه عشاق القرآن والدارسون له ومن يحاولون حفظه أو فهمه ، فإن قراءته ستيسر عليهم هذه المهمة ، فمن قرأ تعريفا بسورة من السور ثم حاول حفظها أو فهمها كان أكثر إحساسا بمعناها ، وأكثر إدراكا للروح العامة السارية بين آياتها ، فيسهل الحفظ لمن أراد الحفظ ، وتسهل الإحاطة بالمعنى الإجمالى للآيات لمن راد القراءة أو الفهم .

لقد وعد الله بحفظ كتابه ، وتيسير قراءته وفهمه ، لمن حاول ذلك مخلصا قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ القمر ١٧ .

ولا أدعى أن هـــذه محاولة مبتكرة ، وإنما أعترف أنها استفادت من الجهود المباركة التى بذلت فى هذا الشأن قديما وحديثا . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د . عبد الله محمود شحاته

دروس من سورة البقـرة

سورة البقرة أطول سورة فى القرآن الكريم فقد استغرقت جزءين ونصف جزء ، وعدد أجزاء القرآن جميعه ثلاثون جزءا . ولذلك كان الرجل إذا حفظ سورة البقرة عظم فى أعين المسلمين . وهى أول سورة نزلت بالمدينة، وعدد آياتها (٢٨٦) آية وعدد كلماتها (٦١٢١) كلمة .

قصة التسمية

سميت سورة البقرة بهذا الاسم لأنها انفردت بذكر حادثة قتل وقعت فى بنى إسرائيل على عهد موسى عليه السلام وكان للبقرة وهى الحيوان المعروف — الذى اتخذ بنو إسرائيل من نوعه إلها فى وقت ما يعبدونه من دون الله — شأن إلهى عجيب فى هذه الحادثة ، وقعت الجناية وقتل القتيل واختلف أهل الحى الذى بينهم الجناية — فى القاتل من هو؟ وأخذ كل يدفع الجناية عن نفسه ويتهم بها غيره ، وفيهم من يعلم عين الجانى ويكتم أمره .

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا واللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ البقرة ٧٢ .

وترافع القوم إلى موسى عليه السلام ليحكم فى هـــذه الجناية التى خفى مرتكبها .

سأل موسى ربه ، فأمرهم أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل بلسانها ، فيحيا ، فيخبر بقاتله ، ولما طبع عليه بنو إسرائيل من العناد فى تنفيذ الأوامر فقد وقفوا كالساخرين أو الهازئين من الأمر بذبح البقرة فى هذا المقام حتى لقد قالوا لموسى : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ﴾ ؟ .

وما كان لنبى الله أن يسخر أو يهزأ ، ولكنها القلوب الملتوية تنصرف عن الحق وتعاند فى قبوله ، فسألوه عن البقرة :

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَاهِيَ ﴾ ﴿ مَا لَوْنُهَا ﴾ ؟ ..

وأكثروا من السؤال وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، وسألوا موسى ما هذه البقرة أكما عهدنا هذا الجنس من الحيوان ، أم هى خلق آخر تفرد بمزية ، واختص بإعجاز ؟ فأوضح الله سبيلهم وبين أنها بقرة لا مسنة ولا فتية بل هى وسط بين ذلك ، فليفعلوا مايؤمرون .

وبين الله لهم أنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين وقال :

﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا ﴾ .

وأخيرا وبعد حيرة ومشقة عثروا عليها .

كانت البقرة ملكا لشيخ كبير فقير وكان عبدا صالحا زاهدا فلم يترك من المال سوى بقرة واحدة كان يأخذها إلى المرعى ثم يتوجه إلى بارئه بقلب خالص ونفس ثابتة فيقول : اللهم انى استودعتكها لابنى حتى يكبر ، ومازال الرجل يترقرق فى صدره هذا الأمل القوى بنور الله حتى مات ، وبقيت البقرة لابنه اليتيم ، واستمر اليتيم يرعى البقرة ، يحدوه شعاع من الأمل ورثه من الصالحات الباقيات لأبيه .

ولما أمر الله بنى إسرائيل بذبح البقرة وشددوا فشدد عليهم فى صفاتها ولونها وسنها ، ووجد القوم أن هذه الصفات لا تنطبق إلا على بقرة هذا اليتيم الذى بارك الله له فيها ، فاشتروها منه بمال وفير وذبحوها وضربت جثة القتيل ببعض أعضاء تلك البقرة فتمت إرادة الله وحدثت المعجزة وأحيا الله القتيل ونطق باسم قاتله . قال تعالى :

﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة ٧٣ ..

ثم قست قلوب اليهود بعد أن شاهدوا هذه المعجزة فصارت قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة ، وبدل أن يهتدوا بهذه الآية إلى طريق الإيمان نكسوا عن الحق وساروا فى الضلال وقتلوا الأنبياء، وحرفوا كلام الله ودبروا الفتن والدسائس . وقد حذرنا الله من كيدهم وأمرنا ألا نسمع إلى فتنهم وتفرقتهم وأن نأخذ الحذر منهم وأن نعد العدة لمقاومتهم واستخلاص الحقوق المغتصبة من أيديهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لن تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود فيختبىء أحدهم « وراء » الحجر فيقول الحجر يا عبد الله هذا يهودى ورائى فاقتله » .

وفى قصة البقرة عبرة للمتشددين فإن الله أمر بنى إسرائيل بأن يذبحوا بقرة فلو بادروا إلى ذبح أية بقرة لأجزأتهم ، ولكنهم تشددوا فى تعرف صفاتها فكانوا كلما سألوا سؤالا زيدوا تشديدا حتى صارت البقرة نادرة .

وفى الأثر : (لاتكونوا كبنى إسرائيل شددوا فشدد عليهم) .

وفى القرآن : ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ الأعراف ١٤٤ .

الأهداف العامة لسورة البقرة

سورة البقرة من أجمع سور القرآن الكريم ، وقد إشتملت على الأهداف الآتية :

١ ــ بيان أصول العقيدة وذكر أدلة التوحيد ومبدأ خلق الإنسان .

٢ ــ بيان أصناف الخلائق أمام هداية القرآن ، وذكرت أنهم أصناف ثلاثة المؤمنون والكافرون والمنافقون .

٣ ــ تعرضت السورة لتاريخ اليهود الطويل ، وناقشتهم فى عقيدتهم ، وذكرتهم بنعم الله على أسلافهم وبما أصاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلقى دعوة الحق من أنبيائهم السابقين وارتكبوا من صنوف العناد والتكذيب والمخالفة ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى فى السورة :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ البقرة ٤٠ .

إلى آخر آية البر فى منتصف السورة تقريبا وهى :

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ البقرة ١٧٧ .

وهذا الغرض من أغراض السورة استدعاه جوار المسلمين لليهود فى المدينة.

٤ — والنصف الأخير من سورة البقرة اشتمل على التشريع الإسلامى الذى اقتضاه تكون المسلمين جماعة متميزة عن غيرها فى عبادتها ومعاملاتها وعاداتها .

وقد ذكرت السورة من ذلك القصاص فى القتل العمد ، وذكرت الصيام والوصية والاعتكاف ، والتحذير من أكل أموال الناس بالباطل وذكرت الأهلة وأنها جعلت ليعتمد الناس عليها فى أوقات العبادة والزراعة وغيرها وذكرت الحج والعمرة وذكرت القتال وسببه الذى يدعو إليه وغايته التى ينتهى إليها . وذكرت الخمر والميسر واليتامى ، وحكم مصاهرة المشركين وذكرت حيض النساء والتطهر منه والطلاق والعدة والخلع والرضاع ، وذكرت الأيمان وكفارة الحنث فيها ، وذكرت الإنفاق فى سبيل الله ، وذكرت البيع والربا ، وذكرت طرق الاستيثاق فى الديون بالكتابة والاستشهاد والرهن . ويبدأ هذا السياق من قوله تعالى بعد آية البر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ البقرة ١٧٨ .

إلى ما قبل آخر السورة . وكان يتخلل كل ذلك — على طريقة القرآن — ما يدعو المؤمنين إلى التزام هذه الأحكام وعدم الاعتداء فيها ، من قصص ووعد ووعيد ، والإرشاد إلى سنن الله فى الكون والجماعات ، ثم تختم سورة البقرة ببيان عقيدة المؤمنين على نحو ما بدأت فى بيان أوصاف المتقين .

ونجد فى آخر السورة قوله تعالى :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة ٢٨٦ .

ومن ثم يتناسق البدء والختام وتتجمع موضوعات السورة وأهدافها ، ويؤكد آخرها أولها وتصير السورة كتلة واحدة، ينتفع المسلمون بها فى تنظيم أحوالهم فى العبادات والمعاملات وهى دعامة من دعائم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر قال تعالى :

﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ التغابن١١ .

أصناف الخلق أمام دعوة الاسلام

جهر عليه الصلاة والسلام بدعوته فى مكة ، ولما يئس من انتشار الدعوة بمكة هاجر إلى المدينة ،وهناك بنى مسجده واتخذه مقرا لنشر الدعوة ،وقد آمن به أهل المدينة ولقبوا بالأنصار ، وأصبحت للاسلام قوة جديدة ولم يبق بيت من بيوت المدينة إلا ودخاه الإسلام ، ولما كانت سورةالبقرة أول سورة نزلت بالمدينة ،وقد استمر نزول آياتها بضع سنين ، فقد عنيت بذكر أصناف الناس أمام دعوة الإسلام فقسمتهم إلى ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : المؤمنون، وقد وصفهم الله بخمس صفات هى : الإيمان بالغيب ، وإقامة الصلاة ، وإخراج الزكاة والصدقات : والإيمان بالكتب والرسل واليقين الكامل بالحساب والجزاء .

وهم بهذه الصفات أهل لهداية الله ، وللفلاح والرشاد .

الصنف الثانى : الكافرون ، وقد وصفهم القرآن بأنهم فقدوا الاستعداد لقبول الحق بسبب فساد فطرتهم ، وإحكام الغشاوة على قلوبهم ، وانسداد مسالك الفهم والإدراك فى وجدانهم ، وقد سماهم القرآن بالكافرين والفاسقين والخاسرين والضالين .

هؤلاء الكفار قد سدت عليهم منافذ الخير وسبل الهداية ، وأعلنوا الكفر والعناد .

وهذان الصنفان كثيرا ماتحدث القرآن عنهما فى مكيه ومدنيه ، فإن الدعوة الإسلامية لم تخل فى مرحلة من مراحلها عن مؤمن بها ، مصدق لها ، وعن كافر بها جاحد لآياتها .

الصنف الثالث : المنافقون ، ووجود هذه الطائفة نشأ بعد الهجرة إلى المدينة ودخول الأنصار فى الإسلام وظهور قوة المسلمين وبخاصة بعد غزوة بدر فاضطر نفر من الكبراء أن يتظاهروا باعتناق الدين الجديد ، ومن هؤلاء عبد الله ابن أبي بن سلول الذى كان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ملكا عليهم قبيل مقدم الإسلام إلى المدينة . وقد وصفتهم سورة البقرة بالنفاق والتلون وألقت عليهم الأضواء ، وذكر المنافقون فى سورة التوبة بصفات متعددة ، منها التخلف عن الجهاد والتظاهر بالإيمان ، والتخلى عن تبعاته وفرائضه ، كما ذكر المنافقون فى سورة باسمهم هى سورة « المنافقون » . ولا تكاد نجد سورة مدنية تخلو من ذكرهم ، ولفت الأنظار إلى أوصافهم ، وتحذير المؤمنين من كيدهم وخداعهم .

اليهود فى المدينة

فى ثنايا الحملة على المنافقين – الذين فى قلوبهم مرض – نجد إشارة إلى شياطينهم ، والظاهر من سياق سورة البقرة ، ومن سياق الأحداث فى السيرة أنها تعنى اليهود الذين تضمنت السورة حملات شديدة عليهم ، أما تصديهم لنماء الإسلام فى المدينة فيمكن تلخيصها فيما يأتى :

كان لليهود مركز ممتاز فى المدينة ، بسبب أنهم أهل كتاب بين الأميين من العرب — الأوس والخزرج — وكان اليهود يثيرون الفرقة والخصام بين الأوس والخزرج ، فلما جاء النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار ، وقضى على الخلاف والنزاع بين الأوس والخزرج ، بسبب أخوة الإسلام ووحدة المسلمين .

وقد اشتد حقد اليهود وحسدهم للنبى ، فقد حسدوه مرتين : مرة لأن الله اختاره رسولا من ولد اسماعيل ، وحسدوه لما لقيه من نجاح سريع شامل فى محيط المدينة .

على أنه كان هناك سبب آخر لعداوة اليهود للاسلام منذ الأيام الأولى ذلك هو شعورهم بالخطر من عزلهم عن المجتمع المدنى الذى كانوا يزاولون فيه القيادة العقلية والتجارة الرابحة والربا المضعف ، هذا أو يستجيبوا للدعوة الجديدة ويذوبوا فى المجتمع الإسلامى ، وهما أمران — فى تقديرهم — أحلاهما مر .

لهذا كله وقف اليهود من الدعوة الإسلامية موقف التكذيب والإنكار ، رغم يقينهم بصدقها .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ البقرة ٨٩ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِم كَأَنَّهُمْ لاَيَعْلَمُونَ ﴾ البقرة ١٠١ .

وقد استغرق الجزء الأول من سورة البقرة دعوة اليهود للدخول فى دين الله مع تذكيرهم بعثراتهم وخطاياهم والتوائهم وتلبيسهم منذ أيام موسى عليه السلام .

ومن خلال سورة البقرة ترتسم صورة واضحة لاستقبال بنى إسرائيل للإسلام ورسوله وكتابه — لقد كانوا أول كافر به . وكانوا يلبسون الحق بالباطل ، وكانوا يأمرون الناس بالبر — وهو الإيمان — وينسون أنفسهم ، وكانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وكانوا يخادعون الذين آمنوا بإظهار الإيمان وإذا خلا بعضهم إلى بعض حذر بعضهم بعضا من اطلاع المسلمين على ما يعلمونه من أمر النبى وصحة رسالته . وكانوا يريدون أن يردوا المسلمين كفارا ، وكانوا يدعون من أجل هذا أن المهتدين هم اليهود وحدهم — كما كان النصارى يدعون هذا أيضا — وكانوا يعلنون عداءهم لجبريل — عليه السلام — بما أنه هو الذى حمل الوحى إلى محمد دونهم . . وكانوا يكرهون كل خير للمسلمين ويتربصون بهم السوء . وكانوا ينتهزون كل فرصة للتشكيك فى صحة الأوامر النبوية ومجيئها من عند الله — كما فعلوا عند تحويل القبلة — وكانوا مصدر إيحاء وتوجيه للمنافقين ، كما كانوا مصدر تشجيع للمشركين .

ومن ثم تتضمن السورة حملة قوية على أفاعيلهم هذه ، وتذكرهم بمواقفهم المماثلة — من نبيهم موسى عليه السلام — ومن شرائعهم وأنبيائهم على مدار أجيالهم ، وتخاطبهم فى هذا كأنهم جيل واحد وطبيعة واحـــدة لا تتغير ولا تتبدل .

وتنتهى هذه الحملة بتيئيس المسلمين من الطمع فى إيمانهم لهم ، وهم على هذه الجبلة الملتوية ، كما تنتهى بفصل الخطاب فى دعواهم أنهم وحدهم المهتدون بما أنهم ورثة إبراهيم ، وتبين أن ورثة إبراهيم الحقيقيين هم الذين يمضون على سنته ، ويتقيدون بعهده مع ربه ، وأن وراثة إبراهيم قد انتهت إذن إلى محمد — صلى الله عليه وسلم — والمؤمنين به ، بعدما انحرف اليهود وبدلوا ونكلوا عن حمل أمانة العقيدة ، والخلافة فى الأرض بمنهج الله ، ونهض بهذا الأمر محمد والذين معه ، وأن هذا كان استجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل — عليهما السلام — وهما يرفعان القواعد من البيت :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ، وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ البقرة ١٢٨ و١٢٩ .

● ● ●

دروس من سورة آل عمران

سورة آل عمران مدنيه كلها وهي مائتا آية باتفاق . ومن سماتها البارزة وصف غزوة أحد وتسجيل أحـداثها وتقديم الدروس والعبر للمسلمين من خلالها فى قرابة خمسين آية (من الآية ١٢١ إلى الآية ١٦٨) وفى أعقاب غزوة أحد بيان فضل الشهادة ومنزلة الشهداء عند ربهم ، وحديث عن غزوة حمراء الأسد ، ودعوة إلى الصبر والثبات . وفى ختام السورة نجد لوحة رائعة من دعاء المؤمنين واستجابة الله رب العالمين .

(١)

قصة التسمية

جاء ذكر عمران فى هذه السورة مرتين فى آيتين متتاليتين هما قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ آل عمران ٣٣ — ٣٥ .

وقد ذهب فريق من المفسرين إلى أن آل عمران الذى سميت السورة باسمه هو عمران أبو موسى . والراجح أنه هو عمران والد مريم وكان بين العمرانين فيما يقول الرواة أمد طول .

ونحن إذا تتبعنا أسماء السور فى القرآن الكريم نجدها تشير إلى أهم

وأغرب ما اشتملت عليه السورة ، فسورة البقرة سميت بهذا الاسم لقصة عجيبة الشأن تتعلق ببقرة أمر بنو إسرائيل بذبحها ، وكان ذلك سبيلا لمعرفة الجانى فى حادثة قتل لم يعرف مرتكبها . وسورة المائدة سميت بهذا الاسم لقصة المائدة التى طلب الحواريون إنزالها من السماء . وسورة النساء سميت بذلك لأن أهم ماعرضت له هو الأحكام التى أراد الله بها تنظيم أحوال النساء وحفظ حقوقهن وعدم الإضرار بهن وهكذا : وسورة الأنعام تعرضت لذكر الأنعام وأنواعها من الإبل والبقر والغنم ، وسورة الأعراف تعرضت لذكر الأعراف ، وهو حاجز مرتفع بين الجنة والنار عليه رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم . وسورة الأنفال ، تعرضت لذكر الأنفال وهى الغنائم وطريقة توزيعها . وسورة التوبة ، تعرضت لذكر توبة الله على المؤمنين وعلى الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ثم [تاب عليهم ليتوبوا .

وسورة يونس ، تعرضت لذكر نبى الله يونس . وإيمان قريته كلها به .

وسورة هود ، تعرضت لذكر نبى الله هود ورسالته إلى قومه فى قوله تعالى :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ .

وتتابعت السورة تصف رسالات السماء إلى ثمود قوم صالح وإلى مدين قوم شعيب ورسالة إبراهيم ولوط وموسى إلى قومهم .

وسورة يوسف ، دارت كلها تقريبا حول قصة يوسف عليه السلام من بدايتها إلى نهايتها .

وهكذا نجد أن الأساس العام فى تسمية السورة هو أهم شىء ذكر فيها أو أغرب شىء تحدثت عنه ، وإذا رجعنا إلى تسمية السورة الثالثة (١) من القرآن

---

(١) السورة الأولى هى سورة الفاتحة والسورة الثانية هى سورة البقرة .

بسورة آل عمران، وراعينا أننا إذا قرأنا السورة من أولها إلى آخرها لانجد فيها شيئا غريبا أو هاما يتعلق بخصوص موسى وهارون ولكن أبرز ما فيها وأغرب شئونها هو ماعنيت بتفصيله من شأن عيسى وأمه . وهذا يدعونا إلى موافقة رأى من رأى من المفسرين أن عمران الذى سميت السورة بآله هو عمران أبو مريم لا أبو موسى وهارون . فالسورة تذكر طبقات من اصطفاهم الله من آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران لتبين للقوم من أول الأمر أن اصطفاء الله من آل عمران عيسى وأمه، ليس إلا كاصطفائه لغيرهما ممن اصطفى وأن ماظهر على يد عيسى من خوارق العادات التى يتخذونها دليلا على ألوهيته أو نبوته أو حلول الله فيه ، لم يكن إلا أثرا من آثار التكريم الذى جرت به سنة الله فيمن يصطفى من الأنبياء والمرسلين . ويقوى هذا أن الله يقول عقب هذه الآية بيانا لاصطفاء آل عمران :

﴿ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إذْ قَالَتِ امرَأةُ عِمْرَانَ رَبِّ إنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ .

وأنه يقول فى جانب مريم :

﴿ وإذْ قَالَتِ المَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ واصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ ﴾ آل عمران ٤٢ .

وهكذا نجد ان اصطفاء آل عمران ذكر أولا مجملا ضمن من اصطفى الله، ثم بين باصطفاء مريم أم عيسى ، ومن هذا يتبين أن عمران الذى سميت السورة بآله هو أبو مريم لا أبو موسى وهارون .

(٢)
مقاصد سورة آل عمران

سورة آل عمران مدنية وليست من أوائل مانزل بالمدينة ، ولكنها نزلت بعد فترة طويلة من حياة المسلمين بها ، تقلبت فيها عليهم أحوال من النصر والهزيمة فى غزوات متعددة ، واختلطوا على صورة واضحة بأهل الكتاب من

يهود ونصارى ، وجرى بينهم كثير من الحجاج والنقاش فيما يتصل بالدعوة المحمدية وفروعها .

وقد ذكر فيها غزوات بدر وأحد وحمراء الأسد وبدر الأخيرة . وكانت هذه فى شعبان من السنة الرابعة . وقد نزلت سورة آل عمران بعد سورة الأنفال التى تكفلت بالكلام على بدر ونزلت بعدها سورة الأحزاب التى حصلت فى آخر السنة الخامسة .

العناية بأمرين عظيمين :

ونحن إذ نقرأ السورة نجد أنها عنيت بأمرين عظيمين :

أحدهما تقرير الحق فى قضية العالم الكبرى وهى مسألة الألوهية وإنزال الكتب وما يتعلق بها من أمر الوحى والرسالة ، وبيان وحدة الدين عند الله .

والثانى تقرير العلة التى من أجلها ينصرف الناس فى كل زمان ومكان عن التوجه إلى معرفة الحق والعمل على إدراكه والتمسك به (١) .

الأمر الأول : قضية الألوهية وتقرير الحق فيها :

ولقد بدأت السورة بتقرير الأمر الأول فذكرت وحدانية الله ، وأنه وحده هو الحى الذى لايدركه الفناء ، القيوم الذى له الهيمنة والتدبير والقيام على شئون الخلق بالإيجاد والتربية الجسمية والعقلية والإعزاز والإذلال . وقررت فى سبيل ذلك علمه المحيط وقدرته النافذة القاهرة :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ آل عمران ٢ — ٤ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ

---

(١) انظر رقم ٤ فيما يأتى .

الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ آل عمران ٥ و ٦ .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ آل عمران ٢٦ و ٢٧ .

تقرر السورة هذا فى كثير من أمثال هذه الآيات ثم تقرر اصطفاء الله لبعض خلقه :

﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ .

يعرفون مهمتهم التى كلفهم الله إياها وهى دعوة الخلق إلى الحق وأنهم أعقل وأحكم من أن يقولوا للناس اتخذونا آلهة من دون الله :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ آل عمران ٧٩ .

وقد أخذ الله العهد على الرسل أن يصدق بعضهم بعضاً فى الحق ودعوة الناس إليه ، وأن يصدق السابق منهم اللاحق . قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ آل عمران ٨١ .

هذا هو العهد الذى حفظه عيسى عليه السلام ووفى عليه ، وسيجيب به

ربه يوم القيامة ، وسيتبرأ المسيح عليه السلام ممن عبده أو اتخذه إلها .

﴿ وإِذْ قَالَ اللهُ يا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ أأنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَافِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ المائدة ١١٦ و ١١٧ .

(٣)

وحدة الدين عند الله

أبرزت سورة آل عمران وحدة الدين عند الله وكررت هذه الحقيقة على لسان رسله جميعا :

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ . . ﴾ آل عمران ٣ .

﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْراهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى والنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران ٨٤ .

وتقرر أن هذا هو الدين الذى جاء من عند الله وأن :

﴿ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ آل عمران ٨٥ .

ثم تتجه السورة إلى الذين غلبت عليهم شقوتهم فحاربوا الله فى دينه وأعرضوا عن رسله وأخذوا يتناولون الحق على وضوحه فتذكر كثيرا من أساليب ضلالهم وألوان شبههم التى كانوا يعززون بها مراكزهم ويحاولون بها فتنة المؤمنين عن دينهم حسدا وبغيا لا طلبا للحق ولا التماسا للهدى .

المسرفون فى شأن عيسى

وقد خصت السورة جماعة المسرفين فى شأن عيسى الزاعمين له من ألوهية أو بنوة أو حلول فذكرت السورة أن عيسى خلق بقدرة الله ليكون معجزة للبشرية ودليلا على تفرد الله بالألوهية فقد خلق الله آدم بدون أب ولا أم ثم خلق حواء من أب دون أم ثم خلق عيسى من أم دون أب . قال تعالى :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ آل عمران ٥٩ .

فظهور الخوارق والمعجزات أمر من سنة الله فى خلقه فقد خلق الله يحيى لزكريا على كبر من أبيه ويأس من أمه وبشرت الملائكة زكريا بيحيى وتعجب زكريا من هذه البشارة مع حالته فرده الله إلى مشيئته

﴿ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ آل عمران ٤٠ .

وهكذا كان شأن عيسى وجد من غير أب بمشيئة الله ، وبشرت الملائكة به أمه بأمر الله . وعجبت مريم لهذه البشارة .

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ .

فردها الله إلى مشيئته :

﴿ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ آل عمران ٤٧ .

ثم تعرض السورة بعد هذا إلى أن الخوارق التى ظهرت على يد عيسى لم تكن إلا من سنة الله فى تأييد رسله بالمعجزات الدالة على أنهم عباد الله علمهم الله الكتاب والحكمة وان الله أرسله إلى بنى إسرائيل بآيات من ربه . وعلى لسان عيسى يقول القرآن الكريم :

﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ

وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ آل عمران ٤٩-٥١ .

بيان أسباب انصراف الناس عن الحق

المقصد الثانى من مقاصد سورة آل عمران : بيان أسباب انصراف الناس عن الحق وشرح أسباب العلة التى تستحوذ على عقول الناس وتستولى على قلوبهم فتصرفهم عن الاستماع للحق والالتفات إليه .

وقد بينت السورة أن هذه العلة هى غرور الناس بما لهم من أموال وأولاد وجاه وسلطان ، فقد كانوا يتصورون أن فى إيمانهم بصاحب الدعوة الجـــديدة زلزلة لما لهم من جاه وسلطان ، وأنهم فى غنى عن هذه الدعوة بما لهم من الأموال والأولاد . ويظنون أن ذلك كان لهم عن استحقاق ذاتى وأنه دائم لا يزول ، ولا يؤثر فيه إيمان ولا كفر ، وكثيرا ما حدثنا القرآن من مثل هذا الوهم الفاسد الذى خدع كثيرا من الناس فأضلهم وأعمى أبصارهم ، قال تعالى :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ الكهف ٣٥ ، ٣٦ .

وقال سبحانه ،

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ، وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ

الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ ، قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ، أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ ﴾ القصص ٧٦ - ٧٨ .

وعلى هذا الأساس الذى أرشدنا الله إليه فى كثير من آيات كتابه أخذت سورة آل عمران تضرب على هذه العلة التى يتوارثها الجبارون ، وترشد إلى أن حب المـال والغرور بمتاع الحياة هما علة العلل وهما الحائل بين الناس وبين الحياة الطيبة والإيمان الصادق . وفى ذلك تقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ آل عمران ١٠ .

وجدير بالمسرفين فى كل زمان ومكان أن يلتفتوا إلى أن الأموال التى ينفقونها فى لذاتهم وشهواتهم وبسط سلطانهم على الناس بغير حق ، لابد أن تفسد عليهم فى نهاية الأمر أخلاقهم وعقولهم وتهدم ما بنوا من حضارات وما شيدوا من قصور .

وبينما تعرض السورة أثر الافتتان وسوء عاقبة الغرور بالأموال والأولاد ، نراها تقرر الحق فى شأن حب الناس للأموال ومظاهر هذه الحياة ، وتقول إنه شيء قد فطروا عليه ، ولكنه ليس هو المقصد الأسمى من هذه الحياة ، وإنما هو متاع وزينة — وهو فى الوقت نفسه وسيلة للحصول على المتاع الخالد فى الحياة الخالدة . إذا أحسن استعماله ، قال تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ . قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ

مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ آل عمران ١٤ ، ١٥ .

ثم تصف هؤلاء الذين اتقوا والذين لهم ذلك الجزاء بأنهم هم الذين أدركوا الحق وأنفقوا ما آتاهم الله من مال ابتغاء مرضاة الله ، وصبروا على ما انتابهم من بلايا ومحن ورجعوا إلى الله بالتوبة والاستغفار قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ آل عمران ١٦ ، ١٧ .

(٥)

عظمة القرآن فى تربية المؤمنين

تمثل سورة آل عمران قطاعاً حيا من حياة الجماعة المسلمة فى المدينة من بعد غزوة بدر فى السنة الثانية من الهجرة ، إلى ما بعد غزوة أحد فى السنة الثالثة وما أحاط بهذه الحياة من ملابسات شتى فى خلال هذه الفترة الزمنية ، وفعل القرآن إلى جانب الأحداث فى هذه الحياة وتفاعلها معها فى شتى الجوانب .

والنصوص من القوة والحيوية بحيث تستحضر صورة هذه الفترة وصورة الحياة التى عاشتها الجماعة المسلمة وصورة الاشتباكات والملابسات التى أحاطت بهذه الحياة .

ويتنزل القرآن ليواجه الكيد والدس ويبطل الفرية والشبهة ويثبت القلوب والإقدام ، ويوجه الأرواح والأفكار ويعقب على الحادث ويبرز فيه

العبرة ، ويبنى التصور ويزيل عنه الأوهام ، ويحذر الجماعة المسلمة من العدو الغادر والكيد الماكر ويقود خطاها بين الأشواك والمصايد والأحابيل؛ قيادة الخبير بالفطرة العليم بما تكن الصدور .

وإذا أعدنا قراءة سورة آل عمران وقصة بدر وأحد فيها ، أدركنا أن هذا القرآن هو قرآن هذه الدعوة فى أى مكان وفى أى زمان ، وهو دستور هذه الأمة فى أى جيل ومن أى قبيل ، وهو حادى الطريق وهادى السبيل على توالى القرون . . ذلك أنه خطاب الله الأخير لهذا الإنسان فى جميع العصـــور .

* * *

فى هذه الفترة التى نزلت فيها السورة كانت الجماعة المسلمة فى المدينة قد استقرت بعض الاستقرار فى موطنها الجديد فى مدينة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكانت غزوة بدر الكبرى قد وقعت وكتب الله فيها النصر للمسلمين على قريش ، وكان هذا النصر بظروفه التى تم فيها والملابسات التى أحاطت به تبدو فيه رائحة المعجزة الخارقة . ومن ثم اضطر رجل كعبد الله بن أبى بن سلول من عظماء الخزرج أن ينزل عن كبريائه وكراهته لهذا الدين ولنبيه الكريم ، وأن يكبت حقده وحسده للرسول الكريم ، وأن ينضم منافقا للجماعة المسلمة وهو يقول ، « هذا أمر قد توجه » ، أى ظهرت له وجهة هو ماض فيها لا يرده عنها راد .

بذلك وجدت بذرة النفاق فى المدينة أونمت وأفرخت . وقد وجد هؤلاء المنافقون حلفاء طبيعيين لهم فى اليهود الذين كانوا يجدون فى أنفسهم من الحقد على الإسلام والمسلمين مثل ما يجد المنافقون بل أشد .

ولذلك نزل القرآن الكريم يوضح حقيقة الألوهية ويبين الحق فى الرسالة ثم يوضح العلة التى أعمت الناس عن رؤية الحق وهى علة الغرور بالمال والولد . واستغرقت سورة آل عمران أكثر من نصفها فى توضيح هذين المقصدين .

ثم توجهت السورة إلى جماعة المؤمنين الذين جمعهم الحق ، وتكونوا

على أساس الرحمة بالخلق لتحذرهم من دسائس المنافقين وحيل المبطلين وخداع اليهود والمشركين وتذكرهم أن يظلوا إخوة معتصمين بحبل الله متحدين برباط الأخوة والمودة متضامنين فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى تدوم لهم وحدتهم وتستقر دولتهم ، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ آل عمران ١٠٠

وقال سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُو اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ وَاعتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ آل عمران١٠٢ ،١٠٣ .

القرآن كتاب الوجود والخلود

هذا القرآن هو كتاب الدعوة الإسلامية ، وهو روحها وباعثها وهو قوامها وكيانها وهو حارسها وراعيها وهو بيانها وترجمانها وهو دستورها ومنهجها ، وهو فى النهاية المرجع الذى تستمد منه الدعوة — كما يستمد منه الدعاة — وسائل العمل ومناهج الحركة وزاد الطريق . .

ولكن ستظل هنالك فجوة عميقة بيننا وبين القرآن مالم نتمثل فى حسنا ونستحضر فى تصورنا أن هذا القرآن خوطبت به أمة حية ، ذات وجود حقيقى ووجهت به أحداث واقعية فى حياة هذه الأمة ، ووجهت به حياة إنسانية حقيقية فى هذه الأرض وأديرت به معركة ضخمة فى داخل النفس البشرية وفى رقعة من الأرض كذلك ، معركة تموج بالتطورات والانفعالات والاستجابة :

* * *

وسيظل هنالك حاجز سميك بين قلوبنا وبين القرآن ، طالما نحن نتلوه أو نسمعه كأنه مجرد تراتيل تعبدية مهومة ، لا علاقة لها بواقعيات الحياة البشرية اليومية التى تواجه الإنسان والتى تواجه الأمة الإسلامية ، بينما هذه

الآيات نزلت لتواجه نفوسا ووقائع وأحداثا حية : ذات وجود واقعي حي، ووجهت بالفعل تلك النفوس والوقائع والأحداث توجيها واقعيا حيا تنشأ عنه وجود ذو خصائص في حياة (الإنسان) بصفة عامة ، وفي حياة الأمة الإسلامية بوجه خاص .

* * *

ومعجزة القرآن البارزة تكمن في أنه نزل لمواجهة واقع معين في حياة أمة معينة في فترة من فترات التاريخ محددة ، وخاض بهذه الأمة معركة كبرى حولت تاريخها وتاريخ البشرية كله معها ، ولكنه — مع هذا — يعارض ويواجه ، ويملك أن يواجه الحياة الحاضرة ، وكأنما هو يتنزل اللحظة لمواجهة الجماعة المسلمة في شئونها الجارية ، وفي صراعها الراهن مع الأعداء من حولها ، وفي معركتها كذلك في داخل الناس وفي عالم الضمير بنفس الحيوية ونفس الواقعية التي كانت له هنالك يومذاك »

* * *

وإذا كان من المضحك أن يقول قائل عن الشمس مثلا : هذا نجم قديم (رجعي) يحسن أن نستبدل به نجم جديد (تقدمي) : أو أن هذا (الإنسان) مخلوق قديم (رجعي) يحسن أن يستبدل به كائن آخر (تقدمي) لعمارة هذه الأرض .

إذا كان من المضحك أن يقال هذا أو ذاك ، فأولى أن يكون هذا هو الشأن في القرآن خطاب الله الأخير للانسان .

لقد عاش القرآن في ضمير الجماعة الإسلامية وأخذ بيدها خطوة بخطوة وسار معها وهي تتعثر وتنهض ، وتحيد وتستقيم وتضعف وتقاوم ، وتتألم وتحتمل وترقى في الدرج الصاعد في بطء ومشقة وفي صبر ومجاهدة : تتجلى فيها كل خصائص الإنسان وكل ضعف الإنسان وكل طاقات الإنسان .

لقد واكب القرآن النصر للمسلمين في بدر ، والهزيمة في أحد ، فكان القرآن أستاذا في التربية السلوكية أعلمهم أن النصر من عند الله وأن سلاح

النصر هو الإيمان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والثقة بالله والاعتماد عليه ، والعمل الدائب المخلص ، وفي أعقاب الهزيمة في أحد كان القرآن يأسو الجراح ويمسح الآلام ويوضح أن الأيام دول وأن الحرب سجال يوم لك ويوم عليك .

وكانت للقرآن دعوات متكررة في سورة آل عمران تحث على الصبر والمصابرة والرباط والمرابطة وتبين شرف الشهادة وأجر المجاهدين وثواب الصابرين ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

آل عمران ١٦٩ — ١٧١

دروس من غزوة أحد

لقد عنيت سورة آل عمران بمقصدين عظيمين استغرقا نصفها الأول ، هما الصدق في الإيمـــان ، وعدم الاغترار بزخارف الحياة . وفي النصف الثاني من هذه السورة نجد دروسا عملية عن أسرار النصر في بدر والهزيمة في أحد .

قلفتت السورة نظر المسلمين إلى واقعة بدر وكيف انتصروا فيها بالإيمان والصبر والتقوى مع قلتهم وضعفهم في المال والعدة ومع كثرة أعدائهم ووفرة مالهم وقوة عددهم ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ

آلَافٍ مِنَ المَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ؟ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ المَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ، وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ آل عمران ١٢٣ — ١٢٦ .

وتلفت السورة نظر المسلمين إلى موقعة أحد وفيها اعتمد المسلمون على قوتهم وكثرتهم ، وخطف أبصارهم شيء من زخارف الدنيا . وفيها انهزموا بسبب مخالفة الرماة أوامر القيادة الحكيمة ، وفيها أرجف الأعداء بموت الرسول ، فتزلزلت أعصاب كثير من المؤمنين وفيها أفصح المنافقون عن نياتهم ، وفى ذلك كله تقول سورة آل عمران :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ .

والمعنى إذ تقتلونهم وتبطلون حسهم بإذن الله :

﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُم وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُم مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران ١٥٢ .

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْقُتِلَ انْقَلَبْتُم عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ، وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ، وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ

رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ، وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ، فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ آل عمران ١٤٤ — ١٤٨ .

* * *

ثم تنبه السورة إلى أن الشأن فى أرباب الحق أن ينالهم من نصراء الباطل كثير من الأذى بالقول والعمل ، وأن واجب المؤمنين أن يتلقوا كل ذلك بالصبر والاحتمال . قال تعالى :

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ آل عمران ١٨٦ .

بعد هذا كله تختم السورة بأمرين عظيمين :

أحدهما : رسم الطريق الذى يصل به الإنسان إلى معرفة الحق والإيمان به فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ آل عمران ١٩٠ ، ١٩١

والثانى : هذه النصيحة الغالية التى ما تمسكت بها أمة إلا تركزت وسمت وعزت وما تخلت عنها أمة إلا أصيبت بالضعف والانحلال والتدهور والانحطاط والذل والهوان : وتتمثل هذه النصيحة فى الآية الأخيرة من سورة آل عمران :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران ٢٠٠

(٨)

سنن الله ماضية وقوانينه عامة

انتصر المسلمون فى غزوة بدر فى العام الثانى من الهجرة نصراً كاملا باهرا بأيسر الجهد والبذل ، فقد خرج ذلك العدد القليل من المسلمين غير مزودين بعدة ولا عتاد — إلا اليسير — فلاقوا ذلك الجحفل الضخم من قريش فى عدتهم وعتادهم . ثم لم تلبث المعركة أن انجلت عن ذلك النصر المؤزر الباهر .

وكان هذا النصر فى الواقعة الأولى التى يلتقى فيها جند الله بجند الشرك قدرا من قدر الله تدرك اليوم طرفا من حكمته ، ولعله كان لتثبيت الدعوة الناشئة وتمكينها بل لإثبات وجودها الفعلى على محك المعركة لتأخذ بعد ذلك طريقها .

فأما المسلمون فلعلهم قد وقع فى نفوسهم — من هذا النصر — أنه الشأن الطبيعى الذى لا شأن غيره ، وأنه لابد ملازمهم على أى حال فى كل مراحل الطريق ، أليسوا بالمسلمين ؟ أليس أعداؤهم بالكافرين ؟ وإذن فهو النصر لامحالة حيثما التقى المسلمون بالكافرين .

غير أن سنة الله فى النصر والهزيمة ليست بهذه الدرجة من البساطة والسذاجة ، فلهذه السنة مقتضياتها فى تكوين النفوس وتكوين الصفوف ، وإعداد العدة واتباع المنهج والتزام الطاعة والنظام ، واليقظة لخوالج النفس ولحركات الميدان . وهذا ما أراد الله أن يعلمهم إياه بالهزيمة فى (غزوة أحد) على النحو الذى تعرضه سورة آل عمران عرضا حيا مؤثرا عميقا ، وتعرض أسبابه من تصرفات بعض المسلمين ، وتوجه فى ظله العظات البناءة للنفس وللصف على السواء .

وحين نراجع غزوة أحد نجد أن تعليم المسلمين هذا الدرس قد كلفهم أهوالا وجراحات وشهداء من أعز الشهداء – على رأسهم حمزة رضى الله عنه وأرضاه – وكلفهم ما هو أشق من ذلك كله على نفوسهم ، كلفهم أن يروا رسولهم الحبيب تشج جبهته وتكسر سنه ويسقط فى الحفرة . ويغوص حلق المغفر فى وجنته – صلى الله عليه وسلم – الأمر الذى لا يقوم بوزنه شىء فى نفوس المسلمين . ويسبق استعراض (غزوة أحد) وأحداثها فى السورة قطاع كبير تستغرقه كله توجيهات متشعبة لتصفية التصور الإسلامى من كل شائبة ، ولتقرير حقيقة التوحيد جلية ناصعة والرد على الشبهات التى يلقيها أهل الكتاب – سواء منها ما هو ناشىء من انحراف فى معتقداتهم وما يتعمدون القاءه فى الصف المسلم من شبهات ماكرة لخلخلة الصف من وراء خلخلة العقيدة .

وتذكر عـدة روايات أن الآيات من ١ – ٨٣ نزلت فى الحوار مع وفد نصارى نجران من اليمن الذى قدم المدينة فى السنة التاسعة للهجرة ونحن نستبعد أن تكون السنة التاسعة هى زمن نزول هذه الآيات فواضح من طبيعتها وجوها أنها نزلت فى الفترة الأولى من الهجرة حيث كانت الجماعة المسلمة بعد ناشئة وكان لدسائس اليهود وغيرهم أثر شديد فى كيانها وسلوكها . وسواء صحت رواية أن الآيات نزلت فى وفد نصارى نجران أم لم تصح فإنه واضح من الموضوع الذى تعالجه أنها تواجه شبهات النصارى وخاصة ما يتعلق منها بعيسى عليه السلام ، وتدور حول عقيـدة التوحيد الخالص كما جاء بها الإسلام وتصحح لهم ما أصاب عقائدهم من انحراف وخلط وتشويه وتدعوهم إلى الحق الواحد الذى تضمنته كتبهم الصحيحة التى جاء القرآن يصدقهـا .

ومن مراجعة نصوص السورة يتبين المسلم أن هذا القرآن هو كتاب الحياة صحح أوضاعها للمسلمين وصحح العقيدة وناقش عقائد الآخرين وحذر المسلمين من كيد الأعداء ودسائسهم وهذا القرآن مأدبة الله معروض للمسلمين مفتوح للقارئين هو دليل الحيارى ورحمة الضالين وهداية المسترشدين وهو

النور المبين والركن الركين والصراط المستقيم من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله لم تسمعه الجن حتى قالت :

﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ الجن ١ ٢٥

(٩)

منهج القرآن فى بناء العقيدة والدفاع عنها

القارىء لسورة آل عمران يتضح أمامه أن أعداء الأمة الإسلامية كانوا يحاربونها فى عدة ميادين منها ميدان المعركة ومنها ميدان الفكرة والإيمان ، وأنهم حاولوا تشكيك المسلمين فى عقيدتهم وتوهين إيمانهم لأنهم كانوا يدركون — كما يدركون اليوم تماما — أن هذه الأمة لا تؤتى إلا من هذا المدخل ولا تهن إلا إذا وهنت عقيدتها ولا تهزم إلا إذا هزمت روحها ولا يبلغ أعداؤها منها شيئا وهى ممسكة بعروة الإيمان مرتكنة إلى ركنه سائرة على نهجه حاملة لرايته ممثلة لحزبه منتسبة إليه معتزة بهذا النسب وحده .

ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة هو الذى يلهيها عن عقيدتها الإيمانية ويحيد بها عن منهج الله وطريقه ويخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة .

إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هى قبل كل شىء معركة هذه العقيدة ، وحتى حين يريدها أعداؤها أن يغلبوها على الأرض والمحصولات والاقتصاد والخامات والطاقة ، فإنهم يحاولون أولا أن يغلبوها على العقيدة ، لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئا والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدتها وملتزمة بمنهجها مدركة لكيد أعدائها، ومن ثم يبذل هؤلاء الأعداء وعملاؤهم جهد الجبارين فى خداع هذه الأمة عن حقيقة المعركة ، ليفوزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من استعمار

واستغلال ، وهم آمنون من عزمة العقيدة فى الصدور وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة والتشكيك فيها والتوهين من عراها استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقية الجديدة ولكن لنفس الغاية القديمة :

﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ آل عمران ٦٩

فهذه هى الغاية الثابتة الدفينة .

لهذا كان القرآن يدفع هذا السلاح المسموم أولا . . كان يأخذ الجماعة المسلمة بالتثبيت على الحق الذى هى عليه ، وينفى الشبهات والشكوك التى يلقيها أهل الكتاب ، ويجلو الحقيقة الكبيرة التى يتضمنها هذا الدين ، ويقنع الجماعة المسلمة بحقيقتها وقيمتها فى هذه الأرض ودورها ودور العقيدة التى تحملها فى تاريخ البشرية .

وكان يأخذها بالتحذير من كيد الكائدين ، ويكشف لها نواياهم المستترة ووسائلهم القذرة ، وأهدافهم الخطرة ، وأحقادهم على الإسلام والمسلمين.

وكان يأخذها بتقرير حقيقة القوى وموازينها فى هذا الوجود فيبين لها هزال أعدائها وهوانهم على الله ، وضلالهم وكفرهم بما أنزل الله إليهم من قبل وقتلهم الأنبياء . كما يبين لها أن الله معها ، وهو مالك الملك المعز المذل وحده بلا شريك . وأنه سيأخذ الكفار — ويقصد بهم هنا اليهود — بالعذاب والنكال كما أخذ المشركين فى بدر منذ عهد قريب .

وكانت هذه التوجيهات تتمثل فى أمثال هذه النصوص من سورة آل عمران :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ آل عمران ٤ ، ٥

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ آل عمران ٨٥ .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ آل عمران ٢٦ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُم كَافِرِينَ ، وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُم تُتْلَى عَلَيْكُم آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ آل عمران ١٠٠ ، ١٠١

(١٠)

أعداء يكيدون للإسلام

القارىء لسورة آل عمران والمتتبع لأهدافها يتبين من خلالها عدة أمور :

أولها : ضخامة الجهد الذى كان يبذله أهل الكتاب فى المدينة وغيرها وعمق الكيد وتنوع أساليبه واستخدام جميع الوسائل لزعزعة العقيدة وخلخلة الصف المسلم من ورائها .

وثانيها : ضخامة الآثار التى كان هذا الجهد يتركها فى النفوس وفى حياة الجماعة المسلمة ، مما اقتضى هذا البيان الطويل المفصل المنوع المقاطع والأساليب .

وثالثها : هو ما نلمحه اليوم من وراء القرون الطويلة ، من أن هؤلاء الأعداء هم الذين يلاحقون هذه الدعوة وأصحابها فى الأرض كلها ، وهم الذين تواجههم هذه العقيدة وأهلها .

ومن ثم اقتضت إرادة الله الحكيم الخبير أن يقيم هذا المشعل الهادى الضخم البعيد المطارح لتراه الأجيال المسلمة قويا واضحا عميق التركيز على كشف الأعداء التقليديين لهذه الأمة ولهذا الدين .

ثلاثة خطوط عريضة

ولا يتم التعريف بسورة آل عمران حتى نلم بثلاثة خطوط عريضة فيها تتناثر نقطها في السورة كلها ، وتتجمع وتتركز في مجموعها ، حتى ترسم هذه الخطوط العريضة بوضوح وتوكيد .

أول هذه الخطوط : بيان معنى الدين ومعنى الإسلام ، فليس الدين هو كل اعتقاد في الله . إنما هو صورة واحدة من صور الاعتقاد فيه سبحانه ، صورة التوحيد المطلق الناصع القاطع : توحيد الألوهية التي يتوجه إليها البشر كما تتوجه إليها سائر الخلائق في الكون بالعبودية . وتوحيد القوامة على البشر وعلى الكون كله : فلا يقوم شيء إلا بالله تعالى ، ولا يقوم على الخلائق إلا الله تعالى . ومن ثم يكون الدين والتلقي من هذا المصدر وحده في كل شأن من شئون الحياة ، والتحاكم إلى كتاب الله المنزل من هـذا المصدر واتباع الرسل الذين نزل عليهم الكتاب ، وهو في صميمه كتاب واحد ، وهو في صميمه دين واحد . . الإسلام . . بهذا المعنى الواقعي في ضمائر الناس وواقعهم العملي على السواء ، والذي يلتقي عليه كل المؤمنين اتباع الرسل . . كل في زمانه . . متى كان معنى إسلامه هو الاعتقاد بوحدة الألوهية والقوامة ، والطاعة والاتباع في منهج الحياة كله بلا استثناء ويتكيء سياق السورة على هـذا الخط ويوضحه في أكثر من ثلاثين موضعا من السورة بشكل ملحوظ . . نضرب له بعض الأمثلة بالآيات الآتية :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ آل عمران ١٨

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ آل عمران ١٩ .

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ . . ﴾

آل عمران ٣١ .

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ فإن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

آل عمران ٣٢

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ آل عمران ٨٣.

﴿ ومَن يَبْتَغِ غَيْرَ الاسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ آل عمران ٨٥.

ونصوص أخرى كثيرة تؤكد وحدانية الله وأن الإسلام هو الدين الحق عند الله وأن دعوة الرسل واحدة ، وهدايتهم واحدة ، هى الدعوة إلى توحيد الله وتدعيم الأخلاق ، والحث على الفضائل ، والتحذير من الرذائل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ آل عمران ١١٠.

أما الخط الثانى الذى يركز عليـــه سياق السورة فهو تصوير حال المسلمين مع ربهم واستسلامهم له وتلقيهم لكل مايأتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع الدقيق ، ونضرب له بعض الأمثلة من آيات سورة آل عمران :

يقول الله تعالى :

﴿ والرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْـــدِ رَبِّنَا – وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ – ، رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ اذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ ، رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ المِيعَادَ ﴾ آل عمر ٧ – ٩

ويقول سبحانه فى بيان صدق المؤمنين وثقتهم بربهم وتوكلهم عليه حين سمعوا عن كثرة أعدائهم بعد غزوة حمراء الأسد ، فلم يزدهم ذلك إلا ثقة ويقينا وإيمانا واعتمادا على الله بعد الأخذ بالعدة والأسباب :

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِن النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم فَاخْشَوهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾ آل عمران ١٧٣

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِم وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ . رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ، رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ المِيعَادَ ﴾ آل عمران ١٩١ ـ ١٩٤

والخط الثالث العريض فى سياق السـورة هو التحذير من ولاية غير المؤمنين والتهوين من شأن الكافرين مع هذا التحذير ، وتقرير أنه لا إيمان ولا صلة بالله مع تولى الكفار الذين لا يحتكمون لكتاب الله ، ولا يتبعون منهجه فى الحياة ، وهذه نماذج من هذا الخط العريض .

﴿ لَا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ ـ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ ﴾ آل عمران ٢٨ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُم فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ . بَلِ اللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ آل عمران ١٤٩ ـ ١٥٠ .

﴿ لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي البِلاَدِ ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَادُ ﴾ آل عمران ١٩٦ ـ ١٩٧

وهذه الخطوط الثلاثة متناسقة فيما بينها متكاملة فى تقرير التصور الإسلامى وتوضيح حقيقـة التوحيد ومقتضاه فى حياة البشر وفى شعورهم بالله ، وأثر ذلك فى موقفهم من أعداء الله الذى لا موقف لهم سواه .

بالتزاماته نحوها وجعل نفقة الرجل على أولاده ورعايته لهم نوعا من الكفاح والجهاد السلمى يثاب المؤمن على فعله ويعاتب على تركه .

اليتــامى :

أمرت السورة بعد ذلك برعاية اليتامى والمحافظة على أموالهم وإكرام اليتيم لصغره وعجزه عن القيام بمصالحه . وحذرت السورة من إتلاف أموال اليتامى أو تبديدها ، وحثت على القيام بحقوقهم واختبارهم فى المعاملات قبيل سن البلوغ حتى يكون اليتيم متمرنا على أنواع المعاملات والبيع والشراء عندما يستلم أمواله .

وقد توعدت السورة آكل مال اليتيم بالنار والسعير، والعذاب الشديد، وقد مهدت لهذه الأحكام فى آياتها الأولى فطالبت تقوى الله وصلة الرحم ، وأشعرت أنهم جميعا خلقوا من نفس واحدة ، أى أن اليتيم وإن كان من غير أسرتكم فهو رحمكم وأخوكم فقوموا له بحق الأخوة وحق الرحم ، واعلموا أن الله الذى خلقكم من نفس واحدة وربط بينكم بهذه الرحم الإنسانية العامة رقيب عليكم يحصى عليكم أعمالكم ، ويحيط بما فى نفوسكم ويعلم ما تضمرون من خير أو شر فيحاسبكم عليه . وبعد هذا التمهيد الذى من شأنه أن يملأ القلوب رحمة ، يأمرهم الله بحفظ أموال اليتامى حتى يتسلموها كاملة غير منقوصة ويحذرهم من الاحتيال على أكلها عن طريق المبادلة أو عن طريق المخالطة قال تعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾
النساء ٢

أى لاتخلطوا مال اليتيم بمالكم ليكون ذلك وسيلة تستولون بها على مال اليتيم تحت ستار الإصلاح بالبيع أو الشراء باسم أنه منفعة لليتيم أو بالخلط والشركة باسم أنه أفضل لليتيم .

وقد تحرج أتقياء المسلمين من مخالطة اليتيم فأباح الله مخالطة اليتامى

ما دام القصد حسنا والنية صادقة فى نفع اليتيم ، والله سبحانه مطلع على السرائر ومحاسب عليها .

﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً ﴾ النساء ٦

المـــال والميراث

عنيت سورة النساء وغيرها بشأن المال ، وقد أمرت السورة بالمحافظة على المال وتثميره ، ونهت عن الإسراف والتبذير وأمرت بالتوسط فى النفقة والاعتدال فيها ، ذلك لأن المال عصب الحياة ولأن كل ما تتوقف عليه الحياة فى أصلها وكمالها وسعادتها وعزها من علم وصحة وقوة واتساع عمران ، لا سبيل للحصول عليه إلا بالمال . وقد نظر القرآن إلى الأموال هذه النظرة الواقعية فحذر من تركها فى أيدى السفهاء الذين لا يحافظون عليها ولا يحسنون التصرف فيها كما أمر بتحصيلها من طرق فيها الخير للناس ، فيها النشاط والحركة ، وفيها عمارة الكون ، أمر بتحصيلها عن طريق التجارة [وعن طريق الصناعة والزراعة ، وسمى طلبها ابتغاء من فضل الله ، كما وصفها نفسها بأنها زينة الحياة الدنيا ومتاعها وبلغ من عناية القرآن بالأموال أنه طلب السعى فى تحصيلها بمجرد الفراغ من أداء العبادة المفروضة . قال تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ الجمعة ١٠

وتحدثت سورة النساء عن المواريث ونصيب كل وارث فأمرت أن نبدأ أولا بتنفيذ وصية الميت وتسديد ديونه ثم وضعت المبادئ الأساسية للميراث ونستخلص منها ما يأتى :

أولا — ان مبنى التوريث فى الإسلام أمران : نسبى وهو القرابة ، وسببى وهو الزوجية .

ثانيا — أنه متى اجتمع فى المستحقين ذكور وأناث أخذ الذكر ضعف الأنثى .

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن بعض خصوم الإسلام قد اتخذوا التفاوت بين نصيبي الذكر والأنثى مطعنا على الإسلام وقالوا إن هذا من فروع هضم الإسلام حق المرأة ، وهي إنسان كالرجل ، وفاتهم أن الذكر تتعدد مطالبه وتكثر تبعاته في الحياة فهو ينفق على نفسه ، وعلى زوجه ، وعلى أبنائه . ومن أصول الشريعة أنه يدفع المهر لمن يريد أن يتزوجها ، أما الأنثى فإنها لا تدفع مهرا ويلزم زوجها بنفقتها في مأكلها ومشربها ومسكنها وخدمها وذلك فوق تبعاته العائلية التي لا يلحق الأنثى مثلها . وبينما نرى بعض التشريعات الوضعية تقضي بحرمان الأنثى بتاتا أو حصر الميراث في أكبر الأبناء وحده كما كان الحال في بعض البلاد الأوروبية إلى وقت قريب ، نجد تشريعا آخر يقضي بمساواتها بالذكر .

ونقارن ذلك بالإسلام فنجد أن منهجه في التوريث وسطا لا إفراط فيه ولا تفريط فهو لم يحرم الأنثى من الميراث بل أعطاها نصيبا مناسبا لظروفها في الحياة وأعطى أخاها نصيبا مناسبا لتبعاته في الحياة وهذا هو شأن الإسلام في أحكامه وشرائعه ، فهو يعتمد على الحكمة والعدل لأنه تشريع الحكيم العليم .

تعدد الزوجات

تحدثت سورة النساء عن تعدد الزوجات فأباحته بشرط العدل بينهن ، فإذا خاف الإنسان من عدم العدل فعليه الاقتصار على زوجة واحدة ، فإن ذلك أدعى إلى صفاء الحياة ويسرها وتحقيق الهدف من الزواج وهو المودة والرحمة .

ويرى الإمام محمد عبده أن تعدد الزوجات أمر مضيق فيه كل التضييق فكأن الله سبحانه قد نهى عن التعدد .

قال تعالى :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ

النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ النساء ٣

أى إن خفتم ألا تعدلوا فى نكاح اليتيمات اللواتى تحت وصايتكم ، كأن يكون الدافع لكم على الزواج بهن هو الطمع فى مالهن ، لا الحب والرغبة فى معاشرتهن ، أو كأن تكون فوارق السن بينكم وبينهن كبيرة أو كأن تهضموهن حقوقهن فى مهر أمثالهن . . إن خفتم ألا تعدلوا فى اليتيمات فاطلبوا الزواج فى سواهن من النساء .

وبمناسبة الحديث عن الزواج امتد السياق إلى بيان حدود المباح من الزوجات فإذا هو (مثنى وثلاث ورباع) ولكن بشرط العدل بينهن ، العدل فى المعاملة وفى الحقوق الظاهرة ، أما العدل فى الشعور الباطن فلا قبل به لإنسان ولا تكليف به لإنسان ، ما اتقى إظهاره فى المعاملة ، وتأثيره على الحقوق المتعادلة ، فإن وجد فى نفسه ضعفا عن ذلك العدل ، وخاف ألا يقدر على تحقيقه ، فالحلال واحدة فقط وما سواها محظور .

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ .

والنص الشرطى يحتم هذا المعنى هنا ويعلله بأن ذلك التحديد بواحدة فى هذه الحالة أقرب إلى اجتناب الظلم والجور

﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾

أى لا تجوروا وتظلموا .

والظلم حرام فالوسيلة إليه حرام ، واجتناب الظلم واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

فإذا كان العدل يتم بترك التعدد ، فالاقتصار على الزوجة الواحدة واجب .

وفى ختام الآية وصية جديدة بالاقتصار على الزوجة الواحدة لأنه أدعى إلى العدل والاستقرار ، والبعد عن الظلم وكثرة العيال .

* * *

شبهة تفتضح ،وحجة تتضح

تكلم الأوربيون بكثير من الكلام المعسول ، فمثلا (كانتى) يقول :
« إن شرف الإنسان أسمى من أن يمتهن أو أن يجعل أداة متعة » .

في الواقع هم الذين جعلوا الأخدان أداة متعة فقط ومنعوهن حقوق الزوجية في النفقة أو الميراث أو إلحاق الولد ، بينما الإسلام يحرم اتخاذ الأخدان والخليلات يقول تعالى :

﴿ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ النساء ٢٥

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ اللّٰهَ لاَ يُحِبُّ الذَّوَّاقِينَ وَلاَ الذَّوَّاقَاتِ فَإِذَا تَزَوَّجْتُمْ فَلاَ تُطَلِّقُوا » .

ونشأ عن كثرة الأخدان وانتشارهن في أوربا انتشار الأمراض السرية الفظيعة ، وقلة النسل لأن النسل إما أن يخنق أو تجهض الحامل أو يمنع الحمل ، وهل غفل الأوربيون عن المصير السيء الذي ينتظرهم إذا استمر الحال ، فالكبير يموت والنشء يقتل ؟ . . تنبهوا للهلك ، فصدرت قوانين تقول مثلا : أبناء الزواج الحر إذا اعترف بهم أبوهم ألحقناهم به فتأخذ الأولاد كل حقوق الأبناء ، فهم تفادوا اسم الزوجة فقط ، والأبناء منها يتمتعون بكل الحقوق .

وقد ذكر لنا أستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ، أنه شاهد أثر الحروب في ألمانيا ورأى النساء يطالبن هناك بتعدد الزوجات لتجد المرأة التي مات زوجها في الحرب من يكفلها وينفق عليها وعلى ماينجب منها : وذكر لنا أن جمعية تألفت في ألمانيا تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية في الزواج والطلاق .

ومع ذلك فالإسلام لم يحرض على تعدد الزوجات بل قال :

﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً .. ذٰلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا ﴾

وإذا استلهمنا روح النص ومراميه وجدنا أن التعدد رخصة ، وهى رخصة ضرورية لحياة الجماعة فى حالات كثيرة ، وهى صمام أمن فى هذه الحالات ، ووقاية ليس فى وسع البشرية الاستغناء عنها . ولم تجد البشرية حتى اليوم حلا أفضل منها سواء فى حالة اختلال التوازن بين عدد الذكور وعدد الإناث عقب الحروب والأوبئة التى تجعل عدد الإناث فى الأمة أحيانا ثلاثة أمثال عدد الذكور أو فى حالات مرض الزوجة أو عقمها ، ورغبة الزوج فى الإبقاء عليها أو حاجتها هى إليه ، أو فى الحالات التى توجد فى الرجل طاقة حيوية فائضة لا تستجيب لها الزوجة ، أو لا تجد كفايتها فى زوجة واحدة .. وكلها حالات فطرية وواقعية لا سبيل إلى تجاهلها . وكل حلّ فيها غير تعدد الزوجات يفضى إلى عواقب أوخم خلقيا واجتماعيا ، ضرورة تواجه ضرورة . ومع هذا فهى مقيدة فى الإسلام ، باستطاعة العدل والبعد عن الظلم والجور ، وهو أقصى ما يمكن من الاحتياط .

التضامن الاجتماعى

حثت سورة النساء على صدق العقيدة والإخلاص لله فى العبادة ، كما حثت على الإحسان إلى الوالدين وصلة الرحم وإكرام اليتامى والمساكين والإحسان إلى الجار ورحمة الفقير والمحتاج ومساعدة الخدم والضعفاء ، وحذرت من البخل والكبر والرياء ، ونهت عن الكفر والجحود ومعصية الله والرسول . وذلك فى جملة آيات تبدأ بقوله تعالى :

﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، وَبِذِي الْقُرْبَى ، وَالْيَتَامَى ، وَالْمَسَاكِينِ ، والجَارِ ذِى الْقُرْبَى ، وَالْجَارِ الْجُنُبِ ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ النساء ٣٦ .

وهذه الآية وما بعدها دعوة عملية إلى « الضمان الاجتماعى » وتحذير من البخل والشح وبيان أن المال مال الله وأن الغنى مستخلف عن الله فى إدارته

وتثميره وانفاقه فى نواحى الخير والبر ، وقد فرض الله حقوقا للفقراء من مال الأغنياء فأوجب الزكاة والصدقة وحث على الإنفاق فى سبيل الله . وجعل طرق البر متعددة ، منها صدقة الفطر فى عيد الفطر ، والأضحية فى عيد الأضحى ، والهدى فى موسم الحج . وجعل الله موردا لا ينقطع لصلة الفقراء ألا وهو الكفارات التى أوجبها مثل كفارة الظهار وكفارة اليمين وكفارة صوم رمضان ، وفى كثير من الأحيان تكون هذه الكفارات إطعام المساكين أو كسوتهم . كما أوجب الله الوفاء بالنذر ولم يجعل الزكاة تطوعا بل جعلها فريضة لازمة يثاب فاعلها ويعاقب جاحدها . ونلحظ أن الزكاة تتفاوت فى نسبتها فتبدأ من ٥ر٢ ٪ وهى زكاة المال وتصل إلى ٢٠ ٪ وهى زكاة الركاز والمعادن والبترول . وكلما كان عمل العبد أظهر كانت نسبة الزكاة أقل كما فى زكاة المال ، وزكاة التجارة ، وكلما كان عمل القدرة الإلهية أظهر كانت نسبة الزكاة أكثر كما فى زكاة الزراعة وزكاة الركاز .

المحرمات من النساء

انفردت سورة النساء بكثير من أحكام المجتمع ، ولاسيما أحكام الأسرة والزوجية كما انفردت ببيان مفصل للمحرمات من النساء ، وبدأت ذلك بقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ النساء ٢٢

ولا شك أن توارد رجل وابنه على امرأة واحدة ، أمر ممقوت تنفر منه الفطر السليمة ، وتمجه الأذواق السليمة .

ثم جاءت بقية السورة ببقية المحرمات فحرمت زواج الإنسان بأمه وبابنته وبأخته من الرضاعة ومن النسب ، وحرمت زواج الرجل من بنات الأخ وبنات الأخت والأم من الرضاعة ، وحرمت أم الزوجة التى دخل بها زوجها ، كما حرمت زواج الإنسان من زوجة ابنه وحرمت الجمع بين الأختين .

● ● ●

الحكمة فى هذا التحريم

إن الزواج وسيلة مشروعة لإمتاع النفس وإنجاب الذرية وتكوين الأسرة ، فإذا أبيح تزوج الإنسان من أقرب الناس إليه كالأم والبنت ، إصطدمت حقوق هؤلاء الأقارب بحقوق الزوجية ، فالأم مثلا لها حق الطاعة والاحترام فلو اتخذها الإنسان زوجة لكان له عليها حق القوامة وحق الطاعة والخضوع . هذا إلى ما هو غنى عن البيان من نفور الإنسان من هذا اللون من المتاع ، فهى بهيمية أى بهيمية أن يتمتع الرجل بأمه ، ومثل هذا يقال فى درجات القرابة الأخرى . فالخالة لها ما للأم ، والعمة لها ما للأب ، والأخت وبنتها وبنت الأخ ، وابنة الإنسان التى هى قطعة منه ، كل هؤلاء تستقبح الأذواق نكاحهن وافتراشهن ، ولا يمكن أن يتصور فى هذا الوضع لو أبيح إلا المفارقات والصعاب ، وضعف النسل وسوء المنقلب .

ومثل هذا يقال أيضا فى نكاح من حرمن من جهة الرضاع ، فإن المرضع أم فى الكرامة ولها حق الأم فى وجوب الرعاية ، وليس من شأن الإنسان أن يلتمس منها ما يلتمسه الرجل بالزوجية .

وقد حرمت السورة الجمع بين الأختين ، والجمع بين الأم وابنتها حتى لا تقطع الأرحام ، فإن المرأة تغار من ضرتها : وتفعل الكثير فى سبيل إبعادها عن زوجها . ولو أبيح الجمع بين الأقارب لتشككت المرأة فى أختها وفى أمها . ولأدركها نوع من الغيرة الشديدة فانقطعت بذلك صلاتها من النسب وتعرضت بذلك الأمر إلى خطر شديد . قال تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ، وَبَنَاتُكُمْ ، وَأَخَوَاتُكُمْ ، وَعَمَّاتُكُمْ ، وَخَالَاتُكُمْ ، وَبَنَاتُ الْأَخِ ، وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ، وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ، وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ ، وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ، وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ، وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ،

﴿ وأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾

النساء ٢٣

مصادر التشريع فى الإسلام (١)

أمرت سورة النساء بالعدل فى الحكم وأداء الأمانات إلى أهلها ، وبينت أن الأمانة والعدالة من أسباب الرقى والتقدم والسعادة فى الدنيا والآخرة .

وبهذه المناسبة ذكرت السورة مصادر التشريع التى يجب أن يرجع إليها المسلمون فى تصرفاتهم وأحكامهم وهى :

(أولا) القرآن الكريم ، والعمل به هو طاعة الله .

(ثانيا) سنة الرسول قولية كانت أم فعلية ، والعمل بها هو طاعة الرسول .

(ثالثا) رأى أهل الحل والعقد فى الأمة من العلماء وأرباب النظر فى المصالح العامة كالجيش ، والزراعة ، والصناعة ، والتعليم ، فى كل دائرة معرفته واختصاصه ، والعمل به هو إطاعة أولى الأمر .

وهذه المصادر فى الرجوع إليها مرتبة على هذا النحو ، فلا نرجع إلى السنة إلا بعد عدم العثور على الحكم فى القرآن ، فنرجع إلى السنة حينئذ : إما لمعرفة الحكم الذى لم يرد فى القرآن : أو لبيان المراد مما ورد فى القرآن ، ولا نلتجىء إلى رأى أولى الأمر إلا بعد عدم العثور على الحكم فى السنة ، وعندئذ نرجع إليهم ليجتهدوا رأيهم ، وهذا الاجتهاد هو عنصر « الشورى » الذى عليه أمر المسلمين ومتى حاز الاتفاق وجب العمل به ولا يصح الخروج عنه مادامت وجوه النظر التى أدت إليه قائمة ، وهو أساس فكرة الإجماع فى الشريعة الإسلامية ، وقد انتفع به المسلمون كثيرا ،

(١) مقتبس من تفسير القرآن الكريم للامام محمود شلتوت ، ط ٣ ، ص ٢٠٧ .

واتسع به نطاق الفقه الإسلامي، وبخاصة فيما ليس منصوصا عليه في كتاب الله وسنة الرسول ، وهو يشمل إعطاء حكم لحادثة مثل حادثة سابقة للاشتراك بينهما في المعنى الموجب لذلك الحكم، وهذا هو المعروف في لسان الفقهاء والأصوليين باسم « القياس » وقد بحثوه بحثا مستفيضا ، بينوا فيه أركانه ، وشرائطه ، وعلته : وما ينقضه ، وما لا ينقضه وما يجرى فيه ، وما لا يجرى فيه ، وقد تكفلت به كتب الأصول فليرجع إليها من شاء :

الاجتهاد من مصادر التشريع وبابه مفتوح أبدا :

ويشمل أيضا النظر في تعرف حكم الحادثة عن طريق القواعد العامة وروح التشريع التي عرفت من جزئيات الكتاب ، وتصرفات الرسول ، وأخذت في نظر الشريعة مكانة النصوص القطعية التي يرجع اليها في تعرف الحكم للحوادث الجديدة ، وهذا النوع هو المعروف بالاجتهاد عن طريق الرأى وتقدير المصالح : وقد رفع الإسلام بهذا الوضع جماعة المسلمين عن أن يخضعوا في أحكامهم وتصرفاتهم لغير الله ، ومنحهم حق التفكير والنظر والترجيح واختيار الأصلح ، في دائرة مارسمه من الأصول التشريعية ، فلم يترك العقل وراء الأهواء والرغبات ؛ ولم يقيده ؛ في كل شيء بمنصوص قد لا يتفق مع مايجد من شئون الحياة ، كما لم يلزم أهل أى عصر باجتهاد أهل عصر سابق دفعتهم اعتبارات خاصة إلى اختيارما اختاروا . وهنا نذكر بالأسف هذه الفكرة الخاطئة الظالمة التي ترى وقف الاجتهاد وإغلاق بابه ، ونؤكد أن نعمة الله على المسلمين بفتح باب الاجتهاد لا يمكن أن تكون عرضة للزوال بكلمة قوم هالهم — أو هال من ينتمون إليهم من أرباب الحكم والسلطان — أن يكون في الأمة من يرفع لواء الحرية في الرأى والتفكير ، فالشريعة الإسلامية شريعة عامة خالدة صالحة لكل عصر ولكل إقليم .

وما على أهل العلم إلا أن يجتهدوا في تحصيل الوسائل التي يكونون بها أهلا للاجتهاد في معرفة حكم الله الذى، وكل معرفته - رأفة منه ورحمة — إلى عباده المؤمنين :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ النساء ٨٣ .

واقرأ فى هذا الموضوع كله قوله تعالى من السورة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ النساء ٥٨ ـ ٥٩

القتال وأسباب النصر

عنيت سورة النساء بتنظيم شئون المسلمين الداخلية وحفظ كيانهم الخارجى وقد حثت السورة على القتال ودعت إليه حيث يقول .

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النسـاء ٧٤

وبينت السورة أهداف القتال فى الإسلام ، وهذه الأهداف تنحصر فى رد العدوان وإشاعة الأمن والاستقرار ، وحماية الدعوة ، والقضاء على الفتن التى يثيرها أرباب المطامع والأهواء ، ومن ذلك نعلم أن الإسلام حينما شرع القتال نأى به عن جوانح الطمع والاستئثار ، وإذلال الضعفاء ، واتخذه طريقا إلى السلام العام بتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة . وليصل المسلمون بالقتال إلى الغاية السامية التى أمرها الله ، لفت القرآن أنظار المؤمنين إلى أن للنصر أسبابا ووسائل هى :

(١) تقوية الروح المعنوية للأمة فقد نزل القرآن روحا وحياة ومنهجا

ورسالة وتحـــول العرب بالقرآن إلى أمة عزيزة متمسكة بالحق ثابتة عليه متحملة صنوف الأذى وألوان الاضطهاد فلما أذن الله لها بالجهاد كانت لها راية النصر فى أكثر معاركها ، لأن لها من يقينها وإيمانها مايكفل لها النصر والغلبة .

(٢) إعداد القوة المادية وتنظيمها ، قال تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ الأنفال ٦٠

ويشمل ذلك فنون الحرب وأساليبها ومعرفة أحدث أدواتها وكيفية استعمالها .

(٣) الشكر على النعماء ثقة بأن النصر من عند الله ، فلا ينبغى أن تأخذ المحارب نشوة النصر فيخرج عن اتزانه بل عليه أن يزداد تواضعا وخشوعا لعظمة الله ، ويزيد فى طاعة الله ونصره ، لقوله سبحانه :

﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ محمد ٧ .

(٤) الصبر على البأساء ثقة والتزاما بأن مع اليوم غدا وبأن الأيام دول يوم لك ويوم عليك وأن الشجاعة صبر ساعة وليس الصبر هنا صبر الذليل المستكين بل صبر المطمئن إلى قضاء الله وقدره والمؤمن بحكمته والمستعد ليوم آخر ينتصف فيه من عدوه . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران ٢٠٠ .

(٥) ومن أسباب النصر ثقة المؤمن بأن الأجل محدود وأن الرزق محدود فالشجاعة لاتنقص العمر ، والجبن لايزيده . ومن أسباب النصر طاعة الله والتزام أوامره واجتناب نواهيه ، قال تعالى :

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ آل عمران ١٢٦

(٦) ومن أسباب النصر أخذ الحذر والحيطة والابتعاد عن اتخاذ بطانة مقربة من المنافقين والملحدين والخونة ، قال تعالى :

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ النساء آية ٨٨ .

(٧) تذكر فضل الجهاد وثواب البذل والتضحية ، وعقوبة التثاقل والفرار من الجهاد ، وتذكر ما أعده الله للمجاهدين والمكافحين في سبيل الحق من عز الدنيا وشرف الآخرة ، قال تعالى:

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ النساء ١٠٠ .

دروس من سورة المائدة

١ — تاريخ النزول

نزلت سورة المائدة بعد سورة الفتح ، وكان نزول سورة الفتح بعد صلح الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة ، فيكون نزول سورة المائدة فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك .

ونلحظ أن سورة المائدة من أواخر ما نزل من السور بالمدينة ، فقد روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : إن المائدة من آخر ما أنزل الله فما وجدتم فيها من حلال فأحلوه وما وجدتم فيها من حرام فحرموه .

والمتأمل يرى أن السورة قد امتد نزول آياتها خلال السنوات الأربع الأخيرة من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة : فقد ابتدأ نزولها فى السنة السابعة للهجرة ، وفيها آية نزلت فى حجة الوداع فى العام العاشر من الهجرة قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بثمانين يوما وهى قوله تعالى:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ المائدة ٣

وفى كتب التفسير أن سورة المائدة نهارية كلها أى نزلت جميع آياتها نهاراً(١) . مدنية كلها إلا قوله تعالى :

---

(١) اهتم العلماء بأسباب نزول الآيات وتاريخ نزولها وبيان مانزل منها نهارا وما نزل ليلا وما نزل شتاء وما نزل صيفا وما نزل بمكة وما نزل بالمدينة وما نزل بأماكن اخرى غيرمكة =

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ الآية .

فإنها نزلت بعرفة .

وعدد آيات سورة المائدة (١٢٠) آية . وعدد كلماتها (٢٨٠٤) كلمة .

٢ — قصة التسمية

سميت سورة المائدة بهذا الإسم ، لأنها السورة الوحيدة التي تحدثت عن مائدة طلب الحواريون من عيسى عليه السلام أن يسألها ربه . وذلك في قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ المائدة ١١٢ ، ١١٣ .

والحواريون هم خلصاء عيسى عليه السلام الذين صفت قلوبهم من الكفر والنفاق وبادروا إلى الإيمان بعيسى وتلقوا عنـــه التعاليم ثم انتشروا في القرى لبثها بين الناس .

المـــائدة

تكلم العلماء عن المـــائدة التي سألها الحواريون عيسى ، هل نزلت أم لا ؟ وجمهور المفسرين على أنها نزلت بالفعل . وقد تعددت الروايات بعد ذلك عن أوصافها وما احتوت عليه من ألوان الطعام والشراب . وحسبك

= والمدينة . وهي عناية بالغة تكاد أن تجعل لكل آية سجلا خاصا وذلك من حفظ الله لكتابه ، ومن الكتب التي عنيت بذلك ، كتاب أسباب النزول للواحدي ، وكتاب أسباب النزول للسيوطي . ومن كتب علوم القرآن : كتاب البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي ، والاتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي .

أن ترجع إلى أى تفسير من كتب التفاسير المتداولة لتقرأ فى أوصافها وأوصاف ما وضع عليه الشىء الكثير ، مما يجعلك ترجح أن كثيرا مما ورد فى أوصاف هذه المائدة من افتراء المفترين أو أساطير الإسرائيليين .

والفاظ القرآن الصريحة تفيد أن عيسى طلب من ربه أن ينزل مائدة من السماء تكون كافية لقومه جميعا وتكون عيدا وسعادة لأول قومه وآخرهم ، والمائدة طعام ورزق ، وكل طعام ورزق إنما هو من عند الله ، وقد وعد الله أن ينزلها عليهم . ولم يذكر القرآن إن كانت بمفهومها الضيق كما طلبها الحواريون ، أو بمفهومها المطلق كما قد يريده الله ويفهمه عيسى ويلهمه الحواريون فيكون حينئذ وعدا بنعمة من الله عليهم طعاما ورزقا يشمل أولهم وآخرهم وترجمة للمفهوم الضيق الذى أرادوه للمائدة بمفهوم أوسع قد يشمل الطعام وسواه من الرزق ليكون ذلك ابتلاء وفتنة لأتباع المسيح بوجه عام .

والله أعلم بما كان مما سكت عنه القرآن ، وليس لنا من مصدر آخر نستفتيه واثقين فى مثل هذه الشئون. إنما هو رأى نبديه بجوار آراء السلف عليهم رضوان الله .

٣ ـ ظواهر تنفرد بها سورة المائدة

تنفرد سورة المائدة بجملة من الظواهر لا نكاد نجد شيئا منها فى غيرها من السور ، حتى فى أطول سور القرآن وهى البقرة ، ذلك أنها لم تتحدث عن الشرك ولا عن المشركين على النحو الذى ألف فى القرآن من محاجتهم وتسفيه أحلامهم وتحقير شركائهم وأنها لم تعرض فى قليل ولا فى كثير إلى ما عهد فى أكثر السور المدنية التى نزلت قبلها من الحث على القتال والتحريض عليه ورسم خطط النصر والظفر بأعداء الله المشركين كما نراه فى سورة البقرة وآل عمران والنساء والأنفال والتوبة لأن المسلمين فى ذلك الوقت لم يكونوا بحاجة إلى شىء من هذا الحديث لقد اندحر الشرك وصار المشركون فى قهر وذلة ويأس .

ولكن إذا كان المشركون قد انقضى عهدهم والمسلمون قد علا شأنهم فان المسلمين فى حاجة إلى إكمال التشريع المنظم لشئونهم على وجه يضمن لهم دوام السعادة ويحفظ لهم السيادة ، ولهم بعد ذلك صلات خاصة بطوائف من أهل الكتاب يعيشون فى ذمتهم وعهدهم ويخالطونهم فى حياتهم ومعاملاتهم ومن هنا نتبين أن المسلمين فى ذلك الوقت كانوا فى حاجة إلى ما يعنيهم فى الجانبين : جانب أنفسهم وجانب علاقتهم بأهل الكتاب وبذلك دار كل ما تضمنته سورة المائدة على أمرين بارزين : تشريع المسلمين فى خاصة أنفسهم وفى معاملة من يخالطون ، وإرشادات لطرق المحاجة والمناقشة وبيان الحق فى المزاعم التى كان يثيرها أهل الكتاب مما يتصل بالعقائد والأحكام وفى سياق هذه المحاجة تعرض السورة لكثير من مواقف الماضين من أسلاف أهل الكتاب مع أنبيائهم تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم من جهة وتنديدا بهم عن طريق أسلافهم من جهة أخرى .

٤ — تشريع القران

نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم لينشىء به أمة وليقيم به دولة ولينظم به مجتمعا ، وليربى به ضمائر وأخلاقا وعقولا وليربط ذلك كله برباط قوى يجمع متفرقه ويؤلف أجزاءه ويشدها كلها إلى منزل هذا القرآن ، وإلى خالق الناس الذى أنزل لهم هذا القرآن :

ومن ثم نجد فى كثير من سور القرآن تشريعا إلى جانب موعظة ، وقصة إلى جانب فريضة ، ونجد التشريع الذى ينظم العلاقات الاجتماعية والدولية ، الى جانب التشريع الذى يحل ويحرم ألوانا من الطعام أو ألوانا من السلوك والأعمال.

وهذه السورة — سورة المائدة — مثل لتلك السور التى تلتقى فيها التربية الوجدانية بالتربية الاجتماعية بتشريع الحلال والحرام فى الطعام والزواج ، بتشريع المعاملات الدولية فيما بين المسلمين وغير المسلمين ، بتعليم بعض الشرائع التعبدية ببيان الحدود والعقوبات فى بعض الجرائم الاجتماعية بالمثل والموعظة والقصة، بتصحيح العقيدة وتنقيتها من الأسطورة والخرافة فى تناسق واتساق.

٥ – الوفاء بالعقود

تبدأ سورة المائدة بنداء إلهى للمؤمنين أن يوفوا بالعقود فتقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾.

والعقود جمع عقد وهو ما يلتزمه المرء لنفسه أو لغيره وأساسه قد يكون شيئا فطريا تدعو إليه الطبيعة وقد يكون شيئا تكليفيا تدعو إليه العقيدة وقد يكون شيئا عرفيا يدعو اليه الالتزام والتعاهد والعقد العرفى ، أى المتعارف عليه من عامة الناس ، يكون بين الفرد والفرد كما فى البيع والزواج والشركة والوكالة والكفالة إلى آخر ما تعارفه الناس ويتعارفونه من وجوه الاتفاقات ، والكلمة عامة فى الآية فانها تأمر بالوفاء بالعقود ، فتشمل العقود كلها على اختلاف أنواعها وأشكالها ، وتدخل فى العقود المعاملات والمعاهدات بظاهر اللفظ ، كما تدخل إقامة الحدود وتحريم المحرمات بوصفها داخلة فى عقد الإسلام بين الله ورسوله والذين آمنوا بالله ورسوله .

وعلى وجه العموم فإننا نجد سياق السورة كله يدور حول العقود والمواثيق فى شتى صورها حتى حوار الله والمسيح يوم القيامة الوارد فى نهاية السورة نجده سؤالا عما عهد به اليه وعما إذا كان قد خالف عنه كما زعم الزاعمون بعده.

٦– الظروف التى نزلت فيها السورة (١)

نزلت سورة المائدة بعد أن قلمت أظفار المشركين وانزوى الشرك فى مخابئه المظلمة وصار المسلمون فى قوة ومنعة كانوا بها أصحاب السلطان والصولة فى مكة وفى بيت الله الحرام ، يحجون آمنين مطمئنين ، وقد نكست أعلام الشرك وانطوت صفحة الإلحاد والضلال ، وقد أتم الله نعمته على المسلمين بفتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا .

---

(١) للسيد رشيد رضا فى تفسير المنار طريقة حكيمة فى اتباع تفسيره المطول بخلاصة للسورة ، وانصح بمراجعة هذه الخلاصة قبل قراءة تفسير المنار . وانظر خلاصة سورة المائدة ج ٧ ص ٢٧٦ ، فقد استعنت بها فى كتابة هذا الموضوع ، وانظر أيضا تفسير القرآن الكريم الامام محمود شلتوت ص ٢٧٥ ط ٣ .

وسورة المائدة وإن ابتدأ نزولها فى السنة السابعة الا أن نزولها قد استمر إلى السنة العاشرة بدليل أن فيها آية من آخر ما نزل من القرآن وهى قوله تعالى:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . . ﴾ .

روى أن رجلا من اليهود جاء إلى عمر رضى الله عنه فقال : إن فى كتابكم آية تقرؤونها لو علينا انزلت — معشر اليهود — لاتخذنا اليوم الذى أنزلت فيه عيدا ، قال عمر : وأية آية؟ قال :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ المائدة ٣ .

فقال عمر : إنى والله لأعلم اليوم الذى أنزلت فيه والساعة التى نزلت فيها ، نزلت على رسول الله عشية عرفة فى يوم جمعة والحمد لله الذى جعله لنا عيدا .

وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ سورة المـائدة فى حجة الوداع وقال :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ سُورَةَ الْمَائِدَةِ آخِرُ مَانَزَلَ فَأَحِلُّوا حَلَالَهَا وَحَرِّمُوا حَرَامَهَا) .

٧ — أفكار السورة وأحكامها

انفردت سورة المائدة بعدة مسائل فى أصول الدين وفروعه وبتفصيل عدة أحكام أجملت فى غيرها إجمالا ومن هذه الأحكام ما يأتى :

١ — بيان إكماله الله تعالى للمؤمنين دينهم الذى ارتضى لهم بالقرآن وإتمام نعمته عليهم بالإسلام .

٢ — النهى عن سؤال النبى صلى الله عليه وسلم عن أشياء من شأنها أن تسوء المؤمنين إذا أبديت لهم لما فيها من زيادة التكاليف .

٣ — بيان أن هـذا الدين الكامل مبنى على العلم اليقينى فى الاعتقاد ، والهداية فى الأخلاق والأعمال ، وأن التقليد باطل لا يقبله الله تعالى .

٤ — بيان أن أصول الدين الإلهى على ألسنة الرسل كلهم هى الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح فمن أقامها كما أمرت الرسل من أية ملة — من ملل الرسل كاليهود والنصارى والصابئين — فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم فى الآخرة ولا هم يحزنون .

٥ — وحدة الدين واختلاف شرائع الأنبياء ومناهجهم فيه .

٦ — هيمنة القرآن على الكتب الإلهية .

٧ — بيان عموم بعثة النبى صلى الله عليه وسلم وأمره بالتبليغ العام وكونه لا يكلف من حيث كونه رسولا إلا التبليغ ، وأن من حجج رسالته أنه بين لأهل الكتاب كثيرا مما كانوا يخفون من كتبهم وهو قسمان : قسم ضاع منهم قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم . وقسم كانوا يكتمونه اتباعا لأهوائهم مع وجوده فى الكتاب كحكم رجم الزانى ، ولولا أن محمدا الأمين مرسل من عند الله لما علم شيئا من هذا ولا ذاك .

٨ — عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم من أذى الناس ، وهذا من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ، فكم حاولوا قتله فأعياهم وأعجزهم .

٩ — بيان أن الله أوجب على المؤمنين إصلاح أنفسهم أفرادا وجماعات ، وأنه لا يضرهم من ضل من الناس إذا هم استقاموا على صراط الهداية .

١٠ — تأكيد وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بما بينه الله تعالى من لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم . وتعليله ذلك بأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه .

١١ — نفى الحرج من دين الإسلام .

١٢ — تحريم الغلو فى الدين والتشدد فيه ولو بتحريم الطيبات وترك التمتع بها .

١٣ — قاعدة إباحة المحرم للمضطر ومنه أخذ الفقهاء قولهم : الضرورات تبيح المحظورات .

١٤ ـ قاعدة التفاوت بين الخبيث والطيب وكونهما لا يستويان فى الحكم كما أنهما لا يستويان فى أنفسهما وفيما يترتب عليهما .

١٥ = تحريم الاعتداء على قوم بسبب بغضهم وعداوتهم لأنه يجب على المؤمنين أن يلتزموا الحق والعدل .

١٦ ـ وجوب الشهادة بالقسط والحكم بالعدل والمساواة فيهما بين غير المسلمين كالمسلمين ولو للأعداء على الأصدقاء وتأكيد وجوب العدل فى سائر الأحكام والأعمال .

١٧ ـ الحياة شركة ذات أطراف لا يجوز أن يجور فيها طرف على طرف .

١٨ ـ التعاون على البر والتقوى له وسائله وسبله حسب الزمان والمكان ومنه تأليف الجمعيات الخيرية والعلمية وتحريم التعاون على الإثم والعدوان .

١٩ ـ بيان أن الله تعالى جعل الكعبة البيت الحرام قياما للناس أى يقوم عندها أمر دينهم ودنياهم فعندها يتم الحج والعمرة وعندها يتم الإحرام والأمان والسلام ولها يتوجه المسلمون فى الصلاة . فهى رمز للوحدة والأخوة والإيمان .

٢٠ ـ النهى عن موالاة المؤمنين للكافرين .

٢١ ـ تفصيل أحكام الوضوء والغسل والتيمم مع بيان أن الله تعالى يريد أن يطهر الناس ويزكيهم بما شرع لهم من أحكام الطهارة وغيرها .

٢٢ ـ تفصيل أحكام الطعام ، وبيان حرامه وحلاله : وما حرم منه لكونه خبيثاً فى ذاته كالميتة وما فى معناها والخنزير وما حرم لسبب دينى كالذى يذبح للأصنام .

٢٣ ـ تحريم الخمر وهو كل مسكر وتحريم الميسر وهو القمار .

٢٤ ـ بيان محظورات الأحرام فى الحج .

٢٥ ـ تفصيل أحكام الصيد للمحرمين وغيرهم فى أوائل السورة وأواخرها .

٢٦ ـ حدود المحاربين الذين يفسدون فى الأرض ويخرجون على أئمة العدل وحد السرقة وما يتعلق بالحد كسقوطه بالتوبة الصادقة .

٢٧ ـ أحكام الأيمان وكفاراتها .

٢٨ ـ تأكيد أمر الوصية قبل الموت وأحكام الشهادة على الوصية .

٢٩ ـ الأمر بالتقوى فى عدة آيات من السورة .

٣٠ ـ بيان تفويض أمر الجزاء فى الآخرة إلى الله تعالى وحده .

٨ ـ النداءات الالهية للمؤمنين

اشتملت سورة المائدة على ستة عشر نداء وجهت للمؤمنين خاصة ، يعتبر كل نداء منها قانونا ينظم ناحية الحياة عند المسلمين فيما يختص بأنفسهم وفيما يختص بعلاقتهم بأهل الكتاب .

فالنداء الأول يطلب الوفاء بالعقود :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ . المائدة ١ .

والنداء الثانى يطلب المحافظة على شعائر الله وعدم احلالها :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ ﴾ المائدة ٢ .

والنداء الثالث يطلب الطهارة حين إرادة الصلاة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا . . ﴾ المائدة ٦ .

والنداء الرابع : يطلب القوامية لله والشهادة بالعدل ويحذر من الظلم ، والنداء الخامس : يطلب تذكر نعمة الله على المؤمنين بكف أيدى الأعداء عنهم ، والنداء السادس : يدعو الى تقوى الله وابتغاء الوسيلة إليه والجهاد فى سبيله . والنداء السابع : يحذر من اتخاذ الأعداء أولياء من دون المؤمنين ، والنداء الثامن : يلفت نظر المؤمنين إلى أن المسارعة فى موالاة الأعداء ردة

عن الدين . والنداء التاسع : يدعو إلى شدة الحذر من موالاة الأعداء : والنداء العاشر : يذكر تحريم الطيبات التى أحلها الله . والنداء الحادى عشر : يحرم الخمر والميسر . والنداء الثانى عشر والثالث عشر : يتعلقان بتحريم قتل الصيد فى حالة الإحرام . والنداء الرابع عشر : يتعلق بالنهى عن سؤال ما ترك الله بيان حكمه توسعة على عباده :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ المائدة ١٠١

والنداء الخامس عشر : يتعلق بتحديد المسئولية التى يحملها المؤمنون فى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والنداء السادس عشر : يتعلق بكيفية الشهادة على الوصية فى حالة السفر .

وجملة هذه النداءات تربية عملية للمؤمنين وبيان للطريق السوى التى يجب اتباعها فى الشعائر والعبادات والمعاملات والمعاهدات . والنداء للمؤمنين بصفة الايمان تذكير لهم بأن عليهم أن يعملوا بمقتضى هذا الأيمان وقوامه التصديق الباطنى بوجود الله والتزام أوامره واجتناب نواهيه .

الأمر بالتقوى :

حث القرآن على تقوى الله وطاعته وذيل كثيرا من أحكامه ببيان شأن التقوى ، وأهميتها ، وفى النداء السادس من سورة المائدة حث على تقوى الله والتماس الأسباب المساعدة على هذه التقوى فيقول سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ المائدة ٣٥ .

وتقوى الله هى تقدير العظمة الالهية وامتلاء النفس بها امتلاء يدفع المؤمن إلى المسارعة وشدة الحرص على تحقيق أوامر الله وتشريعاته . والتقوى تدفع المؤمن إلى انعام النظر وقوة التفكير فى ملكوت السموات

والأرض لمعرفة أسرار الله فى كونه ، وسنته فى خلقه ، ثم الاتجاه إلى هذه الأسرار والعمل على إظهار رحمة الله فيها بعباده والوقوف على السنن التى ربط بها بين الأسباب والمسببات بين السعادة وأسبابها والشقاء وأسبابه ، بين العلم وأسبابه والغنى وأسبابه والعزة وأسبابها .. وهكذا .

وبذلك ترى أن التقوى هى ذلك المعنى القلبى الذى تفنى به الإرادات الإنسانية فى ملكوت العظمة الالهية ، وهى الباعث على امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، وهى المحققة للإحسان فى طاعة الله ورسوله ، فهى المبدأ ، وهى المنتهى ، وهى الأولى ، وهى الآخرة .

٩ - أهل الكتاب

أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم على حين فترة من الرسل بعد أن درست معالم الحق والفضيلة وبعد أن ضيع أهل الكتاب بعض تعاليمه وأخفوا بعضه ونقضوا ميثاقهم مع ربهم .

وقد واجهتهم سورة المائدة بأخطائهم فوصفتهم بالتعصب المقيت والغلو فى الدين واتباعهم أهواء من ضل قبلهم من الوثنيين وغيرهم وادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه . وقد بين الله لهم حقيقة الأمر وهى أنهم بشر ممن خلق الله لامزية لهم على سائر البشر فى أنفسهم وذواتهم إنما يمتاز بعضهم عن بعض بالعلوم الصحيحة والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة لابالنسب والانتماء إلى الأنبياء والصالحين وصدق القائل :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا   يغنيك محموده عن النسب
أن الفتى من يقول ها أنـذا   ليس الفتى من يقول كان أبى

وقد وجه الله الخطاب لأهل الكتاب عامة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء ليكشف لهم عن كثير مما كانوا يخفونه من كتاب الله الذى استحفظوا عليه فنقضوا عهدهم مع الله فيه ويعفو عن كثير مما أثقلهم به الله من تكاليف وحرمه عليهم من طيبات عقابا لهم على مخالفتهم وانحرافاتهم

فالفرصة إذن سانحة ليتداركوا مافات، ولينجوا مما كتب عليهم فى الدنيا والآخرة عقابا لهم على الخلاف والأخلاف :

﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ المائدة ١٥ ، ١٦

وتوالى نداء القرآن لأهل الكتاب ليقطع حجتهم ومعذرتهم أن يقولوا : إن فترة كبيرة مرت عليهم لم يأتهم فيها بشير يقربهم إلى الله أو نذير يخوفهم الانحراف فها هو ذا بشير ونذير :

﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ . فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة ١٩ .

وقد وصفت سورة المائدة التوراة والإنجيل أحسن وصف وذكرت من أخبار التوراة قصة ابنى آدم بالحق ومن أحكامها عقوبات القتل واتلاف الأعضاء والجروح ومن أخبار الإنجيل والمسيح ماهو حجة على الفريقين وبينت أن الكتابين أنزلا نورا وهدى للناس وأنهم لو كانوا أقاموهما لكانوا فى أحسن حال ولسارعوا إلى الإيمان بما أنزله الله على خاتم رسله مصدقاً لأصلهما ولكنهم . اتخذوا الإسلام هزواً ولعبا فى جملته وفى عبادته ووالوا عليه المناصبين له من أعدائه فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم .

١٠ — اليهود

ناقشت سورة المائدة اليهود خاصة فذكرتهم بنعم الله عليهم وبميثاق الله مع نقباء بنى إسرائيل النائبين عنهم ، فما الذى كان من بنى إسرائيل ؟

لقد نقضوا ميثاقهم مع الله . . تتلوا أنبياءهم بغير حق ، وبيتوا الصلب والقتل لعيسى بن مريم ، وحرفوا كلمات التوراة عن معانيها وعن مواضع الاستشهاد بها ، واشتروا بهذا التحريف ثمنا قليلا من عرض هذه الحياة الدنيا ، ونسوا بعض شرائع التوراة وأهملوها ، وخانوا محمدا – رسول الله – أحد الرسل الذين أخذ عليهم الميثاق أن ينصروهم فباءوا بالطرد من رحمة الله وقست قلوبهم ببعدهم عن هذه الرحمة .

وأن من صفات اليهود الغالبة عليهم الخيانة والمكر ، وقول الأثم والمبالغة فى سماع الكذب وأكل السحت ، والسعى بالفساد فى الأرض ، فى ايقاد نار الفتن والحرب ، وقد قتلوا رسل الله إليهم وتمردوا على موسى إذ أمرهم بدخول الأرض المقدسة وقتال الجبارين فعاقبهم الله بالتيه فى الأرض ، وأنهم كانوا أشد الناس عداوة للمؤمنين فعاقبهم الله على ذلك كله باللعن على ألسنة الرسل ، وبالغضب والمسخ ، وهذه الصفات التى غلبت عليهم فى زمن البعثة وقبل زمن البعثة تثبتها تواريخهم وتواريخ غيرهم ، ومن المعلوم أنها لم تكن عامة فيها ولا شاملة لجميع أفرادهم ولذلك قال سبحانه :

﴿ مِنْهُم أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُم سَاءَ مَايَعْمَلُونَ ﴾ المائدة ٦٦ .

١١ – النصارى

مما جاء فى النصارى خاصة أنهم نسوا – كاليهود – حظاً مما ذكروا به وأنهم قالوا ان الله هو المسيح بن مريم وقالوا أن الله ثالث ثلاثة وقد رد الله عليهم هذه العقيدة بالأدلة العقلية وببراءة المسيح منها ومن منتحليها يوم القيامة وبين لهم حقيقة المسيح وأنه عبد الله ورسوله وروح منه . ولقد أخذ الله الميثاق عليهم أن يلتزموا بتعاليم رسولهم ولكنهم نسوا جانباً من تعاليمه وأهملوا جانب التوحيد وهو أساس العقيدة وعند هذا الإنحراف كان الخلاف بين طوائف النصارى التى لا تكاد تعد . إذ أن هناك فرقا كثيرة صغيرة داخل كل فرقة من الفرق المعلومة الكبيرة : الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت والمارون اليوم ومن قبل كان اليعقوبيون والملكانيون والنساطرة ء

وقد اشتدت العداوة بين هذه الفرق . وشهدت المسيحية آثارها منذ القرن الأول للميلاد ، وكانت على أشدها بين الملكانية واليعاقبة والنساطرة ، وهى اليوم على أشدها بين الفرق القائمة . فلا يكاد الإنسان يتصور العداء الذى بين الكاثوليك والبروتستانت أو بينهم وبين الأرثوذكس أو بين الموارنة والبروتستانت أو سواهم قال تعالى :

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ المائدة ١٤ .

وقد بينت سورة المائدة أن اليهود أشد الناس عداوة للمؤمنين وأن النصارى أقرب الناس مودة إليهم :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ المائدة ٨٢ .

القرآن من عند الله

جملة الآيات الواردة فى أهل الكتاب تشهد لنفسها أنها من عند الله تعالى لا من عند محمد بن عبد الله العربى الأمى الذى لم يقرأ شيئا من الكتب على أن تلك الآيات ليست موافقة لها ولهم موافقة الناقل للمنقول عنه وإنما هى فوق ذلك تحكم لهم وعليهم وفيهم وفى كتبهم حكم المهيمن السميع العليم .

١٢ ــ عدالة أحكام السورة الخاصة بأهل الكتاب

لو كان هذا القرآن من وضع البشر نشرع معاملة أهل الكتاب الموصوفين عما ذكر ــ لا سيما الذين ناصبوا الإسلام العداء عند ظهوره ــ بأشد الأحكام وأقساها .

ولكنه تنزيل من حكيم حميد أمر فى هذه السورة بمعاملتهم بالعدل

والحكم بينهم بالقسط وحكم بحل مؤاكلتهم وتزوج نسائهم وقبول شهادتهم والعفو والصفح عنهم . وهذه الأحكام التى شرعت هذه المعاملة الفضلى لهم نزلت بعد إظهار اليهود للمسلمين منتهى العداوة والغدر . ولكن السورة تضمنت تأليف قلوبهم واكتساب مودتهم .

وقد ختم الله سورة المائدة بذكر الجزاء فى الآخرة وسؤال الرسل عن جواب أممهم لهم . ثم براءة المسيح ممن جعله إلها وتفويضه الأمر كله لله الحق فهو سبحانه المتفرد بالعلم والقدرة والألوهية .

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة ١٢٠

دروس من سورة الأنعام

١ ـ كيف أنزلت ؟

سورة الأنعام سورة مكية وهى أول سورة مكية فى ترتيب المصحف فسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة كلها سور مدنية أما سورة الأنعام فهى أول سورة مكية توضع فى السبع الطوال من سور القرآن الكريم .

وقد جاءت عدة روايات تذكر فضل سورة الأنعام وتبين أنها نزلت جملة واحدة مشيعة بالملائكة .

قال الإمام الرازى فى تفسيره « مفاتيح الغيب » :

« إن هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة و الثانى أنها شيعها ألفا من الملائكة والسبب فى ذلك أنها مشتملة على لائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين »

ويقول القرطبى :

قال العلماء : هذه السورة أصل فى محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور وهذا يقتضى إنزالها جملة واحدة لأنها فى معنى واحد من الحجة وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة وعليها بنى المتكلمون أصول الدين » .

وعدد آيات سورة الأنعام (١٦٥) آية وعدد كلماتها (٣٠٥٣) كلمة .

●●●

٢ — لم سميت بسورة الأنعام

سميت هذه السورة بسورة الأنعام ، والأنعام ذوات الخف والظلف : وهى الإبل والبقر والغنم بجميع أنواعها ، لأنها هى السورة التى عرضت لذكر الأنعام على تفصيل لم يرد فى غيرها من السور ، فقد ورد ذكر الأنعام فى مواضع كثيرة من القرآن عرضا ؛ أما سورة الأنعام : فقد جاءت بحديث طويل عن الأنعام ، استغرق خمس عشرة آية ، من أول الآية ١٣٦ إلى آخر الآية ١٥٠ . وقد تناول الحديث عن الأنعام فى هذه الآيات من السورة جوانب متعددة ، تتصل بعقائد المشركين فبينت السورة ما فى عقائدهم من الخلل والفساد ، إذ كانوا يحرمون بعض الأنعام على أنفسهم ، ويجعلون قسما من الأنعام لآلهتهم وأصنامهم : وقسما لله ، ثم يجورون على القسم الذى جعلوه لله فيأخذون منه لأصنامهم .

٣ — تاريخ نزول السورة

نزلت سورة الأنعام فى السنة الرابعة من البعثة المحمدية ، أى عقب أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يصدع بالدعوة ويعلنها للناس بعد أن أسر بها ثلاث سنين .

وتميزت الفترة التى نزلت فيها سورة الأنعام بقسوة المشركين وعنفهم فى مقاومة الدعوة الإسلامية وإنكارها ، فقد بدأت الدعوة سرا ثم جهر النبى بدعوته فى مكة ، ونزلت سورة الأنعام بعد الجهر بالدعوة بسنة واحدة ، فاستعرضت الأدلة على توحيد الله وقدرته ثم ساقت أدلة المشركين وشبههم فأبطلتها وفندتها .

وقد أخذ المشركون بالنجاح الذى صارت عليه دعوة الإسلام حتى استطاعت أن تستعلن بعد الخفاء وأن تتحلى فى صوت عال ونداء جهير ، بعد أن كان المؤمنون بها يلجأون إلى الشعاب والأماكن البعيدة ليؤدوا صلاتهم ، ورأى المشركون أن محمدا ماض فى إعلان دعوته وتلاوة ما أنزل عليه من الكتاب ، وفيه إنذارهم وتفنيد لمعتقداتهم وتسفيه لآرائهم ،

وإنكار لآلهتهم ، وتهكم بأوثانهم وتقاليدهم البالية ، فكان منهم من يستمع للقرآن متأثرا بقوته أو متذوقا لبلاغته ، ومنهم من يبعد عنه خوفا منه : يومئذ واجهت دعوة الحق أعداءها مسفرة واضحة متحدية ، ووقف هؤلاء الأعداء مشدوهين مضطربين ، يشعرون فى أعماق نفوسهم بصدقها وكذبهم ، ويترقبون يوما قريبا لانتصارها وانهزامهم ، ولايجدون لهم حيلة إلا المكابرة والمعارضة المستميتة بما درجوا عليه من العقائد الباطلة ، وبادعائهم كذب الرسول ، وبزعمهم أن إرسال الرسل من البشر أمر لم يقع من قبل ، وأن الله لو شاء إبلاغ عباده شيئا لأنزل إليهم الملائكة ، وأنكر كفار مكة البعث والدار الآخرة ، واستماتوا فى الدفاع عن عقائدهم وآلهتهم ، ونسوا أن محمدا عاش فيهم عمرا طويلا لم يقل فيهم يوما قولة كاذبة ، ولم يخن فيهم يوما أمانة أؤتمن عليها ، وأنهم لذلك كانوا يلقبونه بالصادق الأمين .

ولكنهم فكروا فقط فى أن الدعوة الجديدة يجب أن تموت فى مهدها ، ويجب أن تكتم أنفاسها قبل أن تنبعث حرارة هذه الأنفاس إلى البلاد والقبائل والشعوب .

وواجهت الدعوة الإسلامية بهذا النضال وتحملت جميع مقتضياته وأثقاله ، وكانت سورة الأنعام مثالا لتحقيق هذه الدعوة الإسلامية فى هذه الفترة : فقد جمعت كل العقائد الصحيحة ، وعنيت بالاحتجاج لأصول الدين ، وتفنيد شبه الملحدين ، وإبطال العقائد الفاسدة ، وتركيز مبادىء الأخلاق الفاضلة :

٤ – مميزات المكي والمدنى

وضع العلماء ضوابط تميز السور المكية من المدنية ، واستنبطوا خصائص الأسلوب والموضوعات التى تناولتها كل مجموعة منهما :

فمن خصائص السور المكية ما يأتى :

١ – الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده وإثبات الرسالة وإثبات

البعث والجزاء وذكر القيامة وهولها والنار وعذابها والجنة ونعيمها ، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية والآيات الكونية .

٢ – وضع الأسس العامة للفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع ، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء . وأكل أموال اليتامى ظلما ، ووأد البنات ، وما كانوا عليه من سوء العادات .

٣ – ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجرا للكافرين حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم ، وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يصبر على أذاهم ويطمئن على الانتصار عليهم .

٤ – قصر الفواصل مع قوة الألفاظ ، وإيجاز العبارة ، بما يصخ الآذان ويشتد قرعه على المسامع ، وينبه القلوب ويحرك الأفئدة .

ومن خصائص السور المدنية ما يأتي :

١ – بيان العبادات والمعاملات ، والحدود ، ونظام الأسرة ، والمواريث ، وفضيلة الجهاد ، والصلات الاجتماعية ، والعلاقات الدولية في السلم والحرب وقواعد الحكم ومسائل التشريع .

٢ – مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ودعوتهم إلى الإسلام ، وبيان تحريفهم لكتب الله ، وتجنيهم على الحق ، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم .

٣ – الكشف عن سلوك المنافقين ، وتحليل نفسيتهم ، وإزاحة الستار عن خباياهم ، وبيان خطرهم على الدين .

٤ – طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها .

٥ – خصائص السور المكية واضحة في سورة الأنعام

« سورة الأنعام مثل كامل للخصائص المكية ، إنها حشد من الصور الفنية العجيبة واللمسات الوجدانية الموحية ، والمنطق الطبيعي الحي » : وهي

كلها من أولها إلى آخرها تنبض بإيقاع واحد ، وترقرق بماء واحد وتفيض بينبوع زاخر متدفق (١) » .

« إن موضوعها الذى تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة ، بكل مقوماتها وبكل مكوناتها ، وهى تأخذ بمجامع النفس البشرية وتطوف بها فى الوجود كله ، وراء ينابيع الحقيقة وموحياتها المستترة والظاهرة فى هذا الوجود الكبير . . إنها تطوف بالنفس البشرية فى ملكوت السموات والأرض ، تلحظ الظلمات فيها والنور ، وترقب الشمس والنجوم ، وتسرح فى الجنات المعروشة وغير المعروشة ، والحياة الباطلة والجارية ، وتقف على مصارع الأمم الخالية ، وآثارها البائدة والباقية ، ثم تسبح مع ظلمات البحر والبر وأسرار الغيب والنفس ، والحى يخرج من الميت والميت يخرج من الحى ومع الحبة المستكنة فى ظلام الأرض ، والنطفة المستكنة فى ظلام الرحم . ثم تموج بالجن والإنس ، والطير والوحش ، والأولين والآخرين والأحياء والأموات ، والحفظة من الملائكة على النفس بالليل والنهار . .

إنه الحشد الكونى الذى يزحم أقطار النفس ، وأقطار الحس ، وأقطار اللمس وأقطار الخيال . . ثم إنها اللمسات المبدعة المحيية ، التى تنتفض المشاهد بعدها والمعانى أحياء تمرح فى النفس والخيال . وإذا كل مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر جديد نابض كأنما تتلقاه النفس أول مرة ، ولم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان . إلا أنها القدرة المبدعة تتبدى فى صورة من صورها الكثيرة فما يقدر على بث الحياة هكذا فى الصور والمشاعر والمعانى إلا الله الذى بث فى الوجود الحياة (٢) .

٦ — الأغراض الرئيسية لسورة الأنعام

إن الأغراض الرئيسية التى استهدفتها هذه السورة الكريمة هى تركيز العقائد الأساسية الثلاث التى كان المشركون يومئذ يتنازعون فيها ، وهذه العقائد الأساسية وهى :

(١) فى ظلال القرآن ٧ — ٤٢ ط ٢ .   (٢) فى ظلال القرآن ٧ — ٤٣ .

(أولاً) توحيد الله . ويتصل بهذا إقامة الدليل على وحدة الألوهية ، بلفت النظر إلى آثار الربوبية ، وإلى صفات الله الخالق المتصرف ، كما يتصل بها إبطال عقيدة الشرك ، وشبهات المشركين ، وتقرير أن العبادة والتوجه والتحريم والتحليل ، إنما ترجع إلى الله .

(ثانياً) الإيمان برسوله الذى أرسل ، وكتابه الذى أنزل ، وبيان وظيفة هذا الرسول ورد الشبهات التى تثار حول الوحي والرسالة .

(ثالثاً) الأيمان باليوم الآخر وما يكون فيه من ثواب وعقاب وجزاء .

وسوف نتناول كل غرض من هذه الأغراض بالتوضيح :

(أ) وحدة الالوهية

لقد بدأت سورة الأنعام بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين وعلى لسان كل رسول تلك الحقيقة التى تؤمن بها الفطر السليمة ويدل عليها العالم بأرضه وسمائه . وما فيه من مخلوقات ناطقة وصامتة ظاهرة وخفية ؛ ومافيه من تحولات وتقلبات ونور وظلمات ؛ وهذه الحقيقة هى أن الإله الذى له (الحمد) المطلق والتنزية الذى لايحد هو الله ، لأنه هو الذى «خلق» وهو الذى «جعل» ؛ فالخلق إنشاء وإبداع ؛ والجعل تصريف وتقليب ؛ والعالم أجمع فى دائرتيهما ؛ فلا ينفك شيء منه عن كلا هذين المظهرين : «خلق» و «جعل» ومقتضى ذلك أن المخلوق المجهول ، لا يمكن أن يتسامى إلى مرتبة الخالق الجاعل فيعبد كما يعبد ؛ ويقصد كما يقصد ؛ ذلك هو مطلع السورة (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) . وكل ماجاء فى هذه السورة إنما هو بيان وتفصيل ؛ أو تمثيل وتطبيق على هذه الحقيقة أحيانا بصفة مباشرة ، وأحيانا بوسائط تقرب أو تبعد .

وهذا هو المعنى الذى يعبر عنه بعض العلماء بأنه الحكم بتوحيد

الألوهية استدلالا بوحدانية الربوبية ، وذلك فى القرآن كثير فأول فاتحة الكتاب :

﴿ الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العَالمِينَ ﴾ .

وأول الكهف :

﴿ الحَمْدُ لِلّهِ الذى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ ﴾ .

وأول فاطر :

﴿ الحَمْدُ لِلّهِ فَاطِرِ السَّمَوات والأَرْضِ جَاعِلِ المَلَائِكَةِ رُسُلاً ﴾ .

ولو ذهبنا نتتبع هذا المعنى لأوغلنا فى التتبع ، ورأينا الكثير من الآيات فإن هذا هو أصل الأديان كلها وهو الحقيقة الأولى كما تجلى ذلك فى سورة الأنعام . وقد ساقت السورة عددا من الأدلة على توحيد الله ، فهى تلفت النظر إلى مظاهر الملك التام ، والسلطان القاهر فى الخلق والتصرف الكامل ، والعلم المحيط فتقول :

﴿ قُل لِمَنْ مَا فِى السَّمَوات والأَرْضِ قُلْ لِلّهِ ﴾ الأنعام ١٢ .

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى اللَّيْلِ والنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ الأنعام ١٣ .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَافِى البَرِّ وَالبَحْرِ ﴾ الأنعام ٥٩ ه

﴿ وَهُوَ الذى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ويَعْلَمُ مَاجَرَحْتُمْ بالنَّهَارِ ﴾ الأنعام ٦٠ ه

وهى تلفت النظر إلى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شىء ، لأن هذا النظر لابد أن يثمر الإيمان بالله .

بل تلفت نظر الإنسان إلى نفسه ، ليفتكر فى داخله كيف خلق ؟ وكيف يفكر وكيف يعيش وكيف يموت ؟ —

وبهذا تكون الحجة عامة لكل ذى عقل سليم وفطرة صافية وإخلاص

فى تطلب الحقيقة من دلائلها المبثوثة فى آفاق السموات والأرض وللعالم يقول جل شأنه :

﴿ سَنُرِيهِم آيَاتِنا فِي الآفَاقِ وفِي أَنْفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لهُمْ أَنَّهُ الحَق أَوَ لم يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فصلت ٥١

(ب) قضية الوحى والرسالة

كما تحدثت سورة الأنعام عن الألوهية والربوبية ، ولفتت الناس إلى مظاهرها فى الخلق والتصرف والتدبير المحكم ، تحدثت عن حقيقة ثانية تنبنى على الإيمان بهذه الحقيقة الأولى : ذلك أن من شـأن الإله الرب أن يهدى عباده ويرشدهم إلى ما تصلح عليه أمورهم وتقوم عليه سعادتهم فى دنياهم وأخراهم .

ومن رحمة الله بعباده أن أرسل إليهم الرســل وأنزل عليهم الكتب لهداية الناس من الضلالة إلى الهدى وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وقد عنيت سورة الأنعام بهذه الحقيقة ، فتحدثت فى كثير من آياتها عن الوحى والرسالة من جوانب شتى ، بعضها يتصل بإثبات الوحى وبيان حكمته والرد على منكريه ، وبعضها يرجع إلى بيان ما هو من وظيفة الرسول وما ليس من وظيفته ، وبعضها يتصل بموقف الناس أمام الرسالات الألهية ، وبعضها يتعلق بالآداب التى رسمها الله للرسول وما ينبغى أن يكون عليه سلوكه مع مخالفيه وموافقيه . قال تعالى :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لِأُنْذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ الأنعام ١٩ .

﴿ وَهُوَ الذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً والذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ منْ رَبِّكَ بِالحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ ﴾ الأنعام ١١٤ .

تكذيب المرسلين :

عرضت السورة لموقف المكذبين من الرسالة وبينت أن التكذيب سنة قديمة . فعلى الرسول أن يصبر ويصابر حتى لا يضيق صدره بتكذيبهم اياه ؛ ولا ييأس من هدايتهم . وبينت السورة حسن عاقبة المرسلين ؛ وسوء عاقبة المكذبين قال تعالى :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذِى يَقُولونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالمينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ * وَلقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَاكُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ المُرْسَلِينَ ﴾ الأنعام ٣٣ ، ٣٤ .

﴿ وَلقَد اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ الأنعام ١٠ .

نبوة محمد صلى الله عليه وسلم :

أثبت القرآن الوحي والرسالة ؛ ثم أثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالدليل القاطع والحجة البالغة . فقد نشأ هذا النبي يتيما فقيرا أميا فى بيئة مشركة جاهلة ؛ فمن أين له هذا الكتاب المحكم الذى اشتمل على مبادىء الإصلاح العالمى كلها ؟ والذى لم يستطع العلم فى أزهى عصوره أن يهدم حقيقة من الحقائق التى جاء بها .

إن القرآن قد تحدى العرب ببلاغته وقوة بيانه فعجزوا عن الإتيان بمثله أو بعشر سور منه ؛ أو بسورة واحدة .

وقد تحدى القرآن الزمان كله بخلوده وصحته ؛ وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَىْءٍ ﴾ الأنعام ٩١ .

(ج) قضية البعث والجزاء

نزلت سورة الأنعام فى السنة الرابعة من البعثة بعد أن أمر الله رسوله أن يجهر بالدعوة وأن يعلن عن العقيدة الإلهية ويقرر حقيقة البعث والجزاء علنا أمام المشركين .

وقد سلكت سورة الأنعام طرقا شتى فى الاستدلال على قضية البعث فقد استدلت عليه بخلق السموات والأرض فى مقدمتها العنوانية :

﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ الذى خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ ثُمَّ الذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ الأنعام ١ .

فمن خلق السموات والأرض بقدرته فهو قادر على إحياء الموتى واعادة خلق الإنسان فخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون .

وكررت هذه الحقيقة وأكدت فى آياتها بصور شتى فذكرت أن البعث حق وأن الله بيده الخلق والأمر والبدء والإعادة والحساب والجزاء قال تعالى :

﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ الأنعام ١٢ .

وقال سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ الأنعام ١٦٤ .

وقد لون القرآن فى قضية البعث والجزاء واستدل عليها بعديد من الأدلة منها أن الحكمة والعدل يقضيان بالحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه كما يقضيان بأن ينال المحسن إحسانه والمسيء إساءته حتى يطهر المسيء من دنس النفس ويكون أهلا لرحمة الله الكاملة وهذان شانان هامان اذ كثيراً ما يرحل الناس عن الدنيا دون أن يسهل طريق النقاء لمن دسى نفسه ودون أن يعرفوا الحق فيما اختلفوا فيه وإذن فلابد من دار أخرى يلقى الإنسان فيها الجزاء أمام حاكم عادل عليم خبير بكل ما قدم الإنسان :

وقد تعرض أحد القضاة الفرنسيين لتاريخ القضاء فى فرنسا وأصدر كتابا ذكر فيه عديداً من الحالات حكم فيها بالإعدام أو الإدانة على متهمين ثم برأتهم الأيام والحقائق وأحصى عديدا من الحالات برأ القضاء فيها متهمين ثم أثبتت الأيام وحقائق الأحداث أنهم مدانون .

ثم عقب القاضى بقوله : أنه لابد من جزاء وحساب أمام قاض آخر لاتخفى عليه خافية ولا تغيب عنه حادثة فى دار أخرى ليعوض الناس عن أخطاء القضاء فى الدنيا وليكون حكمه فيصلا ومنصفاً للمظلومين ورادعا للمجرمين

وفى القرآن الكريم آيات عدة تؤكد هذا المعنى ، قال تعالى :

﴿ لِيَجْزِيَ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ بالْقِسْطِ والذِينَ كفرُوا لهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ الأنعام ٧٠ .

﴿ أَمْ حَسِبَ الذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كالذِينَ آمَنُوا وعمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ ومَمَاتُهُمْ سَاءَ مَايَحْكُمُونَ ﴾ الجاثية ٢١.

﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ لعِبٌ ولهْوٌ وَللدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يتَّقُونَ أَفلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ الأنعام ٣٢ .

وقد لون القرآن ونوع فى أدلته على إثبات البعث وعرض مشاهد القيامة واضحة للعيان . وعرضت سورة الأنعام لشأن البعث باعتباره أمرا كائنا ليس موضع إنكار ولا محلا لريب وصورت فيه مواقف المشركين وما سيكونون عليه فى ذلك اليوم كأنهم حاضرون معروضون أمام الناس يتأملهم الإنسان ويرى فعلهم وقولهم: قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثمَ نَقُولُ للَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الذِينَ كُنتُمْ تزْعُمُونَ ، ثُمَ لمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إلاَّ أَنْ قَالوا واللهِ رَبِّنَا مَاكُنَّا مُشْرِكِينَ . أُنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كَانُوا يفْتَرُونَ ﴾ الأنعام ٢٢ — ٢٤ .

وقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَتَرَكْتُمْ مَاخَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وما نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُم مَاكُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ الأنعام ٩٤ .

إلى غير ذلك مما تضمنته السورة من الوصف العيني لمظاهر البعث الذى يأخذ القلب وينير الوجدان .

٧ ــ قصة إبراهيم الخليل

حفلت سورة الأنعام بذكر طرف من قصة إبراهيم الخليل عليه السلام، وإبراهيم أبو الأنبياء والرسول الذى دافع عن التوحيد وتحدى عباد الأصنام وأخذ يتأمل بفكره فى ملكوت السموات والأرض ليرشد قومه عن طريق الحوار إلى فساد إعتقادهم ودليل خطئهم فى تأليه الكواكب والقمر والشمس وغيرها . جن عليه الليل وستره الظلام فرأى كوكباً مما يعبدون وهو بين جماعة منهم يتحدثون ويسمرون فجاراهم فى زعمهم وحكى قولهم فقال هذا ربى فلما أفل هذا الكوكب وغاب هذا النجم تحت الأفق تفقده فلم يجده وبحث عنه فلم يره فقال لا أحب الآلهة المتغيرة من حال إلى حال .

ولما رأى القمر بازغا وهو أسطع نورا من ذلك الكوكب وأكبر منه حجماً وأكثر نفعاً قال :

﴿ هَذَا رَبِّى ﴾ .

استدراجا لهم واستهواء لقلوبهم ، فلما أفل هذا أيضاً واحتجب ، واختفى نوره واستتر قال :

﴿ لَئِن لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ الأنعام ٧٧ .

بين لهم أن الله مصدر الهداية : ومانح التوفيق عند الشك والحيرة . ثم رأى إبراهيم الشمس بازغة يتألق نورها وينبعث منها شعاعها وقد كست الدنيا جمالا وملأت الأرض حياة وبهاء ، وأرجاء الكون نورا وضياء ، فقال : هذا ربي ، هذا أكبر من كل الكواكب ، وأكثر نفعاً وأجل شأنا ، فلما أفلت كعيرها ، وغابت عن عبادها ، رماهم بالشرك وقال :

﴿ إنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

فهذه الكواكب التى تنتقل من مكان إلى مكان وتتحول من حال إلى حال لابد لها من خالق يدبرها ويحركها وإله ينظمها ويسيرها ، فهى لاتستحق عبادة ولا تعظيما .

وبعد أن أعلن إبراهيم انصرافه عن آلهتهم ، وبراءته من معبوداتهم أفاض الحديث عن إخلاصه لله بعبادته وخضوعه فقال :

﴿ إنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام ٧٩ .

ولقد كان إبراهيم جريئا فى إعلان إيمانه ، وإخلاصه لربه ، ومجادلة قومه وإفهامهم أن غير الله لاينفع ولا يضر . وإن الله وحده هو النافع الضار ، والمعطى المانع ، وهو على كل شئ قدير . وقد ناقش إبراهيم أباه ، وأوضح له طريق الهدى ، وأخلص الدعاء لأبيه أن يلهمه الله طريق الهداية والرشاد ، فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله تبرأ منه . وهكذا كان إبراهيم عمليـا فى دعوته ، عمليا فى هجرته وعزلته .

وقد ظهرت قدرة إبراهيم وإخلاصه وتضحيته ، حين حطم الأصنام ، ولام قومه على عبادة ما لايسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ، وظهرت بطولة إبراهيم حين امتحنه الله بذبح ولده اسماعيل ، فامتثل إبراهيم لأمر ربه وخاطب ابنه قائلا :

﴿ يَا بُنَىَّ إنِّى أَرَى فى المَنَام أنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرى قَالَ

يا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾
الصافات ١٠٢ .

وصدق الأب فى طاعة ربه ، وصدق الابن فى الوفاء والامتثال ، وعزم الأب على ذبح ابنه وأخلص النية ، فلما رأى الله منه صدق النيـــة فدى اسماعيل بكبش عظيم وأصبحت الأضحية سنة فى كل عام ، يذبحها الغنى المقتدر ويوزع من لحمها على الفقراء وعلى الأصدقاء ، ذكرى للتضحية والفداء . واقتداء بابراهيم الخليل ، وكم لإبراهيم من مواقف جليلة عظيمة فى مصر ، وفى فلسطين ، وفى جوار بيت الله الحرام ، وفى بناء الكعبة وهو يخلص الدعاء لله فى كل عمل . وقد مدحه القرآن ووصفه بأحسن الصفات إذ يقول جل جلاله :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾
النحل ١٢٠ .

٨ - الوصايا العشر

افتتح الربع الأخير من سورة الأنعام بالدعوة إلى عشر وصايا هى النهى عن الإشراك بالله ، والأمر بالإحسان إلى الوالدين والنهى عن قتل الأولاد مخافة الحاجة ، والنهى عن مقاربة الفاحشة فى السر أو العلن ، والنهى عن قتل النفس التى حرم الله قتلها . ثم أمرت الآيات بالإحسان إلى اليتيم وإتمام الكيل والميزان ، كما أمرت بالعدل فى كل شئ وأمرت بالوفاء بالعهد والاستقامة على الصراط القويم .

الوصية الأولى : من هذه الوصايا العشر التى وردت بسورة الأنعام هى قوله تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾
الأنعام ١٥١ ، وهى الأساس الذى يصلح عليه أمر الناس ، فإن المجتمع الذى يقوم على إيثار الله على كل ما سواه هو المجتمع الفاضل المثالى السعيد ،

أما المجتمع الذى يشرك بالله أحداً أو يشرك بالله شيئاً ، فإنه مجتمع منحل ، تسيره المادة الصماء التى لا روح فيها ولا صلاح ولا قرار معها .

والوصية الثانية :

﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ الأنعام ١٥١ .

فالوالدان سبب فى حياة الولد فيجب أن يشكرهما ويحسن إليهما ، خصوصا فى حالة الكبر والشيخوخة .

والوصية الثالثة .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ الأنعام ١٥٣

أن قتل الإنسان لابنه اعتلال فى الطبع أو خلل فى العقل ، فإن الولد بضعة من الوالد ، والشأن حتى فى الحيوان أن يضحى الوالد من أجل أولاده ويحميهم ويتحمل الصعاب فى سبيلهم وفى الحديث الصحيح يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أن من أكبر الكبائر أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك » . إذ أن الله يبسط الرزق لمن يشاء « وما من دابة فى الأرض إلا وعلى الله رزقها » .

الوصية الرابعة

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ الأنعام ١٥١

والفواحش هى كل فعل تنكره العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، والمجتمع الذى يؤمن بأن هناك (فواحش) يجب أن تجتنب و (محاسن) يجب أن تلتمس هو المجتمع السليم الجدير بالنمو والارتقاء .

الوصية الخامسة

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الأنعام ١٥١ .

فالإنسان بنيان الله ، ومن هادم بنيان الله ملعون ، وبذلك يقرر الإسلام

عصمة الدم الإنسانى إلا بالحق ، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة بغير حق كأنه اعتدى على الإنسانية كلها . وهو المبدأ الذى يعتبر أن الجريمة اعتداء على المجتمع كله .

والوصية السادسة :

﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الأنعام ١٥٢ .

فاليتيم عارض يعرض فى كل مجتمع ، ومن شأن المجتمعات الناضجة أن ترعى اليتامى وأن تحافظ على صلاحهم فى أنفسهم وفى أموالهم . وعلى الوصى أن يعامل اليتيم كما لو كان إبنا من أبنائه فيحسن توجيهه وتأديبه ورعايته وكفالته حتى ينشأ اليتيم مواطنا صالحا وعضوا نافعا .

والوصية السابعة .

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ الأنعام ١٥٢ .

فالمؤمن عادل فى بيعه وشرائه يضبط الكيل ويعطى الحق ويأخذ الحق

والوصية الثامنة :

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ الأنعام ١٥٢ .

والعدل هو أساس الحكم السليم ، العدل فى القول ، والعدل فى الحكم ، والعدل فى الشهادة ، والعدل فى كل فعل وعمل .

والوصية التاسعة :

﴿ وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ﴾ الأنعام ١٥٢ .

والوفاء خلة حميدة ، وصفة طيبة من الصفات التى يتحقق بها الخير والصلاح وتستقر عليها أمور الناس .

والوصية العاشرة :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ الأنعام ١٥٣ .

وهذه الوصية الأخيرة هي الجـامعة لكل ما جاءت به دعوة الحق فهي تدعو إلى السير على طريق الله وشرعة الله وأوامر الله والابتعاد عن طرق الشيطان ، فطريق الله سبيل النجاح في الدنيا والآخرة ، وفي سورة الفاتحة :

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

●●●

دروس من سورة الأعراف

سورة الأعراف هى السورة السابعة فى الترتيب المصحفى وهى إحدى السور التى بدئت ببعض حروف التهجى (المص) ولم يتقدم عليها من هذا النوع سوى ثلاث سور سبقتها فى تاريخ النزول وهى ن ، ق ، ص .

ويبلغ عدد السور التى بدئت بحروف التهجى تسعا وعشرين سورة ، وكلها سور مكية ما عدا البقرة وآل عمران . وعدد آيات سورة الأعراف (٢٠٦) آيات ، عدد كلماتها (٣٣١٥) كلمة .

١ – معنى فواتح السور

ليس لهذه الفوتح فى اللغة العربية معان مستقلة ، ولم يرد من طريق صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم بيان للمراد منها ، بيد أنه قد أثرت عن السلف آراء متعددة فى معانى هذه الحروف ، وهذه الآراء على كثرتها ترجع إلى رأيين اثنين .

أحدهما : إنها جميعا مما استأثر الله به ولايعلم معناه أحد سواه ، وهذا رأى كثير من الصحابة والتابعين .

وثانيها : أن لها معنى ، وقد ذهبوا فى معناها مذاهب شتى :

١ – فمنهم من قال إنها أسماء للسور التى بدئت بها أو أن كلا منها علامة على انتهاء سورة والشروع فى أخرى .

٢ – ومنهم من قال إنها « رموز » لبعض أسماء الله تعالى وصفاته .

٣ – ومنهم من قال إن المقصود منها هو تنبيه السامعين وإيقاظهم ، وسياسة

النفوس المعرضة عن القرآن واستدراجها للاستماع إليه واستمالة العقول بشيء غريب على السمع للانتباه والإصغاء للقرآن .

وأشهر آراء علماء البلاغة والبيان أن هذه الحروف ذكرت للتحدى وبيان إعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وفي هذا دلالة على أنه ليس من صنع بشر بل تنزيل من حكيم حميد .

ويرى ابن جرير الطبرى أن أفضل الآراء في معنى فواتح السور هو اشتمالها على جميع الوجوه التي ذكرها العلماء في معانيها . فهي أسماء للسورة ، وهي رموز ، وهي حروف للتنبيه والتحدى . . الخ .

وسورة الأعراف هي السورة المكية الثانية في ترتيب المصحف ، وهي تتسم بتلك السمات العامة التي أسلفنا الإشارة إليها في الحديث عن سورة الأنعـــام .

ثم تتميز بطابعها الخاص بعد ذلك من ناحية الموضوعات التي تعالجها والسياق الذى تسير فيه .

وموضوع السورة الرئيسى هو الإنذار . . إنذار من يتولون غير الله ومن يكذبون بآيات الله ومن يستكبرون عن طاعة الله ، ومن ينسون الله ومن لايشكرون نعمته . إنذارهم هلاك الدنيا وعذاب الآخرة ، ذلك فوق الخزى والهوان والنسيان .

تبدأ السورة بالإنذار ، ثم تسلك بهذا المعنى سبلا شتى وتتصرف فيه تصرفات كثيرة وترسم له صورا متعددة وتلمس به المشاعر لمسات مختلفة : فتارة يأخذ السياق شكل القصة : قصة آدم مع إبليس ، ثم قصص نوح وهود وصالح وشعيب وموسى مع أقوامهم لتنتهى كل قصة بالعذاب والنكال لمن يخالفون عن أمر الله ، وتارة يأخذ شكل مشهد من مشاهد القيامة أو مشاهد الاحتضار تنكشف فيه مصائر المكذبين ، المتكبرين ، ومصائر الطائعين لله رب العالمين .

ويتخلل القصص والمشاهد ما يتسق مع الجو العام من توجيه الأنظار والقلوب ومن الدعوة إلى التوبة والإنابة قبل أن يحل العقاب ويتحقق الإنذار ومن الإشارة إلى عواقب المكذبين من الأمم الخالية التى حق عليها النذير .

ويرد كل ذلك فى تناسق مطلق بين السياق والقصة أو السياق والمشهد ، أو السياق والتوجيهات ، فتبدو القصص والمشاهد والتوجيهات كلها أجزاء من هذا السياق العام ملونة بلونه ، مظللة بجوه محققة للغرض الذى يتجه إليه موضوع السورة الرئيسى من البدء للختام .

٢ ـ مقاصد السورة ومزاياها

مهدت سورة الأعراف لمقاصدها ببيان عظمة الكتاب ، وجلال هدايته وقوة حجته فى توضيح الدعوة وإنذار المخالفين بها .

ثم تناولت أهداف الدعوة فى مكة ، وهى تقرير رسالة الإسلام وبيان أصول هذه الدعوة : توحيد الله فى العبادة والتشريع ، وتقرير البعث والجزاء ، وتقرير الوحى والرسالة بوجه عام ، وتقرير رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بوجه خاص ، وتلك هى أصول الدعوة الدينية التى كانت لأجلها جميع الرسالات الإلهية .

وقد سلكت السورة فى طريقة عرض هذه الحقائق أسلوبين بارزين أحدهما أسلوب التذكير بالنعم والآخر أسلوب التخويف من العذاب والنقم .

أما أسلوب التذكير بالنعم فنراه واضحا فى لفتها أنظار الناس إلى ما يلمسونه ويحسونه من نعمة تمكينهم فى الأرض ونعمة خلقهم وتصويرهم فى أحسن تقويم ، ونعمة تمتع الإنسان بما فى هذا الكون من خيرات سخرها الله له .

أما أسلوب الإنذار والتخويف فهو ظاهر فى جو السورة ، وفى قصص الأنبياء فيها وقد استغرق هذا القصص أكثر من نصفها ، وقد ساقت لنا السورة ما دار بين الأنبياء وأقوامهم ، وسجلت السورة جزاء المكذبين بأمر الله الخارجين على دعوة رسله وهدايتهم ، وهى ظاهرة تكررت

الإشارة إليها فى سور القرآن المكى تحذيرا لأهل مكة أن يصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم .

٣ـ عرض إجمالى لأجزاء السورة

سورة الأعراف أول سورة طويلة نزلت من القرآن الكريم وهى أطول سورة فى المكى ، وهى أول سورة عرضت لتفصيل فى قصص الأنبياء مع أممهم ، وقد نزلت بين جملتين من السور المكية : يكثر فى الجملة التى نزلت قبلها السور القصيرة ، التى تعرف بسور « المفصل » (١) . ويكثر فى الجملة التى نزلت بعدها السور المتوسطة التى تعرف بسور « المثين »(٢) .

وتطالعنا سورة الأعراف بالحديث عن عظمة القرآن . وتأمرنا باتباعه وتحذرنا من مخالفته . وتحثنا على العمل الذى تثقل به موازيننا يوم القيامة (٣) فى بداية تعد براعة استهلال أو عنوان لما تشتمل عليه السورة . وهى سمة غالبة فى سورة القرآن حيث نجد الآيات الأولى منها عنوانا معبرا عن أهدافها وسماتها .

وفى أول سورة الأعراف يقول سبحانه :

﴿ الٓمٓصٓ. كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ • اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الأعراف ١ — ٣ .

ثم ساقت لنا السورة بأسلوب منطقى بليغ قصة آدم مع إبليس . وكيف أن إبليس قد خدعه بأن أغراه بالأكل من الشجرة المحرمة . فلما أكل منها هو وزوجه .

---

(١) تسمى سور المفصل لكثرة الفصل بينها بالبسملة مثل الضحى وألم نشرح ...

(٢) هى السور التى يكون عددها قرابة مائة آية .

(٣) تفسير سورة الأعراف لفضيلة الدكتور أحمد السيد الكومى والدكتور محمد سيد طنطاوى ، ص ٦ وما بعدها .

﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ الأعراف ٢٢ .

ثم وجهت إلى بنى آدم نداء فى أواخر هذا الربع تحذرهم فيه عن الإستجابة لوسوسة الشيطان . قال تعالى :

﴿ يَابَنِى آدَمْ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سوءاتِهِمَا ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ . . . ﴾ الأعراف ٢٧ .

وفى الربع الثانى منها نراها تأمرنا بأن نأخذ زينتنا عند كل مسجد ، وتخبرنا بأن الله - تعالى - قد أباح لنا أن نتمتع بالطيبات التى أحلها لنا ، وتبشرنا بحسن العاقبة متى اتبعنا الرسل الذين أرسلهم الله لهدايتنا ، ثم تسوق لنا فى بضع آيات عاقبة المكذبين لرسل الله ، وكيف أن كل أمة من أمم الكفر عندما تقف بين يدى الله للحساب تلعن أختها .

قال تعالى :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ، حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاَهُمْ رَبَّنَاهَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ . قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لاَ تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ أُولاَهُم لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ الأعراف ٣٨ ، ٣٩ .

ثم تبين السورة بعد ذلك عاقبة المؤمنين فتقول :

﴿ والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ... ﴾ الأعراف ٤٢ .

وفى أواخر هذا الربع وفى أوائل الربع الثالث منها نراها تسوق لنا تلك المحاورات التى تدور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، وتحكى لنا ماحصل بينهم من نداءات ومجادلات، تنتهى بأن يقول أصحاب النار لأصحاب الجنة على سبيل التذلل والتوسل :

﴿ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾ .

فيجيبهم أصحاب الجنة :

﴿ إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُم لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا .. ﴾ الأعراف ٥٠، ٥١ .

ثم تسوق لنا السورة بعد ذلك جانبا من مظاهر نعم الله على خلقه، وتدعونا إلى شكره عليها لكى يزيدنا من فضله .

وفى الربع الرابع منها وفى أواخر الثالث تحدثنا عن قصة نوح مع قومه، ثم عن قصة هود مع قومه، ثم عن قصة صالح مع قومه، ثم عن قصة لوط مع قومه، ثم عن قصة شعيب مع قومه. .ولقد ساقت لنا خلال حديثها عن هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم من العبر والعظات مايهدى القلوب ؛ ويشفى الصدور ويحمل العقلاء على الاستجابة لهدى الأنبياء والمرسلين .

أما فى الربع الخامس منها فقد بينت لنا سنن الله فى خلقه، ومن مظاهر هذه السنن أنه — سبحانه — لايعاقب قوما إلا بعد الابتلاء والاختبار، وأن الناس لو آمنوا واتقوا لفتح — سبحانه — عليهم بركات من السماء والأرض وأن الذين يأمنون مكر خالقهم هم القوم الخاسرون .

قال تعالى :

﴿ تِلْكَ القُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ، وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ الأعراف ١٠١، ١٠٢ .

ثم عقبت على ذلك ببيان أن الله تعالى قد ساق قصص السابقين للعظة والاعتبار :

ثم أسهبت السورة فى الحديث عن قصة موسى - عليه السلام - فقصت علينا فى زهاء سبعين آية - استغرقت الربع السادس والسابع والثامن - مادار بينه وبين فرعون من محاولات ومناقشات ، وما حصل بينه وبين السحرة من مجادلات ومساجلات انتهت بأن قال السحرة :

﴿ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ الأعراف ١٢١، ١٢٢

ثم حكت لنا مالقيه موسى من قومه بنى إسرائيل من تكذيب وجهالات ، مما يدل على أصالتهم فى التمرد والعصيان ، وعراقتهم فى الكفر والطغيان .

وفى الرابع التاسع منها حدثتنا عن العهد الذى أخذه الله على البشر بأن يعبدوه ولايشركوا به شيئا ، ثم حدثتنا على التفكير والتدبير فى ملكوت السموات و الأرض ، وبينت لنا أن موعد قيام الساعة لايعلمه سوى علام الغيوب ، وأن الرسل الكرام وظيفتهم تبليغ رسالات الله ، ثم هم بعد ذلك لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا .

أما فى الرابع العاشر والأخير فقد اهتمت السورة الكريمة بإقامة الأدلة على وحدانية الله ، وأنكرت على المشركين شركهم ، ودعت الناس إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ الأعراف ١٩٩

وأمرتهم بأن يكثروا من التضرع والدعاء :

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ . إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ الأعراف ٢٠٥، ٢٠٦

٤ — قصة آدم

ذكرت قصة آدم فى سورة البقرة ثم أكملت سورة الأعراف حلقات هذه القصة . وذكرت أن الله خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود له إظهارا لفضله وتنويها بما يكون له من شأن بعد أن سألوا عن الحكمة فى خلقه وقد ركبت فيه الشهوة والغضب وبهما يفسد فى الأرض ويسفك الدماء .

وذكرت السورة موقف إبليس وإباءه السجود والامتثال لأمر الله ، كما ذكرت قصة تأثر آدم بوسوسة الشيطان ، وإغرائه إياه بالأكل من الشجرة وكيف كانت عاقبة آدم فى الهبوط من الراحة والاطمئنان إلى الكد والتعب وإلى مكافحة عوامل الشر التى بنيت الحياة عليها وعلى مايقابلها من عوامل الخير ، ومطالبة الإنسان بأن يقف مع جانب العقل والرسالة الإلهية اللذين يشدان أزره فى التغلب على عوامل الشر .

لقد كان آدم فى نعيم الجنة يتمتع بما فيها من كل ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين ويتنقل بين أشجارها ويتفيأ ظلالها ويتفكه بثمارها ويرتوى من عذب مياهها ، وشاركته زوجه هذه المتعة ولكن الشيطان أغراهما بالأكل من الشجرة وأقسم لهما بأنه من الناصحين ، فلما أطاعا الشيطان وأكلا من الشجرة سلب الله عنهما نعمته وحرمهما جنته :

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ الأعراف ٢٢ .

وقد ندم آدم وحواء أشد الندم وتابا إلى الله توبة نصوحا فتاب الله عليهما وأمرهما أن يهبطا إلى الأرض ليكدحا ويعملا فتعمر الأرض وتنتشر الحياة فى جنباتها . وقد حذر الله آدم وذريته من الشيطان وإغرائه ، وبين سبحانه أن على المؤمن أن يلجأ إلى ربه وأن يستعين بهداه وألا يخلد إلى الهوى وألا ييأس من رحمة الله فقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه حتى يتوب إليه التائبون ويلجأ إليه المؤمنون . فكل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون .

والمؤمن يتسامى بغرائزه وينتصر على شهواته وينهى نفسه عن الهوى ويحملها على طريق الفلاح والاستقامة . قال تعالى :

﴿ وَنفْسٍ وَمَا سَوَّاها فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ،قد أفْلَح منْ زكَّاها وقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ الشمس ٧ — ١٠ .

٥ — نعمة الثياب والزينة

تحدثت سورة الأعراف عن نعم الله تعالى على بنى آدم ، ومن هذه النعم نعمة الملبس الذى يستر الناس به عورتهم ويجملون به أنفسهم هيأالله لهم مادته من القطن والصوف والحرير وما إليها وألهمهم بما خلق فيهم من غرائز طرق استنباتها وطرق صناعتها بالغزل والنسيج والخياطة ولفت أنظارهم إلى أن تقوى الله فى الانتفاع بتلك النعمة، واستخدامها فى طاعة الله وشكره . وبذلك تستر الثياب العورة ، وتكون مصدر نعمة لانقمة . قال تعالى :

﴿ يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوارِي سَوْءَاتِكُمْ ، وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ، ذَلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ الأعراف ٢٦ .

وفى هذا تنبيه إلى أن الحضارة الحقة ليست فى كشف المفاتن ولا فى إظهار العورات وإنما الحضارة الحقة فى السير على سنة الله وهدى رسله وتعاليم أنبيائه .

توسط الإسلام فى شأن الزينة

من الآيات المشهورة قوله تعالى :

﴿ يابَنِي آدَمَ خذوا زِينَتكم عِنْدَ كلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا واشْرَبُوا وَلاَ تسْرِفوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِينَ ﴾ الأعراف ٣١ .

ومن هذه الآية تلمح سماحة الإسلام ويسره فهو يأمر بالنظافة ويدعو

إلى التجمل والتزين ويحث على التمتع بالطيبات . وفى الحديث الشريف يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

(إِنَّ اللهَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ ، طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبِينَ) .

وقد جاء الإسلام دينا وسطا فقد نهى عن التبذير والإسراف وحذر من الشح والبخل وأمر بالقصد والاعتدال قال تعالى :

﴿ قلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ الأعراف ٣٢ .

فهو سبحانه خلق الإنسان بيده ونفخ فيه من روحه وفضله على كثير من المخلوقات وسخر له الكون بما فيه من سماء مرفوعة وأرض مبسوطة وجبال راسية وبحار جارية وليل مظلم ونهار مضئ وأمره أن يستمتع بالطيبات وأن يبتعد عن المحرمات فهناك حدود بينها الله فالحلال بين والحرام بين وظاهر، وبينهما أمور مشتبهات فيها شبهة وإثم فمن ابتعد عن الشبهات فقد سلم عرضه ودينه ومن وقع فى الشبهات كانت طريقا إلى الحرام، كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه . وصدق الله العظيم :

﴿ قل إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الحقِّ ﴾ الأعراف ٣٣ .

* * *

دروس من سورة الأنفال

أهداف السورة

من الأسباب المباشرة لنزول سورة الأنفال معالجة شئون حدثت بين المسلمين فى غزوة بدر ، منها كراهتهم للخروج إلى بدر حين دعاهم الرسول إلى الخروج وكراهتهم للقتال حين وصلو إلى بدر وتحتم عليهم أن يقاتلوا .

ومنها اختلافهم بعد تمام النصر فى قسمة الغنائم .

ومنها اختلاف الرأى فى معاملة الأسرى أيقبلون منهم الفداء أم يقتلونهم ؟

وفى جو هذه الشئون عرضت السورة لما يجب أن يكون عليه المسلمون فى خاصة أنفسهم من جهة امتثال الأمر والإخلاص والحيطة والحذر من الأعداء ، وتذكر نعم الله عليهم ، والآداب التى يجب مراعتها أثناء القتال ، وفيا يتصل به ، من إعداد العدة ، والمحافظة على العهود ، وعلاقة بعضهم ببعض ؛ حتى يكونوا أهلا لما وعدهم الله من النصر والتأييد وحتى يفوزوا بدرجات المغفرة والرضا عند الله .

ولا يفهم من ذلك أن كراهة القتال كانت طابعا عاما بل كانت رغبة فريق قليل ونفر محدود كان يفضل الغنيمة والحصول على التجـارة عن القتال ، لكن بقية الجيش كان على استعداد للتضحية والفداء وكان القرآن يوحد الهدف ويرشد الجميع إلى أن القتال أفضل لأن فيه انتصافا للمؤمنين وإعلاء لكلمة الله ودحرا للطغيان وتحطيما لطواغيت الكفر وردعا للمشركين ، وقد استشار النبى المسلمين قبل بدء المعركة هل يقدم على القتال ؟ أم يعود إلى المدينة ؟

فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يارسول الله :
امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى
إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكن نقول : اذهب أنت وربك
فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم « أشيروا على أيها الناس » فقام سعد
ابن معاذ زعيم الأنصار وقال : يارسول الله آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن
ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ،
فامض لما أردت فنحن معك فو الذى بعثك بالحق نبياً لو استعرضت بنا
هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن
تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء، لعل الله يريك منا
ما تقر به عينك . وعندئذ أشرق وجه الرسول بالمسرة ، وقال لأصحابه
سيروا وابشروا فإن الله وعدنى إحدى الحسنيين العير أو النفير وقد
فرت العير فلم يبق إلا النفير فسار المسلمون وكلهم أمل فى النصر وتأييد الله.

صور من معركة بدر

نزلت سورة الأنفال فى غزوة بدر، وهى الموقعة الفاصلة فى تاريخ
الإسلام والمسلمين ، بل فى تاريخ البشرية كلها إلى يوم الدين . الموقعة التى
قدر المسلمون أن تكون غايتها غنيمة أموال المشركين ، وقدر رب المسلمين
أن تكون فيصلا بين الحق والباطل ، وأن تكون مفرق الطريق فى تاريخ
الإسلام ، ومن ثم تكون مفرق الطريق فى خط سير التاريخ الإنسانى العام ،
والتى ظهرت فيها الآماد البعيدة بين تدبير البشر لأنفسهم فيما يحسبونه الخير ،
وتدبير رب البشر لهم ولو كرهوه فى أول الأمر .

نزلت سورة الأنفال فى غزوة بدر فتضمنت الكثير من دستور السلم
والحرب ،ودستور الغنائم والأسرى . ودستور المعاهدات والمواثيق ، وتضمنت
بعد ذلك الكثير من دستور النصر والهزيمة بتضمنها لأسباب النصر والهزيمة
ولواجبات المجاهدين فى الإعداد والإستعداد ، ثم ترك الأمر بعد ذلك لله

وما النصر إلا من عند الله . ثم إنها تضمنت بعد ذلك مشاهد من الموقعة ومشاهد من حركات النفوس قبل المعركة وفى ثناياها وبعدها . مشاهد حية تعيد إلى المشاعر وقع المعركة وصورها وسماتها ؛ كأن القارئ يراها .
وإلى جوار المعركة استطراد السياق أحيانا إلى صور من حياة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وحياة أصحابه فى مكة ، حين كانوا قليلا مستضعفين فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس . وصور من حياة المشركين قبل هجرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — من بين ظهرانيهم ومن بعدها . وأمثلة من مصائر الكافرين من قبل — كدأب آل فرعون والذين من قبلهم — والدأب معناه الصفة والشأن أى أن شأن الكافرين واحد فى تكذيب الرسل ، واستحقاق العقاب ، وبذلك تقرر السورة سنة الله التى لا تتخلف فى نصر المؤمنين وهزيمة المكذبين .

الغنائم

لقد افتتح الله السورة بالحديث عن الأنفال ، وهى الغنائم التى يغنمها المسلمون فى جهادهم لإعلاء كلمة الله . وقد ثار بين أهل بدر جدال حول تقسيمها بعد النصر فى المعركة فردهم الله إلى كلمته وحكمه فيها ، ردهم إلى تقواه وطاعته وطاعة رسوله واستجاش فيهم وجدان التقوى والإيمان ، ثم أخذ يذكرهم بما أرادوا هم لأنفسهم من الغنيمة وما أراده الله لهم من النصر ، وكيف سارت المعركة وهم قلة لا عدد لهم ولا عدة وأعداؤهم كثرة فى الرجال والعتاد ، وكيف ثبتهم الله بمدد من الملائكة ، وبالمطر يستقون منه ويثبت الأرض تحت أقدامهم فلا تسوخ فى الرمال وبالنعاس يغشاهم ؛ فيسكب عليهم السكينة والاطمئنان ويلقى الرعب فى قلوب أعدائهم وينزل بهم شديد العقاب . قال تعالى :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ . الأنفال ١١ .

الحرب والسلام

تضمنت سورة الأنفال دراسة كاشفة و تصويرا ملموسا للمواقف الناجحة والحروب الهادفة ، كما رسمت السورة — مع سور أخرى فى القرآن الكريم — أسباب النصر فى الميدان ، ومن هذه الأسباب ما يأتى :

١ — إخلاص النية والرغبة فى الشهادة وإيثار الآخرة على الدنيا وتحمل تبعات الحرب وآلام القتال .

٢ — الثبات فى اللقاء وتذكر الله فى العسر واليسر وعدم الفرار من الميدان وبذل النفس والنفيس فى سبيل الله :

٣ — إعداد العدة وتجهيز أدوات القتال والتدريب عليها مع وحدة الصف وتماسك القوى وترابط المقاتلين .

٤ — التوكل على الله والالتجاء إليه بعد الأخذ فى الأسباب وطاعة القائد وتنفيذ الأوامر والمحافظة على النظام وأخذ الحذر .

٥ — البعد عن التنازع والاختلاف فى حال القتال وما يتعلق به فإن النزاع والخلاف من أكبر الأسباب فى إذهاب القوة وتمكين الأعداء :

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾

أى لا تختلفوا فإن الخلاف يؤدى إلى الضعف والهزيمة وضياع القوة والدولة .

٦ — عدم تصديق الإشاعات والأراجيف ومصاولة اليأس والقنوط والقضاء على أساليب العدو وعلى الحرب النفسية التى يشنها رغبة منه فى تثبيط الهمم والتيئيس من النصر .

* * *

ومن ثم يأمر الله أمير المؤمنين فى سورة الأنفال أن يثبتوا فى كل قتال مهما خيل إليهم فى أول الأمر من قوة أعدائهم فإن الله هو الذى يقتل وهو

الذى يرمى وهو الذى يدبر ، وما هم إلا أسباب ظاهرة لتنفيذ إرادة الله .
ويسخر القرآن من المشركين الذين كانوا قبل الموقعة يستفتحون ، فيطلبون أن تدور الدائرة على أضل الفريقين وأقطعهما للرحم فيقول :

﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ .

ويحذر المسلمين أن يتشبهوا بالكفار والمنافقين الذين يسمعون بآذانهم ولكنهم لا يسمعون بقلوبهم لأنهم لا يستجيبون ولا يهتدون .

ثم تدعو السورة المسلمين إلى الاستجابة لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم ، ولو خيل إليهم أن فيه القتل والموت ، وتذكرهم كيف كانوا قليلا مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس فأعزهم الله ونصرهم ، وأنهم إذا اتقوا الله جعل لهم فرقانا من النصر الكامل ذلك فوق تكفير السيئات وغفران الذنوب وما ينتظرهم من فضل الله الذى تتضاءل دونه المغانم والأموال .

وكما وضعت سورة الأنفال صفحة فى كتاب الإسلام عن الجهاد ، فإنها قابلتها بصفحة أخرى عن السلم لمن يجنح إليه ويختار الهدنة . ويتضح لنا من السورة أن السلم هو القاعدة فى الإسلام ، أما الحرب فطارئة لدفع الباطل وإقرار الحق ومن ثم يدعو الإسلام إلى السلم دعوته إلى الجهاد ، ويحافظ على العهد ما وفى به المعاهدون ويؤمن المخالفين للاسلام فى العقيدة من كل اعتداء غادر ويحصر الحروب فى أضيق نطاق تقضى به ضرورة تأمين السلم والحق والعدل ، ويعد الناقضين للعهود من عالم الحيوان لا من عالم الإنسان .

يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ . الأنفال ٦١

والتعبير عن الميل إلى السلم بالجنوح تعبير لطيف يلقى ظل الدعة الرقيق

فهى حركة جناح يميل إلى السلم ويرخى ريشه فى وداعة واطمئنان فإذا الجو من حوله طمأنينة وسلام .

وهناك حالة استثنائية واحدة هى حالة جزيرة العرب التى سيجىء فى سورة براءة نبذ عهود المشركين فيها جميعا وتخليصها من الشرك كافة لتكون موطنا خالصا للاسلام .

صفات المؤمنين

تعرضت سورة الأنفال لبيان صفات المؤمنين كما ورد تحديد هذه الصفات فى أول سورة البقرة وأول سورة المؤمنون ، وفى سورة الفرقان ، وفى كثير من السور .

وإذا استوعبنا هذه الآيات وجدناها تدور حول تحديد المؤمن — الذى يريده الله — بمن يجمع بين سلامة العقيدة وسلامة الخلق ، وصلاح العمل ، وبمن يكون فى ذلك كله مثالا صادقا وصورة صحيحة لأوامر الله وإرشاداته .

وقد وصف الله المؤمنين فى سورة الأنفال بخمس صفات هى : وجل القلوب عند ذكر الله ، وزيادة الإيمان عند تلاوة آياته ، والتوكل على الله وحده ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق مما رزق الله . ثم بين أنهم بهذه الصفات يكونون أهل الإيمان حقا وأن لهم عند الله درجات عالية فى الجنة .

فالمؤمن حقا يراقب مولاه ، ويرجو رحمته ، ويخشى عقابه ، ويخشع عند تذكر آياته ، وهو فى خشوعه وخضوعه وعبادته مخلص القلب ثابت اليقين .

ومن صفة المؤمن زيادة إيمانه ورسوخ عقيدته عند تلاوة القرآن وتدبر آياته ، ومعرفة أحكامه وأسراره ، كما أن إقامته للصلاة وأداءه للزكاة وعمله بمقتضى هذا الإيمان سلوكا وتطبيقا ، مما يزين الإيمان فى القلب ويزيده ثقة ويقينا .

فالصلاة فى حقيقتها مناجاة ومناداة وخشوع وخضوع وقراءة ودعاء

ومن ثمرتها طهارة المؤمن من الفحشاء والمنكر وتهذيب الغرائز وتقويم السلوك وتربية الضمير . والزكاة فيها تكافل المجتمع وترابط الأغنياء والفقراء .

وفى سورة الأنفال حث على الإنفاق من كل ما رزق الله وهو يشمل — كما فصّل الفقهاء — زكاة الأموال وزكاة الزروع والثمار وزكاة الماشية وزكاة الركاز وكل ما يستخرج من باطن الأرض ، وزكاة التجارة . ولا تكاد تجد آية عرضت للصلاة إلا وتذكر الإنفاق فى سبيل الله . كما أنا لا تكاد تجد آية تعرضت لأوصاف المؤمنين وتهملهما أو تهمل أحدهما .

فقد جعل الله إقامة الصلاة مثالا لبذل النفس فى سبيله وجعل الإنفاق مثالا لبذل المال فى سبيله .

وبذلك يتسم الإيمان بطابع تهذيب النفس وطهارة القلب ، كما يتسم بأنه دافع عملى إلى السلوك النافع والعمل الصالح الذى يؤدى إلى إصلاح المجتمع وتماسك الأمة وتقوية روابط المودة والرحمة والألفة بين الناس :

نداءات إلهية للمؤمنين

أخذت سورة الأنفال تنادى المؤمنين ست مرات بوصف الإيمان فى النداء الأول تأمرهم بالثبات فى الميدان والشجاعة فى القتال وتنهاهم عن الفرار من المعركة وتتوعد الفارّ من ميدان القتال بعذاب السعير وغضب الله العلى القدير والنداء الثانى يشتمل على الأمر بطاعة الله ورسوله ، وقد امتثل المسلمون لذلك الأمر فانقادوا لأحكام الله وبذلوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله ، وهذا الطريق هو طريق النصر للسابقين واللاحقين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . الأنفال ٢٠

والنداء الثالث — الاستجابة لله وللرسول وتغليب أمرهما على كل ماسواهما من أوامر وفى الحديث الشريف :

﴿ ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُه

أحبَّ إليهِ مِمّا سِواهُما وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاّ للهِ وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النّار ﴾ .

النداء الرابع — دعوة إلى ترك الخيانة والبعد عن إفشاء أسرار الأمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ والرَّسُولَ وتَخُونُوا أمانَاتِكُمْ وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ ﴾ . الأنفال ٢٧

النداء الخامس — دعوى إلى تقوى الله فى أحكامه وسننه وبيان أن التقوى شجرة مثمرة وأعظم ثمارها النور الذى يبصر صاحبه بالحق والعدل وطريق الصلاح والهدى :

النداء السادس — يأمر بذكر الله وتلاوة كتابه وينهى عن الفرقة والتنازع والاختلاف ويحث على الصبر والتمسك بالوحدة والجماعة ، حيث يقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبتوُا واذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾. الأنفال ٤٥

دروس من سورة التوبة

أسماء السورة

عرفت سورة التوبة من العهد الأول للإسلام بجملة أسماء، تدل بمجموعها على ما اشتملت عليه من المبادىء والمعانى التى تجب مراعاتها فى معاملة الطوائف كلها مؤمنهم ومنافقهم وكتابيهم ومشركهم .

وأشهر هذه الأسماء « سورة التوبة » ، وهو يشير إلى ماتضمنته السورة من تسجيل توبة الله وتمام رضوانه على المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا فى مناصرة الدعوة ، وصدقوا فى الجهاد مع النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى وصل بهم إلى الغاية المرجوة ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَلَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

التوبة ١١٧ ، ١١٨ .

ولا ريب أن تسجيل هذه التوبة للمؤمنين — بعد أن كابدوا الجهد والمشقات فى سبيل نصرة الحق — لما يقوى روح الإيمان فى قلوبهم ويبعد بهم عن مزالق المخالفة أو التقصير .

وقد تخلف ثلاثة من المسلمين عن الاشتراك في الجهاد ولم يساهموا في أعباء جيش العسرة فأمر النبي بمقاطعتهم ومعاقبتهم ومكثوا فترة من الزمن في عزلة تامة بغرض تأديبهم وتهذيبهم ثم تاب الله عليهم وقبل توبتهم وكان ذلك درساً تعليميا للمسلمين حتى لا يتخلفوا عن الجهاد ولا يقصروا في القيام بأعباء الدين وتعاليمه.

ومن أسماء السورة براءة ، وهي تشير إلى غضب الله ورسوله على من أشرك بالله وجعل له ندا وشريكا وإعلام الناس في يوم الحج الأكبر.

﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ التوبة ٣ .

وقد عرفت السورة بعد ذلك بأسماء أخرى فكانت تسمى الكاشفة والمثيرة والفاضحة والمنكلة وغير ذلك مما حفلت به كتب التفسير وهي ألفاظ أطلقت عليها باعتبار ماقامت به من كشف أسرار المنافقين وإثارة أسرارهم وفضيحتهم بها وتنكيلها بهم.

ورد أن ابن عباس رضي الله عنه قال: سورة التوبة هي الفاضحة مازالت تنزل في المنافقين وقتال منهم حتى ظننا أنها لا تبقى أحدا إلا ذكرته بقولها : ومنهم ، ومنهم ، ومنهم.

وهو يشير إلى ماجاء في هذه السورة من أصناف المنافقين مثل :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يقول ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾. التوبة ٤٩ .

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ التوبة ٥٨ .

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ التوبة ١٠١ .

أين البسملة ؟

من خصائص سورة التوبة أنه لم يذكر فى أولها بسم الله الرحمن الرحيم لأنها تبدأ باعلان الحرب الشاملة ، ونبذ العهود كافة ، والبسملة تحمل روح السلام والطمأنينة ، لذلك لم تبدأ بها سورة الحرب والقتال .

وربما كان سبب عدم وجود التسمية فى أولها ، الاشتباه فى أنها جزء من سورة الأنفال خصوصاً وأن سورة الأنفال تحكى جهاد المسلمين فى معركة بدر وسورة التوبة تصف جهاد المسلمين فى معركة تبوك ، فقصة الأنفال شبيهة بقصة سورة التوبة من ناحية الهدف العام والتحريض على الجهاد والتحذير من التخلف عن أمر الله رسوله . لذلك تركت سورة التوبة مع سورة الأنفال . ووضع بينهما فاصل السورة ولم يكتب فى أول التوبة بسم الله الرحمن الرحيم . احترازا من الصحابة أن يضيفوا أى شىء إلى رسم القرآن إلا بتوجيه من النبى صلى الله عليه وسلم .

روى الترمذى بإسناده عن ابن عباس قال قلت لعثمان بن عفان ماحملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى برءة وهى من المئين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر : بسم الله الرحمن الرحيم .

ووضعتموها فى السبع الطوال ، ماحملكم على ذلك ؟

فقال عثمان كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذات العدد فكان إذا أنزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبين لنا أنها منها. فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتها فى السبع الطوال .

أهداف سورة التوبة

سورة التوبة هي السورة التاسعة في ترتيب المصحف وهي من السور المدنية وقد نزلت في أواخر السنة التاسعة من الهجرة . وهي السنة التي خرج فيها النبي صلى الله عليه وسلم بالمسلمين إلى تبوك بقصد غزو الروم كما خرج أبو بكر في أواخر سنة تسع على رأس المسلمين لحج بيت الله الحرام .

هدفان أصليان

وقد كان للسورة بحكم هذين الحادثين العظيمين في تاريخ الدولة الإسلامية هدفان أصليان :

أحدهما : تحديد القانون الأساسي الذي تشاد عليه دولة الإسلام . وذلك بالتصفية النهائية بين المسلمين ومشركي العرب بإلغاء معاهدتهم ، ومنعهم من الحج ، وتأكيد قطع الولاية بينهم وبين المسلمين ، وبوضع الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في جزيرة العرب وإباحة التعامل معهم .

ثانيهما : إظهار ما كانت عليه نفوس أتباع النبي صلى الله عليه وسلم حينما استنفرهم ودعاهم إلى غزو الروم ، وفي هذه الدائرة تحدثت السورة عن المتثاقلين منهم والمتخلفين والمثبطين ، وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين وما انطوت عليه قلوبهم من أحقاد وما قاموا به من أساليب النفاق .

وقد عرضت السورة من أولها للهدف الأول . واستغرق ذلك سبعة وثلاثين آية في أول السورة ، وقد تضمنت هذه الآيات ما يأتي :

(أولا) تقرير البراءة من المشركين ورفع العصمة عن أنفسهم وأموالهم .

(ثانياً) منحهم هدنة مقدارها أربعة شهور .

(ثالثاً) إعلان الناس جميعا يوم الحج الأكبر (وهو يوم عيد الأضحى) بهذه البراءة .

(رابعاً) إتمام مدة العهد لمن حافظ منهم على العهد .

(خامساً) بيان مايعاملون به بعد انتهاء أمد الهدنة أومدة العهد .
(سادساً) تأمين المستجير حتى يسمع كلام الله .
(سابعاً) بيان الأسباب التي أوجبت البراءة منهم وصدور الأمر بقتالهم .
(ثامنا) إزالة وساوس قد يخطر فى بعض النفوس أنها تبرر مسالمة المشركين أو الإبقاء على عهودهم .

رحمة الله بالعباد

لقد برىء الله من المشركين ومن فعالهم لأن الشرك والكفر ظلم عظيم وجحود بحق الله الخالق الرازق ، الذى يستحق العبادة وحده ، لكن الله أمهل المشركين مدة أربعة أشهر لتمكينهم من النظر والتدبير لاختيار ما يرون فيه مصلحتهم من الدخول فى الإسلام أو الاستمرار على العداء .

ولعل الحكمة فى تقدير تلك المهلة بأربعة أشهر أنها هى المدة التى كانت تكفى لتحقيق ما أبيح لهم من السياحة فى الأرض والتقلب فى شبه الجزيرة على وجه يمكنهم من التشاور والأخذ والرد مع كل من يريدون أخذ رأيه فى تكوين الرأى الأخير . قال تعالى ،

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَىَ الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِى الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الكَافِرِينَ ﴾ التوبة ١ ، ٢ .

ومن رحمة الإسلام أيضا إباحة تأمين المشرك ، وتقرير عصمة المستأمن وقد أوجب الله على المسلمين حماية المستأمن فى نفسه وماله مادام فى دار الإسلام وجعل لأفراد المسلمين حق اعطاء ذلك الأمان (فالمسلمون عدول يسعى بذمتهم أدناهم) .

والإسلام يبيح بهذا الأمان التبادل التجارى والصناعى والثقافى ، وسائر الشئون مالم يتصل شىء منها بضرر الدولة . وقد كان للاسلام من مشروعية الأمان

وسيلة قوية لنشر دعوته وإيصال كلمة الله إلى كثير من الأقاليم النائية من غير حرب ولا قتال . قال تعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . التوبة ٦ .

فالإسلام يمنح الجوار والأمان للمشرك الذى يبحث عن الحقيقة ، ويريد أن ينظر فى الإسلام نظر تأمل ودراسة ، فيسمح له بالدخول فيما بين المسلمين والتعامل معهم ، والاختلاط بهم : حتى يفهم حكم الله ودعوته ، فإن اطمأن ودخل الإيمان فى قلبه التحق بالمؤمنين ، وصار فى الحكم كالتائبين ، وإن لم يشرح صدره للإسلام وأراد الرجوع إلى جماعته ، حرم اغتياله ووجبت المحافظة عليه حتى يصل مكان أمنه واستقراره .

وبذلك بلغ الإسلام شأوا بعيدا فى حماية الفكر والنظر ، وتذليل الطريق أمام الباحثين والمفكرين وحمايتهم حتى يصلوا إلى مواطن الأمان أيا كانت معتقداتهم ، وصدق الله العظيم :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ البقرة ٢٥٦ .

غزوة تبوك

فى السنة التاسعة من الهجرة وصلت للرسول صلى الله عليه وسلم أنباء تفيد أن الروم قد جمعوا جموعهم ، واعتزموا غزو المسلمين فى بلادهم ، فأمر النبى أن يتجهز المسلمون وأن يأخذوا عدتهم ويخرجوا إلى تبوك لقتال الروم فى بلادهم قبل أن يفاجئوه فى بلده .

أعلن النبى النفير العام ، وكان صلى الله عليه وسلم قلما يخرج إلى غزوة إلا ورى بغيرها مكيدة فى الحرب ، إلا ما كان من هذه الغزوة — غزوة تبوك — فقد صرح بها لبعد الشقة وشدة الزمان إذ كان ذلك فى شدة الحر حين طابت الظلال ، وأينعت الثمار ، وحبب إلى الناس المقام .

عندئذ وجد المنافقون فرصة سانحة للتخذيل فقالوا : لا تنفروا فى الحر ، وخوفوا الناس بعد الشقة وحذروهم شدة بأس الروم . وكان لهذا كله أثره فى تثاقل بعض الناس عن الخروج للجهاد .

كذلك أخذ المنافقون يستأذنون فى التخلف عن الغزو معتذرين بالأعذار الكاذبة الواهنة كما دبر بعضهم المكائد للنبى صلى الله عليه وسلم فى ثنايا الطريق .

ولم يكن بد من هذا الامتحان ليكشف الله المنافقين ، ويثبت المؤمنين الصادقين فالشدائد هى التى تكشف الحقائق وتظهر الخبايا .

وقد ظهر الإيمان الصادق من المؤمنين المخلصين فسارعوا إلى تلبية الدعوة بأموالهم وأنفسهم ، يجهزون الجيش ويعدون العدة وقد خرج أبو بكر حينئذ عن كل ما يملك، كما قام بنصيب الأسد فى التجهيز عثمان بن عفان ، بذل الآلاف وجهز المئات من البعير والخيل ، وجهز هو وغيره الفقراء الأقوياء الذين جاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم بأنفسهم ليحملهم فقال لهم :

﴿ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عليه ، تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ التوبة ٩٢ .

ثم يستمر سياق سورة التوبة فى الحديث عن المنافقين ومايظهر منهم من أقوال وأعمال تكشف عن نواياهم التى يحاولون سترها فلا يستطيعون ، فمنهم من ينتقد النبى صلى الله عليه وسلم فى توزيع الصدقات ويتهم عدالته فى التوزيع ، وهو المعصوم ذو الخلق العظيم . ومنهم من يقول هو أذن يستمع لكل قائل ، ويصدق كل ما يقال . ومنهم من يتخفى بالقولة الفاجرة الكافرة ، حتى إذا انكشف أمره استعان بالكذب والحلف ليبرىء نفسه من تبعة ما قال ، ومنهم من يخشى أن ينزل الله على رسوله سورة تفضح نفاقهم وتكشفهم للمسلمين .

ثم تقارن السورة بين المنافقين والمؤمنين ، لتبين الفرق الواضح بين

صفات المنافقين ، وصفات المؤمنين الصادقين ، الذين يخلصون العقيدة ولا ينافقون ، فقد خرج المومنون للجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطعوا مسافة طويلة فى الصحراء الجرداء تقدر بنحو ٦٩٢ كيلو مترا وكان المؤمنون يتدافعون إلى الجهاد ويشتاقون إلى الشهادة . ولما أحس الروم بقدوم المسلمين انسحبوا من أطراف بلادهم إلى داخلها ، فلما وصل المسلمون إلى تبوك لم يجدوا للروم أثرا وقد عقد النبى صلى الله عليه وسلم معاهدات مع أمراء الحدود وعاد إلى المدينة مرهوب الجانب محفوظا بعناية الله .

وقد استقبل النبى صلى الله عليه وسلم المتخلفين عن الجهاد فى غزوة تبوك فمنهم أصحاب الأعذار الحقيقية وهؤلاء معذورون معفون من التبعة ، ومنهم القادرون الذين قعدوا بدون عذر فعليهم تبعة التخلف ووزر النكوص عن الجهاد .

ثم تمضى سورة التوبة فتتحدث عن الأعراب فتذكر طبيعتهم وصنوفهم وموقفهم من الإيمان والنفاق .

ثم تقسم الجماعة الإسلامية كلها عند غزوة تبوك وبعدها إلى طبقاتها ودرجاتها وفق مقياس الإيمان والأعمال .

فهناك السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان .

وهناك المنافقون الذين مرسوا بالنفاق وتعودوا عليه سواء كانوا من الأعراب أو من أهل المدينة .

وهناك الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا واعترفوا بذنوبهم ، وهناك الذين أخطئوا وأمرهم متروك لله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ، وهناك فئة أخلصت لله فى الإيمان وتخلفت من غير عذر ثم ندمت ندما عميقا وضاقت الدنيا فى وجهها ولجأت إلى الله تطلب مغفرته ورحمته فتاب الله عليهم وألهمهم طريق التوبة والسداد ، إن الله هو التواب الرحيم .

سورة التوبة هى آخر سور القرآن نزولا ، وفى هذه السورة نجد القول الفصل فى علاقات الأمة المسلمة بالمشركين وبأهل الكتاب وبالمنافقين وهذا هو موضوعها الذى تدور حوله .

لقد كانت بين المسلمين وبعض المشركين عهود ولم يكن المشركون يحافظون على عهودهم إلا ريثما تلوح لهم فرصة ، يحسبونها مواتية للكرة على المسلمين ، وكان المشركون – حتى بعد فتح مكة – يطوفون بالبيت عرايا ، على عادتهم فى الجاهلية ، ويصفقون ويصفرون مخلين بكرامة البيت العتيق ، فلم يكن بد أن تخلص الجزيرة العربية للإسلام ، وأن تتخلص من الشرك .

والجهاد هو الوسيلة لتطهير الجزيرة من رجس المشركين والمنافقين ، ومن ثم تناولت السورة موضوع الجهاد بالنفس ، والمال ، وبينت شرفه وأجره . وأنحت على المتخلفين القاعدين ، واستجاشت وجدان المسلمين إلى قتال الكفار المنافقين بما صورت من كيدهم للمسلمين وحقدهم عليهم ، وتمنى الشر لهم . وما تحمله لهم نفوسهم من الخصومة والبغضاء . وما وقع منهم للرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين . وبذلك كانت سورة التوبة تحمل القول الفصل فى علاقات المسلمين بغيرهم وتحدد موقفهم الحاسم الأخير .

وقد لونت السورة أساليب الدعوة إلى الجهاد : فحينا تنكر على المؤمنين تثاقلهم وإخلادهم إلى الأرض . وحينا آخر تهتم بتطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان . ومرة أخرى توضح أن سنة الله ماضية لاتتخلف . وأن من قوانين الحق سبحانه أن البقاء والعزة والسلطان إنما يكون للعاملين المجاهدين ، أما المتباطئون والمتثاقلون الذين يؤثرون حياتهم ويضنون بأنفسهم وأموالهم ويخلدون إلى الأرض ويعرضون عن دعوة الجهاد فى سبيل حريتهم وبقائهم ، فإنهم ولابد ذاهبون ، وهم لا محالة مستذلون مستعبدون .

فضل الرسول الأمين

تعرضت سورة التوبة لبيان فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانته السامية ومناقبه الكريمة ، فذكرت أن الله أنزل السكينة عليه وأيده بجنود من الملائكة فى يوم حنين حين انهزم المؤمنون وولوا مدبرين .

ومن كرامة الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله نصره عند الهجرة مع صاحبه الصديق . وكان الله معهما بتأييده وإنزاله الطمأنينة والأمان عليهما وحفظهما فى الغار حتى عميت عنهما عيون الكفار ، وجعل الله كلمة المؤمنين فى ارتفاع وانتصار ، وشأن الكافرين فى هزيمة واندحار ، وقد أوجبت سورة التوبة على المؤمنين عدة واجبات تجاه نبيهم منها :

١ ــ وجوب محبته صلى الله عليه وسلم والتزام هديه والعمل بسنته كما تجد ذلك فى الآية ٢٥ .

٢ ــ تحرى مرضاته لأن رضاه من رضى الله سبحانه . ونجد ذلك فى الآية ٦٢ .

٣ ــ وجوب طاعته والنصح له ووجوب نصره .

٤ ــ تحريم ايذائه وتحريم معاداته وتحريم القعود عن الخروج معه فى الجهاد .

وتختم السورة آياتها بذكر صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهو الرحمة المهداة لتطهير المؤمنين وتزكيتهم وتعليمهم ، والدعاء لهم ، فحبه فريضة ، وبغضه كفر وحرمان . وقد تكفل الله بنصر رسوله حتى ولو تخلى عنه جميع الناس فإن معه الله القوى القدير ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ، فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ التوبة ١٢٨، ١٢٩ .

دروس من سورة يونس

نزلت سورة يونس بعد سورة الإسراء ، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، فتكون سورة يونس من السور التى نزلت بين الإسراء والهجرة ، فهى سورة مكية من أواخر ما نزل من القرآن بمكة .

وقد سميت بهذا الاسم لذكر قصة يونس فيها ،وتبلغ آياتها تسعا ومائة آية .

أهدافها الاجمالية

موضوعات هذه السورة هى موضوعات السور المكية الغالبة، وهى الجدل حول مسائل العقيدة والتوجيه إلى آيات الله الكونية ، والى سنن الله فى الأرض وإلى العظة بالقرون الخوالى ومصائرها وعرض بعض القصص من هذا الجانب الذى تبرز فيه العظة واللمسات الوجدانية التى تنتقل بالأنسان من آيات الله فى الكون إلى اياته فى النفس ، إلى مشاهد القيامة المؤثرة ، إلى قصص الماضين ومصائرهم ، كأنها جميعا حاضرة معروضة للأنظار .

وهذه السورة تتضمن شيئا من هذا كله ، وينتقل السياق فيها من غرض إلى غرض بمناسبات ظاهرة أو خفية بين مقاطعها ، ولكن جوهرها كله هو هذا الجو حتى ليصعب الفصل بين مقطع ومقطع فيها فى أغلب الأحيان .

الدرس الأول – مظاهر قدرة الله

يبدأ القسم الأول من السورة بحروف ثلاثة هى ألف ، لام ، را ، كما بدأت سورة البقرة وسورة آل عمران بحروف مشابهة ذكرالعاملة أنها

أسماء للسورة أو إشارة إلى أسماء الله تعالى وصفاته أو هى لبيان إعجاز القرآن الكريم، أو هى مما استأثر الله تعالى بعلمه . ثم تأخذ السورة فى عرض عدة أمور هى بيان حكمة القرآن وطريقته فى تنبيه الغافلين إلى تدبر آيات الله، فى صفحة الكون وتضاعيفه: فى السماء والأرض ، وفى الشمس والقمر ، وفى الليل والنهار .. وفى مصارع القرون الأولى . . وفى قصص الرسل فيهم . . وفى دلائل القدرة الكامنة والظاهرة فى هذا الوجود .

ثم تشرح السورة الحكمة فى الايحاء إلى رجل من البشر يعرفه الناس ويطمئنون إليه ويأخذون منه ويعطونه بلا تكلف ولا جفوة ولا تحرج . وتذكر الحكمة من إرسال الرسل .

فالإنسان بطبعه مهيأ للخير والشر ، وعقله هو أداته للتمييز ، ولكن هذا العقل فى حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائماً كلما اختلط عليه الأمر وأحاطت به الشبهات وجذبته التيارات والشهوات . وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشريعته :

وتلفت سورة يونس النظر إلى خلق السموات والأرض وتدبير الأمر فيهما ، وإظهار قدرة الله :

﴿ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ .
يونس ٥

وقدر اختلاف الليل والنهار ، إن الله الذى خلق هذا ودبره هو الذى يليق ن يكون ربا يعبد ولا يشرك به شيء من خلقه .

إن هذا الليل المظلم ، الساكن إلا من دبيب الرؤى والأشباح . وهذا نجر المتفتح فى نهاية الليل كابتسامة الوليد، وهذه الحركة التى يتنفس بها صبح فيدب النشاط فى الحياة والأحياء ، وهذا الطير الرائح الغادى القافز الب الذى لا يستقر على حال . وهذا النبت النامى المتطلع أبدا إلى النمو لحياة ، وهذه الخلائق الذاهبة الآيبة فى تدافع وانطلاق . وهذه الأرحام تدفع ، والقبور التى تبلع والحياة ماضية فى طريقها كما شاء الله .

إن هذا الحشد من الصور والأشكال ، والحركات والأحوال والرواح والذهاب والبلى والتجدد والذبول والنماء ، والميلاد والممات ، والحركة الدائبة فى هذا الكون الهائل التى لا تنى ولا تتوقف لحظة من ليل أو نهار . إن هذا كله ليستنهض كل همة فى كيان البشر للتأمل والتدبر والتأثر حتى يستيقظ القلب ويتفتح لمشاهدة الآيات المبثوثة فى ظواهر الكون وحناياه والقرآن الكريم يعمد مباشرة إلى إيقاظ القلب لتدبر هذا الحشد من الصور والآيات وتأمل قدرة الله فى اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر فيطول الليل فى الشتاء ويقصر فى الصيف ، ويطول النهار فى الصيف ويقصر فى الشتاء . ووراء كل إبداع يد الله القدير الذى رفع السماء وزينها بالنجوم وحفظها من التصدع والوقوع ؛ وبسط سبحانه الأرض وثبتها بالجبال وزينها بالنبات وأحياها بالأمطار .

﴿ إِنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِى السَّمَوَاتِ والأَرضِ . لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ يونس ٦ .

الدرس الثانى – الأدلة على وجود الله

يستهل الدرس الثانى من سورة يونس بإعلان جزاء المؤمنين وعاقبة المكذبين حيث يقول سبحانه .

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ يونس ٢٦

فالجزاء الحق من جنس العمل ، فمن عمل صالحا فى الدنيا أدخله الله الجنة ومتعه بالطيبات ونجاه من النار .

ثم تستمر الآيات فى بيان عقوبة المكذبين ، وجزاء الخائنين ، وتسوق السورة عددا من الأدلة والبراهين تنتهى كلها إلى هدف واحد هو إشعار النفس بتوحيد الله وصدق الرسول ، واليقين باليوم الآخر ، والقسط فى الجزاء .

تلمس الأدلة أقطار النفس ، وتأخذ بها إلى آفاق الكون فى جولة واسعة

شاملة ، جولة من الأرض إلى السماء ومن آفاق الكون إلى آفاق النفس ومن ماضى القرون إلى حاضر البشر ومن الدنيا إلى الآخرة .

وقد لاحظنا فى الدرس الماضى لمسات من هذه ، ولكنها فى هذا الدرس أظهر . . فمن معرض الحشر إلى مشاهد الكون إلى ذات النفس ، وإلى التحدى بالقرآن إلى التذكير بمصائر المكذبين من الماضين ، ومن ثم لمحة عابرة عن الحشر فى مشهد جديد ، إلى تخويف من المفاجأة بالعذاب ، وإلى تصوير علم الله الشامل الذى لا يند عنه شىء ، إلى بعض آيات الله فى الكون ، إلى الإنذار بما ينتظر المفترين على الله يوم الحساب .

إنها مجموعة من اللمسات العميقة الصادقة ، لا تملك نفس سليمة التلقى ، صحيحة الاستجابة ألا تستجيب لها ، وألا تتداوب الحواجز والموانع فيها دون هذا الفيض من المؤثرات المستمدة من الحقائق الواقعة ومن فطرة الكون وفطرة النفس وطبائع الوجود . لقد كان الكفار صادقين فى إحساسهم بخطر القرآن على صفوفهم وهم يتناهون عن الاستماع إليه خيفة أن يجرفهم بتأثيره ويزلزل قلوبهم ، وهم يريدون أن يظلوا على الشرك صامدين .

وأن سورة واحدة كهذه أو بعض سورة لتحمل من المؤثرات النفسية والعقلية ما لا يحمله جمع كبير من قوى الشرك والانحراف والفسوق .

لقد أخذ القرآن على النفوس كل مسلك ، ليسير بها نحو الإيمان ، وساق إليها أدلة محسوسة ملموسة حيث يقول سبحانه :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾

من المطر الذى يحيى الأرض وينبت الزرع ومن طعام الأرض ونباتها وطيرها وأسماكها وحيواناتها ، فمن سطح الأرض أرزاق ، ومن أعماقها أرزاق ، ومن أشعة الشمس أرزاق ومن ضوء القمر أرزاق . حتى عفن الأرض كشف فيه عن دواء وترياق .

﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ﴾

يهبهما القدرة على أداء وظائفهما أو يحرمهما ، ويصححهما أو يمرضهما ويصرفهما إلى العمل أو يلهيهما . وإن تركيب العين وأعصابها وكيفية إدراكها للمرئيات أو تركيب الأذن وأجزائها وطريقة إدراكها للذبذبات لعالم وحده يدير الرءوس عندما يقاس هذا الجهاز أو ذاك إلى أدق الأجهزة التي يعدها الناس من معجزات العلم الحديث .

﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ ﴾

أى النور من الظلام والظلام من النور ، والنهار من الليل والليل من النهار ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، والنبتة من الحبة والحبة من النبتة ، والفرخ من البيضة والبيضة من الفرخ . . إلى آخر هذه المشاهدات العجيبة ، وإلا فأين كانت تكمن السنبلة فى الحبة ؟ وأين كان يكمن العود وأين كانت الجذور والساق والأوراق ؟ .

﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾

كله فى هذا الذى ذكر وفى سواه من شئون الكون وشئون البشر ؟ من يدبر الناموس الكونى الذى ينظم حركة هذه الأفلاك على هذا النحو الدقيق ؟ ومن يدبر السنن الاجتماعية التى تصرف حياة البشر .

﴿ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ . يونس ٣١ .

أفلا تخشون الله الذى يرزقكم من السماء والأرض والذى يملك السمع والأبصار ، والذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، الذى يدبر الأمر كله فى هذا وفى سواه

﴿ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ ﴾

هو سبحانه صاحب الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

اشتملت الآيات من ٧١ ـ ٩٣ من سورة يونس على ذكر طرف من قصة نوح مع قومه وقصة موسى مع فرعون وملئه . وقد تحقق فيهما عاقبة المكذبين ، وهلاك المخالفين لأوامر الله وهدى رسله ، والقصص فى القرآن يجىء فى السياق ليؤدى وظيفة فيـه ، ويتكرر القصص فى المواضع المختلفة بأساليب تتفق مع مواضعه من السياق والحلقات التى تعرض منه فى موضع تفى بحاجة ذلك الموضع . وتلاحظ فيما عرض من قصتى نوح وموسى هنا ، وفى طريقة العرض ، مناسبة ذلك لموقف المشركين فى مكة من النبى صلى الله عليه وسلم والقلة المؤمنة معه ، واعتزاز هذه القلة المؤمنة بإيمانها فى وجه الكثرة والقوة والسلطان ، كما تلحظ المناسبة الواضحة بين القصص والتعقيبات التى تتخلله وتتلوه .

قصة نوح

بدأت قصة نوح من الحلقة الأخيرة ، حلقة التحدى الأخير بعد الإنذار الطويل والتذكير والتكذيب ، ولا يذكر فى هذه الحلقة موضوع السفينة ولا من ركب فيها ولا الطوفان ولا التفصيلات الواردة فى سور أخرى : لأن الهدف هنا هو إبراز التحدى الذى واجه نوحا من قومه، واستعانته بالله ، ونجاته ومن معه وهم قلة، وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة . لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات القصة التى يقصها إلى حلقة واحدة ، ويختصر تفصيلات الحلقة الواحدة إلى نتائجها الأخيرة وهى نجاة نوح ومن آمن معه فى السفينة واستخلافهم فى الأرض على قلتهم ، وإغراق المكذبين على قوتهم وكثرتهم . قال تعالى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَــهُ فِى الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُم خلائِفَ وأَغْرَقْنَا الَّذِين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ .

يونس ٧٣ .

وأما قصة موسى فيبلؤها السياق هنا من مرحلة التكذيب والتحدى وينهيها عند غرق فرعون وجنوده ، وإذا كانت قصة نوح قد ذكرت فى أربع آيات فقط هى الآيات من٧١ إلى ٧٤ من سورة يونس فإن قصة موسى قد ذكرت على نطاق أوسع خلال ثمانى عشرة آية هى الآيات من ٧٥ إلى ٩٣ . وقد ألمت قصة موسى بالمواقف ذات الشبه بموقف المشركين فى مكة من الرسول صلى الله عليه وسلم وموقف القلة المؤمنة التى معه . وهذه الحلقة المعروضة هنا من قصة موسى مقسمة إلى ثلاثة مواقف يليها تعقيب يتضمن العبرة من عرضها فى هذه السورة على النحو الذى عرضت به . وهذه المواقف الثلاثة تتتابع فى السياق على هذا النحو :

أولا : وصول موسى إلى فرعون ومعه آيات تسع ذكرت فى سورة الأعراف ولكنها لم تذكر فى سورة يونس ولم تفصل لأن السياق لا يقتضيها ، والإجمال فى هذا الموضع يغنى ، والمهم هو تلقى فرعون وملئه لآيات الله، لقد استقبلوها بالظلم والاستكبار قال تعالى :

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ . يونس ٧٥ ، ٧٦

ادعى فرعون أن معجزة موسى سحر ظاهر ، وجمع له كبار السحرة وأرادوا أن يغرقوا الجماهير فى صراع السحر بأن تعقد حلقة للسحر يتحدون بها موسى وما معه من آيات تشبه السحر فى ظاهرها ليخرجوا منها فى النهاية بأن موسى ليس إلا ساحرا ماهرا .

والموقف الثانى موقف المبارزة بين السحرة وموسى ، فقد ألقى السحرة حبالهم وعصيهم وتحركت الحبال والعصى فبهرت جميع الناس وأرهبتهم ، ثم ألقى موسى عصاه فى الأرض فانقلبت حية هائلة لها شفتان طويلتان ، شفة فى الأرض تبتلع جميع الحبال والعصى التى ألقاها السحرة ، وشفة مرفوعة إلى أعلى . ثم أمسك موسى بعصاه فعادت كما كانت، وبطل السحر

وعلا صوت الحق . ولكن السياق يختصر المشاهد هنا لأنها ليست مقصودة في هذا المجال ، ويسدل الستار ليرفع على موسى ومن آمن معه وهم قليل ، وهذه إحدى عبر القصة المقصودة .

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِم أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾يونس ۸۳ .

وفى هذا الموضع تفيد الآيات أن الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم لموسى من بنى إسرائيل كانوا هم الفتيان الصغار لا مجموعة الشعب الإسرائيلى وأنهم تعرضوا للارهاب من فرعون ولكن موسى ثبتهم على الإيمان ودعاموسى ربه أن ينجى المؤمنين وأن يهلك الكافرين فاستجاب الله دعاءه وجاء الموقف الحاسم . والمشهد الثالث والأخير فى قصة التحدى والتكذيب ، هو غرق الطغاة الظالمين ونجاة من آمن بالمرسلين .

* * *

دروس من سورة هود

تمهيد عن الوحدة الموضوعية للسورة :

هود عليه السلام هو أول رسول إلى قوم عاد ، وعاد أول أمة من نسل سام بن نوح (١)، وقد تحدث القرآن كثيرا عن هود فيمن تحدث عنهم من رسل الله الكرام وقد ذكر باسمه خمس مرات في هذه السورة التي سميت به .

وسورة هود من السور المكية ، شأنها كسائر القرآن المكي : هو تقرير أصول الدين ، وإقامة الأدلة عليها ورد الشبه التي كان يثيرها المعارضون حول الدعوة وصاحبها ، والحديث عن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، وهي نفس الموضوعات التي تحدثت عنها السورة السابقة ، سورة يونس .

عناصر الدعوة الالهية

والمتدبر لسورة هود يرى أنها قررت عناصر الدعوة الإلهية — وهي التوحيد والرسالة والبعث — عن طريق الحجج العقلية ، مع الموازنة بين النفوس المستعدة للايمان ، والنفوس النافرة منه . وقد عرضت لذلك في أربع وعشرين آية يختم بها الربع الأول منها ، ثم أخذت سورة هود تتحدث عن جملة من الرسل السابقين بيانا لوحدة الدعوة الإلهية ، وتسلية للرسول عليه الصلاة والسلام وإنذارا للمكذبين .

ويستغرق قصص هؤلاء الرسل الكرام معظم سورة هود فتذكر قصة

---

(١) محمود شلتوت ، إلى القرآن الكريم ص ٧٧ .

نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى . وطريقة العرض هنا تختلف عنها فى سورة أخرى ، والحلقات التى تعرض من كل قصة تختلف كذلك لاختلاف السياق فيمتنع التكرار فيما يخيل للقارىء العابر للقرآن الكريم أنه تكرار .

هذا القصص الذى يستغرق معظم سورة هود : مرتبط كل الارتباط عما قبله وما بعده من السورة ، متناسق مع السياق حتى فى التعبير اللفظى أحيانا ، فالقصة والمشهد والعظة والتعقيب تتناسق كلها تناسقاً عجيباً ، وتكشف عن بعض وظيفة القصة فى القرآن الكريم .

تبدأ سورة هود بقوله تعالى :

﴿ آلر * كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِى لكم مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ هود ١ ، ٢ .

وهذا المطلع يقرر أن المهمة الأولى للنبى هى الدعوة إلى توحيد الله وينذر بالعذاب من يكذب بدعوة الله ، ويبشر بالنعيم من آمن بها . وقصص السورة كله يساق لتوكيد هذين المعنيين ، فيرد فى ألفاظ تكاد تكون واحدة يقولها كل رسول . وكأنما يقولها ويمضى ، حتى يأتى أخوه فيقولها كذلك ويمضى ، والمكذبون هم المكذبون .

تبدأ قصة نوح بقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ هود ٢٥ ، ٢٦ .

ثم يقول هود ،

﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ هود ٥٠ .

ويقول صالح :

﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ هود ٦١ .

ويقول شعيب :

﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُم مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ هود ٨٤ .

ونهايات القصص كلها هلاك المكذبين وعقوبة المعتدين ، ووعيد لجميع المتكبرين عن الإيمان بالحق ، والانقياد للعقيدة الصحيحة ، قال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ هود ١٠٢ .

* * *

وتتضمن سورة هود إثبات الوحى ، وتنزيل القرآن من عند الله وتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم . وتقوية يقينه مع من آمن به من المؤمنين ، حتى لا يضيق صدرهم بالمكذبين والمستهزئين .

ثم يختم القصص فى سورة هود بقوله تعالى :

﴿ وكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَانُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَك فى هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هود ١٢٠ .

وهكذا نجد أن القصة فى القرآن الكريم تؤدى دورا متناسقا مع موضوع السورة وسياقها وتعرض بالطريقة وبالعبارة اللتين تحققان هذا التناسق الجميل الدقيق .

١ - العقيدة والإيمان بالله

يتضمن الدرس الأول من السورة : دعوة المشركين إلى توحيد الله واستغفاره والتوبة مما هم فيه ، ويبشرهم إن فاءوا إلى هذا بمتاع حسن وجزاء طيب ، وينذر المعرضين عن الدعوة بعذاب كبير ويقرر عقيدة الإيمان باليوم الآخر ، والرجعة إلى الله لتحقيق البشرى والإنذار ثم يعرض مشهدا لهم

وهم يحاولون التخفى عن مواجهة الرسول وهو يجبههم بالبيان ، يعقب عليه بعلم الله الشامل اللطيف الذى يتابعهم وهم أخفى ما يكونون عن العيون ، ويتصل بهذا المعنى علم الله بكل دابة فى الأرض حيث تكون . . كما يتصل به الحديث عن خلق السموات والأرض .

ثم يعرض صوراً من النفس البشرية القلقة المتعجلة فى السراء والضراء . ومع ذلك فهم يستعجلون العذاب إذا ما أخر عنهم إلى حين .

ثم ينتقل إلى التحدى بالقرآن الذى يقولون انه مفترى من دون الله . . وتهديد من لا يؤمنون بالآخرة ، ومن يفترون على الله الكذب ويعرض مشهدامن مشاهدالقيامة يتجلى فيه مصداق هذا الوعيد ومصداق البشرى للمؤمنين .

ومن المعالم البارزة فى هذا الدرس ما يأتى :

١ — تقرير عقيدة التوحيد وسوق الأدلة على قدرة الله الذى أبدع الكون على غير مثال سابق .

وقد تتساءل عن سر عناية القرآن بعقيدة التوحيد وتكرير الدعوة إليها فى كثير من آياته :

والجواب أنه ماكان الدين أن يقوم فى الأرض وأن يقيم نظاما للبشر قبل أن يقرر هذه الدعوة .

فالتوحيد هو مفترق الطريق بين الفوضى والنظام ، وبين الخرافة والإيمان وبين الهوى واليقين .

والاعتراف بوجود الله ضرورى فى الفطرة السليمة لأن الله خلق الإنسان بيده ، وأودعه نفخة مقدسة من روحه ، ولذلك تتجه الفطرة إلى الله خالقها وبارئها لتروى ظمأها إليه ، ولتلبي نداء الشوق الكامن إليه فى أعماقها .

٢ — عناية الآيات بأن تلفت نظر الإنسان إلى ما فى الكون من آيات القدرة ودلائل الإعجاز وعجائب الصنع ومواطن الاعتبار فهذا الكون الفسيح الشاسع الأرجاء وما فيه من قوى منظورة لنا وغير منظورة

وما يخضع له من نظام لا يحتمل الخلل ودقة لا تسمح بالعبث دليل على أن هذا الكون لم يوجد عن طريق صدفة عمياء بل إنه وجد لأن خالقا حكيما هو الذى أوجده .

٣ – إثبات علم الله بكل صغيرة وكبيرة فى هذا الكون وتقدير الرزق لكل فرد من أفراد هذا العالم الفسيح وتيسير الأسباب للسعى والحركة وعمارة الكون ومن الآيات المشهورة بين الناس قوله تعالى :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ هود ٦ .

وهى تصور علم الله الشامل المحيط بكل ما يدب على الأرض من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة وحشرة وطير . فما من دابة من هذه الدواب إلا وعند الله علمها ، وعلى الله رزقها ، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن ، ومن أين تجىء وأين تذهب ، وكل فرد من أفرادها مقيد فى هذا العلم الدقيق . إنها صورة متصلة للعلم الإلهى فى حالة تعلقه بالمخلوقات يرتجف لها كيان الإنسان حين يحاول تصورها بخياله الإنسانى فلا يطيق . فسبحان من أحاط بكل شىء علما .

٢ – إعجاز القرآن

يلمح القارىء لهذه السورة قوة أسلوبها وترابط أفكارها ، وتوالى حملاتها على الكفار حتى كأنها جيش كامل مشتمل على عديد من الكتائب والفصائل والجنود .

إنها دعت فى الدرس السابق إلى التوحيد ولفتت الأنظار إلى قدرة الله البالغة وعلمه المحيط بكل شىء .

وهى هنا تسوق دليلا آخر على صدق عقيدة التوحيد وصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا الدليل هو إعجاز هذا القرآن وروعته وقوته . ويتجلى هذا الإعجاز فيما يلى :

١ – إخباره عن الأمم الماضية التى لم يعاصرها محمد صلى الله عليه وسلم ولم يعرف تاريخها ولم يقرأ عنها .

٢ – اشتماله على أصول التشريع وسياسة الخلق وقواعد الحكم وآداب المعاملة ونظام العبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة .

٣ – إخباره عن أنباء لاحقة تأكد صدقها ، وتحقق وقوعها .

* * *

لقد ادعى كفار مكة أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد اختلق القرآن من عنده ولم يتزل عليه من السماء ، فتحداهم القرآن أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات . أى ليختلقوا كما اختلق محمد صلى الله عليه وسلم فهم عرب مثله ، وهم أرباب الفصاحة والبيان ، والقرآن مؤلف من حروف وكلمات وجمل يعرفونها ويؤلفون من مثلها كلامهم ، فالعجز عن الإتيان بمثل القرآن دليل على أنه ليس من صنع بشر وليس من افتراء محمد صلى الله عليه وسلم ولكنه كلام الله العليم الخبير .

وقد سمح لهم القرآن أن يستعينوا بمن شاءوا من الشركاء والفصحاء والبلغاء والشعراء والأنس والجن ، ليشاركوهم فى تأليف هذه السور ، قال تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ هود ١٣ .

وقد سبق أن تحداهم القرآن بسورة واحدة فى سورة يونس ، فلماذا تحداهم بعد ذلك بعشر سور .

قال المفسرون القدامى ، إن التحدى كان على الترتيب : بالقرآن كله ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة .

ولكن هذا الترتيب ليس عليه دليل ، بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدى فيها بسورة واحدة ، وسورة هود لاحقة والتحدى فيها بعشر سور .

وحقيقة أن ترتيب الآيات فى النزول ليس من الضرورى أن يتبع ترتيب السور فقد كانت الآية تنزل فتلحق بسورة سابقة أو لاحقه فى النزول ، إلا أن هذا يحتاج الى مايثبت هذا الترتيب، وليس فى أسباب النزول مايثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود . والترتيب التحكمى فى مثل هذا لايجوز .

وقد حاول صاحب تفسير المنار أن يجد لهذا العدد (عشر سور) علة فأجهد نفسه طويلا ليقول : (إن المقصود بالتحدى هنا هو القصص القرآنى، وأنه بالاستقراء يظهر أن السور التى كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشرا فتحداهم بعشر(1) سور) وهو احتمال وجيه .

ويرى بعض المفسرين المحدثين : أن التحدى كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول فيقول مرة : ائتوا بمثل هذا القرآن . أو ائتوا بسورة . أو بعشر سور . دون ترتيب زمنى ، لأن الغرض كان هو التحدى فى ذاته بالنسبة لأى شىء من هذا القرآن . كله أو بعضه أو سورة منه على السواء فالتحدى كان بنوع هذا القرآن لابمقداره . والعجز كان عن هذا النوع . لاعن المقدار . وعندئذ يستوى الكل والبعض والسورة . ولايلزم ترتيب ، إنما هو مقتضى الحالة التى يكون عليها المخاطبون ونوع مايقولون عن هذا القرآن فى هذه الحالة . فهو الذى يجعل من المناسب أن يقول سورة أو عشر سور أو هذا القرآن . ونحن اليوم لانملك تحديد الملابسات التى لم يذكرها لنا القرآن :

٣ ــ القصص فى سورة هود

القصص فى هذه السورة هو قوامها ، إذ عدد آياتها (١٢٣) مائة وثلاث وعشرون آية ، يشتمل قصص الأنبيـــاء منها على (٨٩) تسع وثمانين آية .

---

(1) تفسير المنار ج ١٢ ، ص ٣٢ ــ ٤٤ .

لكن القصص لم يجىء فيها مستقلا إنما جاء مصداقا للحقائق الكبرى التى جاءت السورة لتقريرها ، وهى التوحيد والبعث والجزاء .

وقد جال السياق جولات متعددة حول هذه الحقائق : جال فى ملكوت السموات والأرض ، وفى جنبات النفس ، وفى ساحة الحشر ، ثم أخذ يجول فى جنبات الأرض وأطوار التاريخ مع قصص الماضين.

والقصص هنا مفصل بعض الشىء ، لأنه يتضمن الجدل حول حقائق العقيدة التى وردت فى مطلع السورة . والتى يجىء كل رسول لتقريرها ، وكأنما المكذبون هم المكذبون وكأنما طبيعتهم واحدة ،وعقليتهم واحدة على مدار التاريخ . ويتبع القصص فى هذه السورة خط سير التاريخ ، فيبدأ بنوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ويلم بابراهيم فى الطريق إلى لوط ثم شعيب ثم اشارة إلى موسى ، ويشير إلى الخط التاريخى لأنه يذكر التالين بمصير السالفين .

وليس من قصدنا أن نذكر قصص هؤلاء الأنبياء الكرام ، فذلك مالا يتسع له المجال ،ولكن واجبنا نحو سورة هود يحتم علينا أن نذكر لمحات من سيرة هؤلاء الرسل .

قصة نوح

لقد ألمحت سورة يونس إلى قصة نوح فذكرت الحلقة الأخيرة منها ، وهى غرق الكافرين ونجاة المؤمنين .

ولكن سورة هود تعرضت لقصة نوح بتفصيل أكثر خلال أربع وعشرين آية من الآية ٢٥ إلى الآية ٤٩ .

تناولت دعوة نوح إلى الله ، وجداله مع قومه وصنعه السفينة وتعرضه لسخرية قومه . ثم فوران التنور ، واكتساح الطوفان وركوب السفينة تسير بأمر الله وقدرته :

﴿ بِاسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ هود ٤٢ .

ثم تهدأ العاصفة ، وتبلع الأرض ماءها وتمسك السماء عن المطر ، وتعود الحياة سيرتها فيناجى نوح ربه بعد غرق ولده قائلا :

﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ .

أى وقد وعدتنى بنجاة أهلى فيجيبه الله :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ هود ٤٦ .

والمعنى : إنه عمل عملا غير صالح ، فهو من صلب نوح وذريته إلا أنه منقطع الصلة به فى نسب الإيمان وصلة العمل الصالح . وهنا يتنبه نوح إلى حقيقة العدل الإلهى ويرى أن عقاب الله عام لكل الكافرين ، وأن نعيمه عام لجميع المؤمنين فليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا صلة ، فالخلق كلهم عباد الله يتفاضلون عنده بالتقوى ويدركون ثوابه بالعمل الصالح :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ الحجرات ١٣ .

ويكون التعقيب على قصة نوح معبرا عن أهداف القصص القرآنى مبشرا بالنجاة والنصر للمومنين منذرا بالهلاك والعذاب للكافرين . قال تعالى :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ هود ٤٩ .

فيحقق هذا التعقيب من أهداف القصص القرآنى فى هذه السورة ما يأتى :

١ – حقيقة الوحى التى ينكرها المشركون . فهذا القصص غيب من الغيب ما كان يعلمه النبى صلى الله عليه وسلم ، وما كان معلوما لقومه ، ولا متداولا فى محيطه إنما هو الوحى من لدن حكيم خبير .

٢ – وحقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح أبى البشر الثانى فهى هى والتعبير عنها يكاد يكون واحدا ، مشتملا على الدعوة إلى الإيمان بالله والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والبعد عن الرذائل والمنكرات .

٣ — وحقيقة السنن الجارية التى لاتتخلف ولا تحيد ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾

فهم الناجون وهم المستخلفون .

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾ الأنبياء ١٠٥ .

قصة هود

تناول الدرس السابق قصة نوح عليه السلام ونجاته ومن معه فى الفلك ثم هبوطه على الأرض ، مستحقا لبركات الله عليه وعلى المؤمنين من ذريته ، أما المكذبون من ذريته فلهم عذاب أليم ، وقد دارت عجلة الزمن ، ومضت خطوات التاريخ وإذا عاد من نسل نوح الذين تفرقوا فى البلاد ، ومن بعدهم ثمود ، ممن حقت عليهم كلمة الله .

﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هود ٤٨ .

فأما عاد فكانوا قبيلة تسكن الأحقاف « والحقف كثيب الرمل المائل » فى جنوب الجزيرة العربية . وأما ثمود فكانت قبيلة تسكن مدائن الحجر — بين تبوك والمدينة — وبلغت كل منهما فى زمانها أقصى القوة والمنعة والرزق والمتاع . ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا ممن حقت عليهم كلمة الله ، بما عتوا عن أمر الله واختاروا الوثنية على التوحيد وكذبوا الرسل شر تكذيب ، وفى قصتهم هنا مصداق ما فى مطلع السورة من بشارة للمؤمنين وإنذار للكافرين .

* * *

وقد ذكرت قصة هود فى سورة الأعراف من الآية ٦٥ — ٧٢ ، وفى سورة الشعراء من الآية ١٢٣ — ١٤٠ ، ثم ذكرت هنا سورة هود من الآية ٥٠ إلى الآية ٦٠ .

وقد نتساءل لماذا سميت هذه السورة بسورة هود مع أنها اشتملت على

عدد كبير من قصص الأنبياء منهم نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وموسى عليهم السلام ؛ والجواب أن قوم هود قد حباهم الله نعما وافرة وخيرات جليلة وأرسل السماء عليهم بالمطر فزرعوا الأرض وأنشأوا البساتين وشادوا القصور ومنحهم الله فوق ذلك بسطة فى أجسامهم وقوة فى أبدانهم . وكان الواجب عليهم أن يفكروا بعقولهم وأن يشكروا الله على هذه النعم ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل اتخذوا أصناما يعبدونها من دون الله ، ثم عثوا فى الأرض فسادا وظلما وعدوانا ، ولما جاءهم هود يدعوهم إلى الله ويأمرهم بتقواه وطاعتـه ويحذرهم من البغى والعدوان لم يصيخوا لدعوته ولم يؤمنوا برسالته .

وإذا كانت السورة تسمى بأغرب شيء فيها ، فإن الغرابة فى قصة هود هى أن قومه عاد كانوا أكثر فضلا ونعمة ولكنهم قابلوا هذه النعمة بالجحود والكنــود .

وتذكر الآيات معارضتهم لهود وإنكارهم عليه ، واعتقادهم أن آلهتهم أنزلوا به الجنون والاضطراب ، فيتبرأ هود من آلهتهم ويتحداهم ، ويستنهض همتهم فى أقصى ما يستطيعون من قوى الكيد ، وأنه سوف لا يعبأ بهم ولا بجمعهم ، قال هود :

﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ هود ٥٦ .

وهى صورة محسوسة للقوة الإلهية ، فالناصية أعلى الجبهة والله تعالى وحده صاحب القهر والغلبة والتصريف فى كل ناصية ، وهى صورة حسية تناسب الموقف وتناسب غلظة القوم وشدتهم ، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم حين استكبروا فى الأرض بغير الحق :

﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَهُم هُوَ أَشَدُّ مِنْهُم قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ فصلت ١٥ .

وتذكر الآيات هنا خاتمة أمر هود مع قومه على حسب سنة الله فى نصرة أوليائه وخزى أعدائه . قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ هود ٥٨ — ٦٠ .

• • •

وتستمر سورة هود فتعرض قصة صالح مع قومه ، ودعوته لهم إلى دين الله ، وتودده إليهم بقوله :

﴿ يَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ .

وكانت ناقة ضخمة تشرب من الماء فى يوم وتتركه فلا تذوقه فى اليوم الآخر . ولكنهم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم فنجى الله صالحا ومن معه من المؤمنين وأرسل صيحة عاتية أهلكت الكافرين فصاروا جثثا هامدة ، وأصبحت ديارهم خاوية خالية :

﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ هود ٦٨ .

نظرات فى سورة يوسف

سورة يوسف سورة مكية كلها وآياتها مائة وإحدى عشرة آية فقط وقيل أن الآيات الثلاث الأولى مدنيات وهو رأى ضعيف ، لأن السورة كلها قصة واحدة .

ومن العجائب أن يذكر هذا الاستثناء فى المصحف المطبوع فى مصر ويزاد عليه الآية السابعة ، قال السيوطى فى الإتقان وهو رأى واه جدا فلا يلتفت إليه.

* * *

وحين نستعرض سورة يوسف نجد أنها سورة فريدة فى نوعها من بين سور القرآن الكريم .

فهناك قصص متعدد مبثوث فى ثنايا سور القرآن لكن القرآن كان يكتفى أحيانا بذكر حلقة أو حلقات محدودة من القصة ، كحلقة قصة مولد عيسى ، أو حلقة قصة نوح والطوفان لأن هذه الحلقات تفى بالمقصود منها .

أما قصة يوسف فتقتضى أن تتلى كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها من بدئها إلى نهايتها وصدق الله العظيم :

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ يوسف ٣

* * *

وسورة يوسف هى قصة يوسف مطوعة فى سردها وطريقة أدائها وخصائصها الفنية كلها للقضية الكبرى التى جاء القرآن ليعالجها ويوضحها ، ويثبتها فى

القلوب ، وهى قضية العقيدة وما يقوم عليها فى حياة الناس من روابط ونظم وصلات تسبقها فى السورة مقدمة تشير إلى الوحى بهذا القرآن وبقصصه الذى هو أحسن القصص ، والذى لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم ، يعرف عنه شيئاً من قبل .

وتتلوها تعقيبات شتى ، تفيد أن القصص القرآنى غيب من عند الله يثبت به الرسول ، ويعظ به المؤمنين ، قال تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَاكَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يوسف ١١١

كذلك تضم السورة جناحيها على لفتات ولمسات أخرى فى صفحة الكون وفى أغوار النفس ، وفى آثار الماضين ، وفى ضمير الغيب المطوى لايدرى البشر ماهو مخبوء خلف ستاره الرهيب وكل هذه العظات المبثوثة فى حنايا السورة ، تتناسب مع القصة ، والقصة تتكامل معها ، لتحقيق القضية الكبرى التى جاء بها هذا القرآن للبشرية ، وجاءت بها رسالات الأنبياء فى العصور المتلاحقة .

* * *

وقد ساق القرآن دعوة صريحة إلى العقيدة السليمة والإيمان بالله على لسان يوسف حين مكث فى السجن يدعو إلى الله ويأخذ بيد الضعفاء ويواسى المحزونين ويفسر الأحلام ويشرح لهم سر معرفته وإيمانه فيقول :

﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَاكَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ، يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَاتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يوسف ٣٧ ـ ٤٠

وبذلك نجد السورة تربط بين رسالات السماء جميعها برباط أساسى وهدف مشترك هو الدعوة إلى توحيد الله ونبذ الشركاء والأنداد، وبيان أن الإيمان بالله هو الطريق الواضح والدين القيم الذى يسمو بصاحبه ويعصمه من الفتنة ويمنعه من الرذيلة ويجعله يقف ثابت اليقين ، يقاوم الإغراء ، ويرد المنحرف إلى طريق الصواب ، قال تعالى :

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يوسف ٢٣ .

قصة يوسف

قصة يوسف أطول قصة فى القرآن تجتمع حلقاتها كلها فى سورة واحدة وتلحظ فيها الخصائص الفنية البحتة للقصة ، خصائص الموضوع وخصائص العرض والأداء .

فالقصة غنية بالعنصر الإنسانى ، حافلة بالانفعال والحركة ، وطريقة الأداء تبرز هذه العناصر إبرازا قوياً ، فضلا عن خصائص التعبير القرآنية الموحية المؤثرة .

فى القصة يتجلى عنصر الحب الأبوى فى صور ودرجات منوعة واضحة الخطوط والمعالم ، فى حب يعقوب ليوسف وأخيه وحبه لبقية أبنائه ، وفى استجاباته للأحداث حول يوسف من أول القصة إلى آخرها .

وعنصر الغيرة والتحاسد بين الأخوة من أمهات مختلفات، بحسب مايرون من تنوع صور الحب الأبوى .

وعنصر التفاوت فى الاستجابات المختلفة للغيرة والحسد فى نفوس الأخوة فبعضهم يقوده هذا الشعور إلى إضمار جريمة القتل ، وبعضهم يشير فقط بطرح يوسف فى الجب تلتقطه بعض القوافل السيارة ، وفى قصة يوسف نجد عنصر المكر والخداع فى صور شتى من مكر أخوة يوسف به إلى مكر امرأة العزيز بيوسف وبزوجها وبالنسوة .

وعنصر الشهوة ونزواتها والاستجابة لها بالاندفاع أو بالإحجام، وبالإعجاب والتمنى والاعتصام والتأبى.

وعنصر الندم فى بعض ألوانه، والعفو فى أوانه، والفرح بتجمع المتفارقين.

وذلك إلى بعض صور المجتمع المتحضر فى البيت والسجن والسوق والديوان، فى مصر يومذاك، والمجتمع العبرانى، وما يسود العصر من الرؤى والتنبؤات.

وقد بدأت القصة بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه، فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم، وينصحه بألا يقصها على إخوته كى لا يثير حسدهم فيغريهم الشيطان به فيكيدون له.. ثم تسير القصة بعد ذلك، وكأنما هى تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا فى النهاية أنهى السياق القصة، ولم يسر فيها كما سار كتاب (العهد القديم) بعد هذا الختام الفنى الدقيق الوافى بالغرض كل الوفاء.

* * *

وما يسمى بالعقدة الفنية فى القصة الحديثة واضح فى قصة يوسف فهى تبدأ بالرؤيا، ويظل تأويلها مجهولا، ينكشف قليلا قليلا حتى تجىء الخاتمة فتحل العقدة حلا فنيا طبيعيا، يرضى الذوق الفنى الخالص، ويرضى الوجدان الدينى، ويفى بدوره للقضية الكبرى التى سيقت القصة لها من الأساس.

والقصة مقسمة إلى حلقات كل حلقة تحتوى على جملة من مشاهد. والسياق يترك فجوات بين المشهد والمشهد بحيث يترك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال، ويكمل فيها ما حذف من حركات وأقوال، ويستمتع بإقامة الصلات بين المشهد السابق والمشهد اللاحق، فيمنح القصة بعض خصائص التمثيلية. ويملؤها بالحركة والحيوية.

وهذه الطريقة متبعة فى جميع القصص القرآنى — على وجه التقريب — وهى شديدة الوضوح فى القصص الكبيرة، وخاصة قصة يوسف الصديق.

* * *

يوسف بين اخوته وابيه

أكرم الله نبيه يوسف بأصل كريم فهو يوسف بن يعقوب بن اسحاق ابن إبراهيم وقد رزق يعقوب إثنى عشر ابنا هم الأسباط ، كان يوسف وبنيامين من أم تسمى راحيل ، وبقية الأسباط من أمهات أخرى .

وقد ماتت راحيل أم يوسف وتركته فى الثامنة عشرة من عمره أشد مايكون حاجة إلى قلب الأم وعطفها ، ولهذا آثر يعقوب يوسف وبنيامين بالحب والحنان ، فسرى داء الحسد بين بقية الأخوة وقال قائل منهم : ألا ترون أن يوسف وأخاه أحب إلى أبينا منا وأقرب إليه منا جميعا .

وقال الثانى : إن حب يوسف قد تمكن من قلب يعقوب ولاشفاء ليعقوب من هذا المرض إلا بابعاد يوسف عنه ، فيجب أن نقتل يوسف أو نتركه فى أرض نائية مقطوعة حتى يموت .

وقال يهوذا : إن القتل لا يقره العقل ولا الدين فلا تقتلوا يوسف وإنما ألقوه فى البئر العميق بجوار بيت المقدس فهذا البئر ملتقى الغادى والرائح وسيأخذه بعض القوافل ويبعدون به عنكم ، فوافقوا جميعا على رأى يهوذا، وبيتوا أمرهم عليه .

رؤيا يوسف

أصبح يوسف فأخبر أباه أنه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدين له فعلم الأب أن ابنه سيكون له شأن عظيم وأن أسرته ستأتى له خاضعة معترفة بفضله فيسجد بين يديه يعقوب أبوه ، وخالته ليا وهى بمنزلة أمه ، وأخوته الأحد عشر ، ولكن يعقوب خشى على يوسف من حسد إخوته فأمره أن يكتم هذه الرؤيا وألا يخبر بها أحدا ، ولأمر ما تسرب خبر هذه الرؤيا إلى الأخوة فأشعل نار الغيرة بينهم وأستأذنوا أباهم فى مصاحبة يوسف يوما إلى المرعى حيث الهواء الطلق والمنظر الجميل فأذن لهم بعد تردد ، وأخذوا يوسف وألقوه فى ظلام البئر بعد أن استغاث بهم فلم يغيثوه ، وألقى الله على يوسف السكينة ، فاطمأن لمصيره ، وجاءت قافلة تريد المـاء وألقت بدلوهـا

إلى البئر فتعلق يوسف بالدلو و فرحت القافلة بمنظر الغلام الجميل ، وقدموا به إلى أرض مصر فباعوه إلى عزيز مصر ووزيرها الأكبر بثمن بخس زهيد ، ولمح العزيز فى يوسف كرم الأصل و شرف العنصر وجمال الخلق و طيب المنبت ، فقال العزيز لامرأته أكرمى مثوى هذا الغلام وأحسنى معاملته ، وحاشاك أن تزجريه زجر الخدم أو تضربيه ضرب العبيد ، فإنى لأرجو إذا اكتمل عوده ونضجت سنه أن ينفعنا أو نتخذه ولدا .

و انصرف يوسف إلى العمل ببيت العزيز فى جد و أمان فمكن الله له فى الأرض وأودع محبته فى قلوب الجميع فلما وصل إلى سن الرشد والقوة ، وهو يقع عادة بين العشرين والثلاثين آتاه الله حكما وعلما ، وصوابا فى الحكم على الأمور ، ومعرفة بمصائر الأحاديث وتأويل الرؤيا .

و هكذا أراد إخوة يوسف به أمرا و أراد الله له أمراً ، ولكن أمر الله غالب ، ومشيئته نافذة فقد زادت ثقة العزيز فى يوسف وظهر له مكنون حزمه و عقله ، و أمانته ونزاهته ، فأدخله فيما بين نفسه وأهله ، وبوأه مكان الاشراف الأحرار ووضعه من قلبه موضع الأبناء الأبرار .

يوسف وامرأة العزيز

نما يوسف و ترعرع وبلغت سنه خمسا وعشرين سنة و صار أمينا فى بيت العزيز وكانت امرأة العزيز فى سن الأربعين ، ولها سلطان الملك وقدرة الأمر والنهى ، وسيطرة النفوذ و الجاه ، ولكن سلطان الحب قد ملك قلبها وسيطر على فؤادها .

وحاولت إغراء يوسف مستغلة كل فنون الإغراء ، قال تعالى :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هيْتَ لَكَ ﴾ يوسف ٢٣ .

فكلمة (راودته) من راد يرود بالإبل إذا ذهب بها وجاء وهى تشير إلى فنون الأنثى مقبلة إلى فن مدبرة عن فن من فنون الإغراء الصامتة التى تحاول أن تثير يوسف ، فلما يئست من الصمت (غلقت الأبواب) بتشديد

اللام ، كأنها أرادت أن تجعل الأبواب حيطانا ، ثم عرضت نفسها على يوسف (وقالت هيت لك) : قد تهيأت لك راغبة فيك وهنا وقد خلعت المرأة ثياب الملك والعظمة والسيادة ولبست ثوب الإغراء والتوله والرغبة ، وقف يوسف فى عزة وإباء وإيمان يقول :

﴿ مَعَاذَ اللهِ ، إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

يوسف ٢٣ .

فالمرأة فى كل العصور أكثر عاطفة من الرجل وأكثر تدينا وإيمانا ، وأكثر مراعاة لحرمة الزوجية ، وأكثر نفورا من الظلم .

ولهذا عمد يوسف إلى عاطفة الايمان بالله فقال : ﴿ معاذ الله ﴾ أستعيذ بالله من الفحشاء والمنكر ، إن زوجك أكرمنى وجعلنى أمينا على بيته وعرضه فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان :

﴿ إنهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ .

وهناك عين الله التى ترى وتعلم السر وأخفى ، وهذا ظلم وعدوان وإنه ﴿ لايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

ولكن المرأة كانت قد صمت أذنيها عن سماع كل موعظة وأغضت عينيها عن رؤية الحق ، ولم يبق فى ذهنها إلا فكرة واحدة فى مكان . . فى رجل .. فهمت به صائلة عليه لتنتقم لنفسها وكرامتها ، أو لترغمه على طاعتها ، وهم بها ليضربها أو يقتلها دفاعا عن الفضيلة والشرف ، ولكن الله ألهمه أن الفرار خير من القتال ، والمسالمة خير من المواثبة ، وفتحت الأبواب أمامه فأسرع هاربا منها ولكنها عدت وراءه ، طمعا فى تنفيذ رغبتها ، أو خوفا من افتضاح أمرها

﴿ واسْتَبَقَا البَابَ ، وَقَدَّت قَمِيصهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ يوسف ٢٥ .

نتيجة جذبها له لترده عن الباب ، وعند الباب وقعت مفاجأة ، فقد كان العزيز يمر فى تلك اللحظة فرأى يوسف واقفا وقميصه ممزقا ، وكان

موقفا يبعث على الريبة ويثير الاتهام فاتهمت المرأة يوسف بأنه راودها عن نفسها وهجم عليها في مخدعها ولابد من سجنه أو إذاقته مر العذاب .

ولم يجد يوسف بداً من الاعتراف بالواقع ، فقال هي التي راودتني عن نفسي وجذبتني من ثوبي ، وهذا قميصي شاهد على صدقي ، وأمام تضارب الأقوال ، استدعى الملك ابن عمها وكبير أسرتها ، وكان فطنا لبيبا ، فسمع القضية من أطرافها ، وفطن لما وراء قصتها فقال : إن كان قميصه قد من الأمام فذلك إذن من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها فهي صادقة وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من الخلف فهو إذن من أثر هروبه منها ومطاردتها له حتى الباب فهي كاذبة وهو من الصادقين .

فلما رأى الملك بعينه أن القميص قد مزق من الخلف ، وضح الحق وظهرت براءة يوسف أمامه ، والتفت العزيز إلى امرأته وقال : إن هذا من كيد النساء ومكرهن فاستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ، وأنت يا يوسف أمسك لسانك عن الخوض في هذا الحديث ، واكتم أمره عن الناس أجمعين .

يوسف عزيز مصر

تعرض يوسف لحلقات متتابعة من الإغراء والوعد والوعيد ، وتوالت عليه حملات زليخا ، ونساء من وجوه المدينة ، فدعا يوسف ربه أن ينجيه من كيدهن ومكرهن ، وقال :

﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ يوسف ٣٣ .

ورأى العزيز أن يضحي بهذا البريء النزيه حتى تسكت الألسنة وتخف عن زوجته التهمة ، فأدخل يوسف السجن .

وكان يوسف في السجن مثالا كريما في الدعوة إلى الايمان وتفسير الأحلام وإرشاد الناس إلى الحق ، ثم رأى الملك في منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف ، وفسر يوسف هذه الرؤيا بأن البلد

مقبلة على سبع سنين مخصبة يجود فيها النيل بالماء ، ثم تأتى بعدها سبع سنين مجدبة يجف فيها ماء النيل ، ويعقب ذلك عام طيب مثمر ، فأمر الملك بالعفو عن يوسف ، ولكنه أبى أن يخرج من السجن إلا بعد التثبت من براءته ونزاهته ، فاعترفت النسوة بنزاهته وقلن :

﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امرأَةُ العَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ . يوسف ٥١ .

فخرج يوسف من السجن بريئا نزيها ، ثم نال إعجاب الملك والحظوة عنده .

وعلم يوسف أن مصر قادمة على مجاعة ، فالنيل سيجود بالماء سبع سنين ثم يمتنع عن الفيضان سبع سنين أخرى ؛ ورأى يوسف ثقة الملك فيه وإعجابه بنزاهته وأمانته فقال يوسف :

﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ يوسف ٥٥ .

واستطاع يوسف بحكمته أن ينجى مصر من المجاعة وأن يدخر القمح فى سنابله والذرة فى كيزانها وأن يدبر التموين والأموال وأن يحفظ لمصر مكانتها وفضلها فاستطاعت أن تساعد نفسها وأن تمد يد العون لما حولها من البلاد .

ووصل خبر يوسف إلى البلاد المجاورة ، وإلى أرض كنعان حيث يقيم نبى الله يعقوب وأبناؤه الأسباط .

فقال يعقوب لبنيه يابنى إن الجدب عمنا والقحط يكاد يأتى علينا فاقصدوا هذا العزيز وأحضروا من عنده القمح والطعام واتركوا عندى أخاكم بنيامين أتعزى ببقائه عن فراقكم ، فرحل أبناء يعقوب إلى مصر قاصدين مقابلة العزيز .

واستأذن الحاجب على يوسف ، فقال إن بالباب عشرة رجال تتشابه وجوههم وكأنهم غرباء عن هذه الديار يستأذنون فى الدخول عليك فأذن يوسف لاخوته وعرفهم ولكنهم لم يعرفوه ، فقد تركوه فى الجب

خليلا فريدا ، فأين منه هذا الأمير العزيز الذى يأمر فيطاع ويقول فيمتثل الجميع أمره . وأكرم يوسف وفادتهم ، وترك نقودهم داخل التموين الذى أمدهم به ، وطلب منهم أن يحضروا أخاهم بنيامين معهم فى المرة الثانية ، ولما حضر بنيامين مع إخوته استطاع يوسف أن يستبقيه معه بحيلة دبرها ، ثم ذهب الإخوة إلى أبيهم ، فاشتد حزنه لفراق يوسف وبعد بنيامين وجلس حزينا فى محرابه يبكى أشد البكاء ويقول ﴿ يا أسفى على يوسف ﴾ يوسف ٨٤ .

ثم قال الأب لأبنائه إنى أحس فى قرارة نفسى بوجود يوسف على قيد الحياة فاذهبوا إلى مصر وتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من فضل الله ورحمته ، ودخل الإخوة على يوسف وقد اشتد بهم الضر والحاجة ، فطلبوا من يوسف أن يرفق بهم وأن يتصدق عليهم ، وهنا فاض قلب يوسف حنانا وعطفا على إخوته ، وسألهم عما فعلوه بيوسف فى زمان جهلهم ، فقالوا إنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخى بنيامين :

﴿قد مَنَّ اللهُ علَيْنَا إنَّهُ من يَتَّقِ ويَصْبر فَإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ المُحْسِنينَ﴾ يوسف ٩٠ .

لقد اتقى يوسف ربه وصبر عن الفحشاء وتحمل السجن فى طاعة الله فلم يضع أجره وجعله الله على خزائن الأرض عزيزا كريما فالله يتولى الصالحين .

وصفح يوسف عن إخوته وقال لهم .

﴿ اذهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يوسف ٩٣ .

وعاد الأخوة إلى أبيهم فأحس برائحة القميص من مسافة بعيدة ، ولما وضع القميص على وجهه عاد بصيرا ، ورحل يعقوب مع أسرته قادمين إلى مصر ودخلوا على يوسف وخروا له جميعا ساجدين ، الأب والأم والأخوة ، فقال يوسف .

﴿ياأبتِ هَذا تأوِيل رُؤْيَاى من قَبْلُ قَدْ جَعَلَها ربى حَقًا﴾ يوسف ١٠٠

وشكر يوسف ربه إذ أخرجه من السجن ، وجاء بإخوته من البادية ، وجمع شمل الأسرة ، ثم مكن الله ليوسف فى الأرض ، وآتاه الملك والحكمة ، ليكون فى قصته دليلا للعاملين ونبراسا للمخلصين ، وكأن الله يمهد الأسباب والمقدمات بلطفه وحكمته لتكون العاقبة للمتقين ، ومد يوسف يده لله طالبا منه حسن الخاتمة والسير فى موكب الصالحين فقال :

- ﴿ ربِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ المُلْكِ وَعلَّمْتَنِى من تَأْوِيلِ الأَحَادِيث فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ أَنْتَ وَلِيِّى فى الدُّنيا وَالآخِرةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بالصَّالِحِينَ ﴾ يوسف ١٠١ .

* * *

نظرات فى سورة الرعد

سورة الرعد من السور التى اختلف فى مكيتها ومدنيتها . فقال قوم إنها مكية لأنها شبيهة بالسور المكية فى قصتها وموضوعاتها . وقال آخرون إنها مدنية . ولكن موضوعاتها تشبه السور المكية . وفى المصحف المطبوع بالقاهرة سورة الرعد مدنية وآياتها ٤٣ نزلت بعد سورة محمد .

وفى تفسير مقاتل بن سليمان . سورة الرعد مكية ويقال مدنية . وتسمى سورة الرعد لقوله سبحانه فيها :

﴿ ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالمِلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ الرعد ١٣ .

وسورة الرعد من أعاجيب السور القرآنية التى تستولى على النفس وتثير الوجدان وتزحم الحس بالصور والمشاهد . ثم تأخذ النفس من أقطارها جميعا فإذا هى فى مهرجان من الصور والمشاعر . وتسلك السورة سبيلها إلى القلب وترتاد به آفاقا وآكوانا وعوالم وأزمانا وهو مستيقظ مبصر مدرك شاعر بما يمرج حوله من المشاهد والصور .

إنها ليست ألفاظا وعبارات ولكنها صور حية تستولى على الفؤاد وتلمس الوجدان وتوحى بالإيمان .

موضوع السورة

إن موضوع سورة الرعد الرئيسى هو العقيدة . وقضاياها هى التوحيد والبعث وهذا الموضوع تكرر عرضه فى سور سابقة ولاحقة .

ولكنه يعرض فى كل مرة بطريقة جديدة . وفى ضوء جديد . ويتناول عرضه مؤثرات وموحيات ذات إيقاع جديد وإيحاء جديد .

تطوف سورة الرعد بالقلب البشرى فى مجالات وآفاق وآماد وأعماق ، وتعرض عليه الكون كله فى شتى مجالاته الأخاذة : فى السموات المرفوعة بغير عمد وفى الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . وفى الليل يغشاه النهار . وفى الأرض الممدودة وما فيها من رواس ثابتة وأنهار جارية . وجنات وزرع ونخيل مختلف الأشكال والطعوم والألوان . ينبت فى قطع من الأرض متجاورات ويسقى بماء واحد . وفى البرق يخيف ويطمع ، والرعد يسبح ويحمد .والملائكة تخاف وتخشع . والصواعق يصيب بها من يشاء والسحاب الثقال ، والمطر فى الوديان ؛ والزبد الذى يذهب جفاء . ليبقى فى الأرض ما ينفع الناس .

وهى تلاحق ذلك القلب أينما توجه : تلاحقه بعلم الله النافذ الكاشف الشامل . يلم بالشارد والوارد والمستخفى والسارب . ويتعقب كل حى ويحصى عليه الخواطر والخوالج . والغيب المكنون الذى لا تدركه الظنون مكشوف لعلم الله وما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار .

إنها تقرب لمدارك البشر شيئا من حقيقة القوة الكبرى ، المحيطة بالكون ظاهره وخافيه . جليله ودقيقه . حاضره وغيبه . وهذا القدر الذى يمكن لمدارك البشر تصوره هائل مخيف ، ترجف له القلوب .

وذلك إلى الأمثال المصورة تتمثل فى مشاهد حية حافلة بالحركة والإنفعال إلى مشاهد القيامة ، وصور النعيم والعذاب وخلجات الأنفس فى هذا وذاك ، إلى وقفات على مصارع الغابرين وتأملات فى سير الراحلين ، وفى سنة الله التى مضت عليهم فإذا هم داثرون .

مشاهد الكون فى سورة الرعد

تبدأ سورة الرعد بقضية عامة من قضايا العقيدة : قضية الوحى بهذا الكتاب والحق الذى اشتمل عليه فيقول سبحانه :

﴿ الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنونَ ﴾ الرعد ١ .

وهذا الافتتاح يلخص موضوع السورة كله ويشير إلى جملة قضاياها . وتسترسل السورة فى استعراض آيات القدرة وعجائب الكون الدالة على قدرة الله الخالق وحكمته وتدبيره الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك وحى لتبصير الناس ، وأن يكون هناك بعث لحساب الناس وأن من مقتضيات تلك القدرة أن تكون مستطيعة بعث الناس ورجعهم إلى الخالق الذى بدأهم وبدأ الكون كله قبلهم وسخره لهم ليبلوهم فيما آتاهم .

وتبدأ الآيات الرائعة فى رسم المشاهد الكونية الضخمة نظرة إلى السموات ونظرة إلى الأرضين ونظرة إلى مشاهد الأرض وكوامن الحياة .

قال تعالى :

﴿ اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الرعد ٢، ٣ .

وهذه اللفتة الأولى إلى مظاهر القدرة الإلهية تحرك الوجدان ، فيقف أمام هذا المشهد الهائل يتملاه ، ويدرك أنه ما من أحد يقدر على رفع السماء بلا عمد — أو حتى بعمد — إلا الله ، وقصارى ما يرفعه الناس بعمد

أو بغير عمد ، تلك البنايات الصغيرة الهزيلة ، القابعة فى ركن ضيق من الأرض لا تتعداه ، ثم يتحدث الناس عما فى تلك البنايات من عظمة ومن قدرة واتقان ، غافلين عما يشملهم ويعلوهم من سماوات مرفوعة بغير عمد وعما وراءها من القدره الحقة . والعظمة الحقة ، والاتقان الذى لا يتطاول إليه خيال إنسان .

ومن هذا المنظور الهائل الذى يشاهده الناس فى خلق الله ، الى المغيب الهائل الذى تتقاصر دونه المدارك والأبصار :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ﴾

أى استولى على مالك جميع الموجودات وأحاطت قدرته بجميع الكائنات .

ومع الاستعلاء والتسخير ، الحكمة والتدبير ،

﴿ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

وإلى حدود مرسومة وفق ناموس مقدر

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾

ويمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة فى الفضاء فتجرى لأجل لا تتعداه ه

ومن قدرة الله أنه مد الأرض وبسطها أمام البصر ،وأمدها بمقومات الحياة

﴿ ومِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾

ليكمل ، ابداع الخلق وتناسقه ، ثم تابع الله بين الليل والنهار فى انتظام عجيب ، ونظام دقيق يبعث على التأمل فى ناموس هذا الكون والتفكير فى القدرة المبدعة التى تدبره وترعاه :

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

نحن فى سورة الرعد أمام عدد من أدلة الألوهية تتوارد وراء بعضها فى سياق بديع ، وعرض شائق .

فهناك الأرض التى تزرع بألوان مختلفة من النبات فيها .

﴿ جنَاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ ونَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ .

منه ما هوعود واحد ومنه ما هو عودان أو أكثر فى أصل واحد وكله :

﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ .

والتربة واحدة ولكن الثمار مختلفات الطعوم :

﴿ وَنفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فى الأُكُلِ ﴾ .

فمن غير الخالق المدبر يفعل ذلك ؟

إن القرآن بمثل هذه اللفتة يبقى جديدا أبدا لأنه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد فى الكون والنفس وهى لا تنفد ولا يستقصيها إنسان فى عمره المحدود ، ولا تستقصيها البشرية فى أجلها الموعود

﴿ إنَّ فى ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . الرعد ٤

ومن أدلة الألوهية : إحاطة علم الله بالجنين فى بطن أمه ، وبالسر المكنون فى الصدور ، وبالحركة الخفية فى جنح الليل ، وبكل مختف بالليل وظاهر بالنهار ، وهو سبحانه محيط بكل من تكلم همسا أو تكلم جهرا فإن كل شىء مكشوف تحت المجهر الكاشف يتبعه شعاع من علم الله وتتعقبه حفظة تحصى الخواطر والنوايا .

إلا إنها الرهبة الخاشعة التى لا تملك النفس معها إلا أن تلجأ إلى الله ، تطمئن فى حماه ، وهى تتصور علم الله المحيط بكل شىء .

* * *

ونلحظ أن بعض الآيات فى سورة الرعد تلمس آفاق الكون الهائل مثل الآيات الأربع الأولى من السورة .

وبعض الآيات تلمس أغوار النفس ومجاهل السرائر مثل الآيات من ٨ إلى ١٠ حيث يقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَاتَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَاتَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ .

* * *

ثم يأخذ السياق فى جولة جديدة فى واد آخر تجتمع فيه مناظر الطبيعة ومشاعر النفس متداخلة متناسقة . حيث يقول سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ الرعد ١١ ، ١٢ .

والبرق والرعد والسحاب مشاهد معروفة وكذلك الصواعق التى تصاحبها فى بعض الأحيان ، وهى بذاتها مشاهد ذات أثر فى النفس حتى اليوم وعند الذين يعرفون الكثير عن طبيعتها والسورة تذكر هذه الظواهر متتابعة وتضيف إليها الملائكة والتسبيح والسجود والخوف والطمع لتصوير سلطان الله المتفرد بالقهر والنفع والضر .

وقد سميت السورة بسورة الرعد ، لقوله سبحانه :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾

والرعد هو ذلك الصوت المقرقع المدوى ، وهو أثر من آثار الناموس الكونى الذى صنعه الله — أيا كانت طبيعته وأسبابه — فهو رجع صنع الله فى هذا الكون ، وهو يحمد ويسبح بلسان الحال ، للقدرة التى صاغت هذا النظام ،

كما أن كل مصنوع جميل متقن ، يسبح ويعلن عن حمد الصانع والثناء عليه ، بما يحمله من جمال وإتقان .

وقد اختار التعبير أن يجعل صوت الرعد تسبيحا بالحمد ، اتباعا لمنهج التصوير القرآني فى مثل هذا السياق ، وخلع سمات الحياة وحركاتها على مشاهد الكون الصامتة لتشارك فى المشهد بحركة من جنس حركة المشهد كله ، وقد انضم الى تسبيح الرعد بحمد الله ، تسبيح الملائكة من خوفه ومن تعظيمه ، وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَالمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم ﴾ الشورى ٥ .

وفى الحديث النبوى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أطَّت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك راكع أو ساجد يسبح الله تعالى » .

ثم يعبرِّ السياق عن خضوع جميع الكائنات لمشيئة الله بالسجود ، وهو أقصى رمز للعبودية ، فتسجد الكائنات ويسجد ظلها معها عند انكسار الأشعة ، وامتداد الظلال ، فإن الكون كله بما فيه من شخوص وظلال جاثية خاضعة عن طريق الإيمان أو غير الإيمان سواء ، كلها تسجد لله .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فى السَّمَوَاتِ والأَرضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ، وَظِلَالُهُم بِالغُدُوِّ والآصَالِ ﴾ الرعد ٥ .

النصف الثانى من سورة الرعد

فى النصف الأول من سورة الرعد حدثتنا السورة عن المشاهد الهائلة فى آفاق الكون وفى أعماق الغيب وفى أغوار النفس .

وفى النصف الثانى من السورة تسترسل الآيات فى لمسات وجدانية وعقلية وتصويرية دقيقة رقيقة ، حول قضية الوحى والرسالة ، وقضية التوحيد والشركاء ، ومسألة طلب الآيات واستعجال تأويل الوعيد . وهى جولة جديدة حول تلك القضايا فى السورة .

وتبدأ هذه الجولة بلمسة فى طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر ، فالأول علم والثانى عمى :

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ الرعد ٩

وتبين الآيات طبيعة المؤمنين وطبيعة الكافرين ، والصفات المميزة لهؤلاء وهؤلاء ، ثم يتلوها مشهد من مشاهد القيامة ، وما فيها من نعيم للأولين ومن عذاب للآخرين . ويعقب ذلك لمسة فى بسط الرزق وتقديره ، وردها إلى الله ، فجولة مع القلوب المؤمنة المطمئنة بذكر الله ، فوصف لهذا القرآن الذى يكاد يسير الجبال ، وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى . فلمسة بما يصيب الكفار من قوارع تنزل بهم ، أوتحل قريبا من دارهم ، فجدل تهكمى حول الآلهة المدعاة ، فلمسة عن مصارع الغابرين ، ونقص أطراف الأرض منهم حينا بعد حين ، يختم هذا كله بتهديد الذين يكذبون برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم بتركهم للمصير المعلوم .

من ذلك نرى أن الإيقاعات والمطارق المتوالية فى شطر السورة الأول، تحضّر المشاعر وتهيئها لمواجهة القضايا و المسائل فى شطرها الثانى وهى على استعداد وتفتح لتلقيها ، وأن شطرى السورة متكاملان ، وكل منهما يوقع على الحس طرقاته وإيحاءاته لهدف واحد وقضية واحدة ، هى الإيمان عن يقين كامل وأدلة مقنعة يطمئن لها القلب وتسكن إليها النفس . قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ الرعد ٢٨.

فقلب الكافر فى ضلال، وقلب الجاحد مضطرب هواء، وقلب المؤمن يطمئن لصلته بالله ، والأنس بجواره ، والأمن فى جانبه وحماه ، يطمئن من قلق الوحدة وحيرة الطريق بإدراك الحكمة فى الخلق والمبدأ والمصير ويطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضر ومن كل شر إلا بما يشاء الله، مع الرضا بالابتلاء و الصبر على البلاء ويطمئن برحمة الله فى الهداية و الرزق والستر فى الدنيا والآخرة .

وليس أشقى على وجه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله . ليس أشقى ممن يعيش لايدرى لم جاء ؟ ولم يذهب؟ولم يعانى فى الحياة ؟ . ليس أشقى فى الحياة ممن يشق طريقه فريدا وحيدا شاردا فى فلاة عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين .

وإن هناك شدائد فى الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنا إلى الله مطمئنا إلى حماه ، مهما أوتى من القوة والثبات والصلابة والاعتداد . فى الحياة لحظات تعصف بهذا كله فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله :

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ ﴾ .

التناسق الفنى فى سورة الرعد

مما نلحظه فى سورة الرعد عنايتها بالمقابلة بين الإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، والاطمئنان والحيرة ، وحين تعرضت السورة لرسم مشاهد الكون عنيت بإبراز المشاهد المتقابلة من سماء وأرض، وشمس وقمر ، وليل ونهار ، وشخوص وظلال ، وجبال راسية وأنهار جارية وزبد ذاهب وماء باق وقطع من الأرض متجاورات مختلفات . ونخيل صنوان وغير صنوان ، ومن ثم تطرد هذه التقابلات فى كل المعانى وكل الحركات وكل المصائر فى السورة ، لتناسق التقابل المعنوى فى السورة مع التقابلات الحسية ، وتتسق فى الجو العام .

ومن ثم يتقابل الاستعلاء فى الاستواء على العرش مع تسخير الشمس والقمر ، ويتقابل ماتغيض الأرحام مع ما تزداد، ويتقابل من أسر القول مع من جهر به ومن هو مستخف بالليل مع من هو سارب بالنهار ، ويتقابل الخوف مع الطمع تجاه البرق ، ويتقابل تسبيح الرعد حمدا مع تسبيح الملائكة خوفا ، وتتقابل دعوة الحق لله مع دعوة الباطل للشركاء ، ويتقابل من يعلم مع من هو أعمى ، ويتقابل الذين يفرحون من أهل الكتاب بالقرآن مع من ينكر بعضه ، ويتقابل المحو مع الإثبات فى الكتاب . . وبالاجمال تتقابل المعانى وتتقابل الحركات وتتقابل الاتجاهات ، تنسيقا للجو العام فى الأداء ، وهذا التناسق الفنى . من بدائع

الإعجاز فى القرآن الكريم . هذا القرآن العجيب الذى لو كان من شأن قرآن أن تسير به الجبال أو تقطع به الأرض أو يكلم به الموتى ، لكان فى هذا القرآن من الخصائص و المؤثرات ماتتم معه هذه الخوارق والمعجزات ، ولكنه جاء لخطاب المكلفين الأحياء فإذا لم يستجيبوا له فقد آن أن ييأس منهم المؤمنون وأن يدعوهم ويتركوهم حتى يأتى وعد الله للمكذبين قال تعالى :

﴿ولَوْ أَنَّ قرآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ ، أَوْ قُطِّعتْ بهِ الأَرْضُ ،أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى بَلْ لِلّهِ الأَمْرُ جميعًا ، أَفَلَمْ ييْأَسِ الَّذِينَ آمنوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ولا يزَالُ الَّذِينَ كَفَروا تُصِيبُهمَ بِمَا صنَعُوا قَارِعَةٌ أَوتَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِم حَتَّى يَأْتِى وعْدُ الله . إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ المِيعَادَ﴾ الرعد ٣١ .

ولقد صنع هذا القرآن فى النفوس التى تلقته وتكيفت به أكثر من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى ، لقد صنع فى هذه النفوس ، وبهذه النفوس خوارق أضخم وأبعد آثارا فى أقدار الحياة بل أبعد أثرا فى شكل الأرض ذاته ، فكم غير الإسلام والمسلمون من وجه الأرض إلى جانب ما غيروا من وجه التاريخ ؟

وإن طبيعة هذا القرآن ذاتها ، طبيعته فى دعوته وفى تعبيره ، طبيعته فى موضوعه وفى أدائه . طبيعته فى حقيقته وفى تأثيره . إن طبيعة هذا القرآن لتحتوى على قوة خارقة نافذة يحسها كل من له ذوق وبصر وادراك للكلام ، واستعداد لإدراك ما يوجه إليه ويوحى به ، والذين تلقوه وتكيفوا به سيروا ماهو أضخم من الجبال وهو تاريخ الأمم والأجيال .وقطّعوا ماهو أصلب من الأرض وهو جمود الأفكار وجمود التقاليد . وأحيوا ما هو أخمد من الموتى . وهو الشعوب التى قتل روحها الطغيان والأوهام والتحول الذى تم فى نفوس العرب وحياتهم أضخم بكثير من تحول الجبال عن رسوخها ، وتحول الأرض عن جمودها وتحول الموتى عن الموات :

﴿ بَلِ للهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ .

وهو الذى يختار نوع الحركة وأداتها فى كل حال . فإذا كان قوم بعد

هذا القرآن لم تتحرك قلوبهم فما كان اجدر المؤمنين الذين يحاولون تحريكها أن ييأسوا من القوم وأن يدعوا الأمر لله فلو شاء لخلق الناس باستعداد واحد للهدى وهدى الناس جميعا على نحو خلقه الملائكة لوكان يريد .

لقد شاء الله أن يوجد الإنسان على وجه الأرض ومعه العقل والإرادة والاختيار والكسب حتى يتميز المؤمن من الكافر والمستقيم من العاصي وبذلك يتحقق الحكمة الإلهية في تنوع الخلق واختلاف مشاربهم :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ هود ١١٨ ، ١١٩ .

* * *

نظرات فى سورة إبراهيم

سورة إبراهيم سورة مكية . موضوعها الأساسى هو موضوع السور المكية الغالب وهو العقيدة فى أصولها الكبيرة . وتشمل الرسالة والتوحيد والبعث والحساب و الجزاء .

ولكن السياق فى هذه السورة يسلك نهجا خاصا فى عرض هذا الموضوع وحقائقه الأصلية . نهجا مفردا يميزها عن غيرها من السور، يميزها بجوها، وطريقة أدائها ، والحقائق الكبرى التى تتضمنها ، ولون هذه الحقائق التى قد لا تفترق موضوعياً عن مثيلاتها فى السور الأخرى ولكنها تعرض من زاوية خاصة ، كما تختلف مساحتها فى رقعة السورة وجوها ، فتزيد أطرافا وتنقص أطرافاً . فيحسبها القارىء جديدة بما وقع فيها من تجديد ، وذلك من الاعجاز القرآنى فى طريقة الأداء .

ويبدو أنه كان لأسلوب السورة من اسمها نصيب . . إبراهيم أبو الأنبياء .. المبارك . الشاكر . . الأواب المنيب . وكل الظلال التى تخلعها هذه الصفات ملحوظة فى جو السوره وفى الحقائق التى تبرزها ، وفى طريقة الأداء . وفى التعبير والايقاع .

ولقد تضمنت السورة عدة حقائق رئيسية فى العقيدة ، ولكن حقيقتين كبيرتين تظهران أكبر من غيرهما فى سورة إبراهيم :

الحقيقة الأولى : وحدة الرسالة والرسل ووحدة دعوتهم . ووقفهم أمة واحدة فى مواجهة الفرقة المكذبة بدين الله على اختلاف الأمكنة والأزمان :

والحقيقة الثانية : بيان نعمة الله على البشر وزيادة النعمة بالشكر ومقابلة أكثر الناس لها بالجحود والكفران .

تبدأ السورة ببيان وظيفة الرسول وبيان هدف القرآن . وهذه الوظيفة هي هداية الناس ، وإبطال عادات الجاهلية وقيمها . وإرساء معالم التوحيد والعدالة والمساواة . قال تعالى :

﴿ كِتابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّور بإِذْنِ ربِّهِم إلى صِراطِ العزيزِ الحمِيد ﴾ إبراهيم ١ .

وتختم السورة بهذا المعنى وبالحقيقة الكبرى التى تتضمنها الرسالة ، حقيقة التوحيد فى قوله تعالى :

﴿ هَذَا بَلاغٌ للنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبابِ ﴾ ابراهيم ٥٢ .

وفى أثناء السورة نجد أن موسى قد أرسل بمثل ما أرسل به محمد صلى الله عليه وسلم ولنفس الهدف وهو إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، قال تعالى :

﴿ ولَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بآيَاتِنَا أَن أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ ابراهيم ٥

وتذكر السورة أن وظيفة الرسل عامة ، هي بيان الحق وتوضيح طريق الهداية إلى الله ، قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إلاَّ بِلِسَان قَوْمِهِ لِيُبَيِّن لَهُم ﴾ ابراهيم ٤ .

وتبين السورة أن الرسول بشر يوحى إليه وأن بشريته هى التى تحدد وظيفته فهو مبلغ ومنذر وناصح ومبين ولكنه لا يملكُ أن يأتى بخارقة أو المعجزة إلا بإذن الله وحين يشاء الله لا حين يشاء هو أو قومه ، ولا يملك الرسول أن يهدى قومه أو يضلهم فالهدى والضلال متعلقان بسنة الله التى اقتضتها مشيئة الله المطلقة . ولقد كانت بشرية الرسل هى موضع الاعتراض من جميع الأقوام فى جاهليتهم . والسورة هنا تحكى قولهم مجتمعين :

﴿ قالُوا إِنْ أَنْتُم إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آباؤنَا فَأْتونا بِسُلْطَانٍ مُبين ﴾ ابراهيم ١٠

وتحكي رد رسلهم كذلك مجتمعين :

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُم إن نَّحْنُ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ على مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إلَّا بِإِذْنِ اللهِ . وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ ﴾ ابراهيم ١١ .

ويتضمن السياق كذلك أن إخراج الناس من الظلمات إلى النور إنما يتم ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ .

وكل رسول يبين لقومه

﴿ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ ابراهيم ٤ .

وبهذا أو ذاك تتحدد حقيقة الرسول فتتحدد وظيفته فى حدود هذه الحقيقة ولا تشتبه حقيقة الرسل البشرية وصفاتهم ، بشىء من حقيقية الذات الإلهية وصفاتها . وكذلك يتجرد توحيد الله بلا ظل من مماثلة أو مشابهة ، كذلك تتضمن السورة تحقق وعد الله للرسل والمؤمنين بهم إيمانا حقا ، ويتحقق ذلك الوعد فى الدنيا بالنصر والاستخلاف ، وفى الآخرة بعذاب المكذبين ونعيم المؤمنين .

ويصور السياق هذه الحقيقة الكبيرة فى نهاية المعركة بين الرسل مجتمعين وقومهم مجتمعين .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم منْ أَرضِنَا أَوْلَتَعُودُنَّ فى مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبهمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِم . ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَاف وَعِيدِ واسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ابراهيم١٣ - ١٥ .

وحدة الرسالات السماوية فى سورة ابراهيم

الظاهرة البارزة فى سورة إبراهيم أنها تتحدث عن الرسل جميعا كأنهم أصحاب فكرة واحدة وهدف واحد ، وكأن جواب قومهم كان جوابا موحدا فى جميع العصور والأحوال .

وتعرض السورة هذه الفكرة بطريقة فريدة فى الأداء . لقد أبرزها سياق بعض السور الماضية فى صورة توحيد الدعوة التى يجئ بها كل رسول ، فيقول كلمته لقومه ويمضى ثم يجىء رسول ورسول . كلهم يقولون الكلمة ذاتها ، ويلقون الرد ذاته ويصيب المكذبين ما يصيبهم فى الدنيا ، وينظر بعضهم ويمهل إلى أجل فى الأرض أو إلى أجل فى يوم الحساب . ولكن السياق هناك كان يعرض كل رسول فى مشهد ، كالشريط المتحرك منذ الرسالات الأولى ، وأقرب مثل لهذا النسق سورة هود ، فأما سورة إبراهيم — أى الأنبياء — فتجمع الأنبياء كلهم فى صف وتجمع المكذبين كلهم فى صف ، وتجرى المعركة بينهم فى الأرض ، ثم لا تنتهى هنا ، بل تتابع خطوتها كذلك فى يوم الحساب .

ونبصر فنشهد أمة الرسل ، وفرقة المكذبين فى صعيد واحد على تباعد الزمان والمكان . فالزمان والمكان عرضان زائلان أما الحقيقـة الكبرى فى هذا الكون — حقيقة الإيمان والكفر — فهى أضخم وأبرز من عرضى الزمان والمكان .

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ * وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ابراهيم ٩ — ١١ .

فهاهنا تتجمع الأجيال من لدن نوح ، وتتجمع الرسل ويتلاشى الزمان والمكان وتبرز الحقيقة الكبرى : حقيقة الرسالة وهى واحدة واعتراضات المكذبين وهى واحدة وحقيقة نصر الله للمؤمنين وهى واحدة ، وحقيقة استخلاف الله للصالحين وهى واحدة ، وحقيقة الخيبة والخذلان للمتجبرين وهى واحدة ، وحيقة العذاب الذى ينتظرهم هناك وهى واحدة .

* * *

ولا تنتهى المعركة بين الكفر والإيمان هنا بل يتابع السياق خطواته بها إلى ساحة الآخرة فتبرز معالمها فى مشاهد القيامة المتنوعة التى تتضمنها السورة وهى تشير إلى أنها معركة واحدة تبدأ فى الدنيا وتنتهى فى الآخرة ولا انفصال بينهما ، إنما تكمل إحداهما الأخرى .

وتكمل الأمثال التى تبدأ فى الدنيا وتنتهى فى الآخرة إبراز معالم المعركة بين الفريقين ، ونتائجها الأخيرة ، مثل الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة : شجرة النبوة وشجرة الإيمان ، وشجرة التوحيد والخير ، والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة : شجرة الباطل والتكذيب والشر والطغيان . . فالتوحيد وكلمته : شهادة لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . أصله ثابت موصول بالله وفرعه مرتفع إلى السماء ويؤتى ثماره كل حين بالصلاة والزكاة وسائر العبادات والأعمال النافعة فى الدنيا والآخرة . أما شجرة الكفر فلا أصل لها تعتمد عليه ، فهى تمثل الباطل فى الدنيا ، والخيبة فى الآخرة .

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّماءِ • تؤْتِى أُكُلَهَا كلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ • وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ • يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِى الآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَايَشَاءُ ﴾ ابراهيم ٢٤ ــ ٢٧ .

المقطع الثانى من سورة ابراهيم

تنقسم سورة إبراهيم إلى مقطعين متماسكى الحلقات :

المقطع الأول : يتضمن بيان حقيقة الرسل ، ويصور المعركة بين أمة الرسل وفرقة المكذبين فى الدنيا والآخرة ، ويعقب عليها بمثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة ، وقد تحدثنا عن هذا المقطع .

والمقطع الثانى : من سورة ابراهيم يتحدث عن نعم الله على البشر ، والذين كفروا بهذه النعم وبطروا ، والذين آمنوا بها وشكروا ، ونموذجهم الأول هو ابراهيم ، ويصور مصير الظالمين الكافرين بنعمة الله ، فى سلسلة من أعنف مشاهد القيامة وأجملها ، وأحفلها بالحركة والحياة .

نعم الله

لقد عدد الله نعمه على البشر كافة مؤمنهم وكافرهم ، صالحهم وطالحهم ، برهم وفاجرهم ، طائعهم وعاصيهم ، وإنها لرحمة من الله وسماحة وفضل أن يتيح للكافر والفاجر والعاصى نعمة فى هذه الأرض كالمؤمن والبار والطائع ، لعلهم يشكرون : ويعرض هذه النعم فى أضخم مجالى الكون وأبرزها ، ويضعها داخل إطار من مشاهد الوجود العظيمة :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا * إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ إبراهيم ٣٢-٣٤ .

وفى إرسال الرسل نعمة تعدل تلك أو تربو عليها :

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ إبراهيم - ١ .

والنور أجلى نعم الله فى الوجود ، والنور هنا هو النور الأكبر ، النور الذى يشرق به كيان الإنسان ، ويشرق به الوجود فى قلبه وحسه .. وكذلك كانت وظيفة موسى فى قومه ، ووظيفة الرسل كما بينتها السورة .

وفى قول الرسل مجتمعين :

﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِنْ ذُنُوبِكُم ﴾ ابراهيم ١٠ .

والدعوة لأجل الغفران نعمة تعدل نعمة النور ، وهى منه قريب :

وفى هذا الجو يذكر وعد الله للرسل .

﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُم لَنهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۝ ولَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ ابراهيم ١٣ ، ١٤ .

وهى نعمة . ويبرز السياق حقيقة زيادة النعمة بالشكر :

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ ربكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ ابراهيم ٧ .

مع بيان أن الله غنى عن الشكر وعن الشاكرين :

﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُم وَمَن فى الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ ابراهيم ٨ .

ويقرر السياق أن الانسان فى عمومه لا يشكر النعمة حق الشكر

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاتحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ ابراهيم٣٤ .

ولكن الذين يتدبرون آيات الله ، وتتفتح لها بصائرهم ، يصبرون على البأساء ويشكرون على النعماء .

﴿ إِنَّ فى ذلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ابراهيم ٥ .

ويتمثل الصبر والشكر فى شخص ابراهيم حين يقف خاشعا ويدعو ربه عند البيت الحرام دعاء مخلصاً كله حمد وشكر ، وصبر وإيمان :

﴿ وإذْ قالَ إبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رحِيمٌ * ربَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحرَّمِ ، ربَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فاجْعَل أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعلَّهُمْ يَشْكرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ * الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * ربِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ ومِنْ ذُرِّيَّتِي ربَّنَا وتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لي وَلِوَالِديَّ ولِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ ﴾ إبراهيم ٣٥ - ٤١ .

ولأن النعمة والشكر عليها والكفر بها تطبع جو السورة ؛ تجيء التعبيرات والتعليقات فيها متناسقة مع هذا الجو ، في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ابراهيم ٥ .

وقوله سبحانه :

﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ابراهيم ٦ .

وفي رد الأنبياء على اعتراض المكذبين بأنهم بشر يجيء قوله سبحانه :

﴿ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ابراهيم ١١ .

فيبرز منة الله، تنسيقا للرد مع جو السورة كله، جو النعمة والمنة والشكر والكفران وهكذا يتساوق التعبير اللفظي مع الفكرة العامة للسورة على طريقة التناسق الفني في القرآن .

* * *

نظرات فى سورة الحجر

سورة الحجر سورة مكية ، ومحور هذه السورة الأول هو إبراز المصير المخيف الذى ينتظر الكافرين المكذبين .

وحول هذا المحور يدور السياق فى عدة جولات متنوعة الموضوع والمجال ، ترجع كلها إلى ذلك المحور الأصيل ، سواء فى ذلك القصة ، ومشاهد الكون ومشاهد القيامة ، والتوجيهات والتعقيبات التى تسبق القصص وتتخلله وتعقب عليه .

وإذا كان جو سورة الرعد يذكر بجو سورة الأنعام ، فإن جو هذه السورة ، سورة الحجر ، يذكر بجو سورة الأعراف .

لقد كان ابتداء سورة الأعراف بالانذار ثم ورد فيها قصة آدم وإبليس ويلى القصة عرض لبعض مشاهد الكون فى السموات والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب ، ويلى ذلك قصص قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى .

وهنا فى سورة الحجر يجيء الانذار كذلك فى مطلعها ولكن ملفعا يظل من التهويل حين يقول :

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَما أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * ما تَسْبِقُ مِن أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ الحجر ٣ ، ٤ ، ٥ .

ثم يعرض السياق بعض مشاهد الكون : السماء وما فيها من بروج ، والأرض الممدودة ، والرواسى الراسخة ، والنبت الموزون والرياح اللواقح ، والماء والسقيا ، والحياة والموت والحشر للجميع ، يلى ذلك قصة آدم وإبليس ، منتهية بمصير أتباعه ومصير المؤمنين . ومن ثم لمحات من قصص ابراهيم ولوط وشعيب وصالح منظور فيها إلى مصائر المكذبين .

ويمكن تقسيم سياق السورة هنا إلى عدة جولات أو عدة مقاطع يتضمن كل منها موضوعا أو مجالا :

يتضمن الجولة الأولى بيان سنة الله التي لاتتخلف في الرسالة والايمان بها والتكذيب ، مبدوءة بذلك الانذار الضمني الملفع بالتهويل :

﴿ ذَرْهُمْ يأْكُلُوا ويَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوفَ يَعْلَمُونَ ﴾ الحجر /٣ .

ومنتهية بأن المكذبين إنما يكذبون عن عناد لاعن نقص في دلائل الايمان، وأنهم جميعاً من طراز واحد :

﴿ لايُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾ الحجر / ١٣ .

وتعرض الجولة الثانية بعض آيات الله في الكون ، في السماء وفي الأرض وما بينهما وقد قدرت بحكمة ، وأنزلت بقدر ، وإلى الله مرجع كل شيء وكل أحد في الوقت المقدر المعلوم حيث يقول سبحانه :

﴿ وَإِنْ مِّنْ شَيءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُوم ﴾ الحجر ٢١ .

وتعرض الجولة الثالثة قصة البشرية وأصل الهدى والغواية في تركيبها وأسبابها الأصلية ، ومصير الغاوين في النهاية والمهتدين ، وذلك في خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون ، والنفخ من روح الله في هذا الطين . ثم غرور إبليس واستكباره وتوليه الغاوين دون المخلصين .

والجولة الرابعة في مصارع الغابرين من قوم لوط وشعيب وصالح مبدوءة بقول الله :

﴿ نَبِّىءْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ الحجر ٤٩ ، ٥٠ .

ثم يتتابع القصص يجلو رحمة الله مع ابراهيم ولوط ، وعذابه لأقوام لوط وشعيب وصالح .

أما الجولة الخامسة والأخيره فتكشف عن الحق الكامن فى خلق السموات والأرض المتلبس بالساعة وما بعدها من ثواب وعقاب ، المتصل بدعوة الرسول — صلى الله عليه وسلم — فهو الحق الأكبر الشامل للكون كله وللبدء والمصير .

الآيات الكونية فى سورة الحجر

عرضت سورة الحجر لألوان المكابرة والعناد التى يلجأ إليها الكافرون ثم انتقلت إلى معرض الآيات الكونية مبدوءا بمشهد السماء فمشهد الأرض ، فمشهد الرياح اللواقح بالماء ، فمشهد الحياة والموت فمشهد البعث والحشر . . كل أولئك آيات يكابر فيها المعاندون . قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فى السَّمَاءِ بُرُوجًا وزَيَّنَّاهَا للنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاها مِنْ كل شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إلَّا مَن اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ الحجر ١٦ — ١٨ .

إنه الخط الأول فى اللوحة العريضة ، لوحة الكون العجيب الذى ينطق بآثار اليد المبدعة ، ويشهد بالاعجاز ، ويكشف عن دقة التنظيم والتقدير كما يكشف عن عظمة القدرة على هذا الخلق الكبير . والبروج قد تكون هى النجوم والكواكب بضخامتها ، وقد تكون هى منازل النجوم والكواكب التى تنتقل فيها فى مدارها . وهى فى كلتا الحالتين شاهدة بالقدرة وشاهدة بالدقة ، وشاهدة بالابداع الجميل . قال تعالى

﴿ وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ ﴾.

وهى لفتة إلى جمال الكون ، وبخاصة أن تلك السماء ، تشى بأن الجمال غاية مقصودة فى خلق هذا الكون فليست الضخامة وحدها وليست الدقة وحدها ، إنما هو الجمال الذى ينظم المظاهر جميعا وينشأ من تناسقها جميعا .

وإن نظرة مبصرة إلى السماء فى الليلة الحالكة ، وقد انتثرت فيها الكواكب والنجوم توصوص بنورها ثم تبدو كأنما تخبو ، ريثما تنتقل العين لتلبى دعوة من نجم بعيد . . ونظرة مثلها فى الليلة القمرية والبدر حالم ، والكون من حوله مهموم كأنما يمسك أنفاسه حتى لا يوقظ الحالم السعيد .

إن نظرة واحدة شاعرة لكفيلة بإدراك الحقيقة فى الجمال الكونى ، وعمق هذا الجمال فى تكوينه ، ولإدراك معنى هذه اللفتة العجيبة . ﴿وزيناها للناظرين﴾ .

والخط الثانى فى اللوحة العريضة الهائلة هو خط الأرض الممدودة أمام النظر المبسوطة للخطو والسير ، وما فيها من رواس وما فيها من نبت وأرزاق للناس ولغيرهم من الأحياء . قال تعالى :

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ الحجر / ١٩ .

إن ظل الضخامة واضح فى السياق ، فالإشارة فى الأرض إلى الرواسى ، ويتجسم ثقلها فى التعبير بقوله :

﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾

وإلى النبات موصوفا بأنه (مَوْزُون) وهى كلمة ذات ثقل ، وإن كان معناها أن كل نبت فى هذه الأرض فى خلقه دقة وإحكام وتقدير .

والآية الكونية هنا تتجاوز الآفاق إلى الأنفس ، فهذه الأرض الممدودة للنظر والخطو ، وهذه الرواسى الملقاة على الأرض تصاحبها الإشارة إلى النبت الموزون ، ومنه إلى المعايش التى جعلها الله للناس فى هذه الأرض ، وهى الأرزاق المؤهلة للعيش والحياة فيها وهى كثيرة شتى .

* * *

وهذه الأرزاق — ككل شيء — مقدرة فى علم الله تابعة لأمره ومشيئته ، يصرفها حيث يشاء وكما يريد ، فى الوقت الذى يريده ، حسب سنته التى ارتضاها وأجراها فى الناس والأرزاق . قال تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ الحجر ٢١ .

فما من مخلوق يقدر على شيء أو يملك شيئاً ، إنما خزائن كل شيء — مصادره وموارده — عند الله فى علاه ينزله على الخلق فى عوالمهم :

(بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

فليس من شيء ينزل جزافا وليس من شيء يتم اعتباطا ، بل كل شيء يتم بحكمة العليم الخبير وتقدير السميع البصير :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر ٤٩ .

* * *

قصة آدم فى سورة البقرة والأعراف والحجر

ذكرت قصة آدم فى القرآن مرتين من قبل ، فى سورة البقرة ، وفى سورة الأعراف ، ولكن مساقها فى كل مرة كان لأداء غرض خاص فى معرض خاص وفى جو خاص ، ومن ثم اختلفت الحلقات التى تعرض منها فى كل موضع واختلفت طريقة الأداء .

فى سورة البقرة كانت نقطة التركيز هى استخلاف آدم فى الأرض التى خلقها الله للناس جميعا :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ البقرة ٣٠ ،

ومن ثم عرض الأسرار فى هذا الاستخلاف ، وبيّن قدرة الإنسان على الاستنباط والاستنتاج وتمتعه بالإرادة والاختيار ، ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره ، وسكنى آدم وزوجه الجنة وإزلال الشيطان لهما عنها وإخراجهما منها ، ثم الهبوط إلى الأرض للخلافة فيها بعد تزويده بهذه التجربة القاسية ، واستغفاره وتوبة الله عليه .

وفى سورة الأعراف ، كانت نقطة التركيز فى السياق هى الرحلة الطويلة من الجنة وإليها ، وإبراز عداوة إبليس للانسان منذ بدء الرحلة إلى نهايتها ، حتى يعود الناس مرة أخرى إلى ساحة العرض الأولى ، ففريق منهم يعود إلى الجنة التى أخرج الشيطان أبويهم منها لأنهم عادوه وخالفوه ، وفريق ينتكس إلى النار لأنه اتبع خطوات الشيطان العدو اللدود .. ومن ثم عرض السياق حكاية سجود الملائكة ، وإباء إبليس واستكباره ، ثم إسكان آدم

وزوجه الجنة يأكلان من ثمرها كله إلا شجرة واحدة ، وهى رمز المحظور الذى تبتلى به الإرادة والطاعة ثم وسوسة الشيطان لهما بتوسع وتفصيل وأكلهما من الشجرة وظهور سوآتهما لهما ، وعتاب الله لآدم وزوجه وإهباطهما إلى الأرض جميعا للعمل فى أرض المعركة الكبرى .

فأما هنا فى سورة الحجر فإن نقطة التركيز فى السياق هى ، سر التكوين فى آدم ، وسر الهدى والضلال ، وعواملهما الأصلية فى كيان الإنسان . ومن ثم نَصَّ ابتداء على خلق الله آدم من صلصال من حمأ مسنون ، ونَفْخه فيه من روحه المشرق الكريم ، وخَلْق الشيطان من قبلُ من نار السموم ، ثم عَرَض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس استنكافا من السجود لبشر من صلصال من حمأ مسنون ، وطرْد إبليس ولعنته وطَلَبه الانتظار إلى يوم البعث وإجابته ، وزاد أن إبليس قرر على نفسه أن ليس له سلطان على عباد الله المخلصين ، إنما سلطانه على من يدينون له ، ولا يدينون لله ، وانتهى بمصير هؤلاء وهؤلاء فى غير حوار ولا عرض ولا تفصيل تبعا لنقطة التركيز فى السياق وقد استوفت ببيان عنصرى الإنسان ، وببيان مجال سلطة الشيطان .

خلق الانسان

تفيد الآيات الواردة فى سورة الحجر أن الإنسان قد خلق من :

﴿ صَلْصال مِنْ حَمَإٍ مَسْنُون ﴾ الحجر – ٢٦ .

والصلصال : هو الطين اليابس الذى يصلصل أى يصوّت إذا نقر .

والحمأ : هو الطين الذى تغير واسود من طول مجاورة الماء .

والمسنون : هو المصور أوالمصبوب ليَيْبَس من سَنّه إذا صبّه ، أى أن الإنسان مخلوق من طين يابس قد اختلط بالماء وصُور على هيئة الإنسان ثم نفخ الله فيه من روحه فصار بشرا سويا .

وتفيد آيات القرآن الأخرى أن الله خلق آدم من تراب ومن طين ، ومن حمأ مسنون ، ومن طين لازب ، ومن صلصال كالفخار ومن عجل ومن ماء مهين .

قال مقاتل بن سليمان فى تفسيره الكبير :

« ويُجمع بين هذه الآيات على أنها دليل على تدرج الخلقة ، فقد بدأ خلق آدم من أديم الأرض وهو التراب ، ثم تحول التراب إلى طين . . وتحول الطين إلى سلالة ، ثم تغيرت رائحة الطين فتحول إلى حمأ مسنون ، ثم لصق فتحول الى طين لازب ، ثم صار له صوت كصوت الفخار ، ثم نفخ فيه الروح ، فأراد أن ينهض قبل أن تتم الروح فيه فذلك قوله خلق الإنسان من عجل ، ثم جعل ذريته من النطفة التى تنسل من الإنسان ومن الماء المهين وهو الضعيف »(١) .

الربع الأخير من سورة الحجر

يتضمن الربع الأخير من سورة الحجر نماذج من رحمة الله وعذابه ممثلة فى قصص إبراهيم وبشارته على الكبر بغلام عليم ، ولوط ونجاته وأهله إلا امرأته من القوم الظالمين ، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر وما حل بهم من عذاب أليم .

هذا القصص يساق بعد مقدمة هى .

﴿ نَبِّىءْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ الحجر ٤٩ ، ٥٠

فيجىء بعضه مصداقا لنبأ الرحمة ، ويجىء بعضه مصداقا لنبأ العذاب ، كذلك هو يرجع إلى مطالع السورة فيصدق ما جاء فيها من نذير :

﴿ ذَرْهُمْ يأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسوْفَ يَعْلَمُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّاوَلَهَا كِتَاب مَّعْلُوم * مَاتَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَايَسْتَأْخِرُونَ ﴾ الحجر ٣ — ٥ .

فهذه نماذج من القرى المهلكة بعد النذر ، حل بها جزاؤها بعد انقضاء الأجل .

---

(١) الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم ، لمقاتل بن سليمان ص ٥٨ .

[illegible]

([illegible]) [illegible]

[illegible]

([illegible]) [illegible]

[illegible]

(ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين) النمل ٥٠ - ٥١

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

([illegible]) [illegible]

•••

[illegible]

دروس من سورة النحل

عرض اجمالى للسورة :

سورة النحل سورة مكية ، وعدد آياتها « ١٢٨ » آية ، وهى سورة هادئة الإيقاع عادية الجرس ، ولكنها مليئة حافلة ، موضوعاتها الرئيسية كثيرة منوعة ، والإطار التى تعرض فيه واسع شامل .

وهى كسائر السور المكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى : الألوهية، والوحى والبعث ، ولكنها تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسية ، تلم بحقيقة الوحدانية الكبرى التى تصل بين دين إبراهيم عليه السلام ، ودين محمد صلى الله عليه وسلم وتلم بحقيقة الإرادة الإلهية والإرداة البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر والهدى والضلال ، وتلم بوظيفة الرسل ، وسنة الله فى المكذبين لهم وتلم بموضوع التحليل والتحريم ، وأوهام الوثنية حول هذا الموضوع ، وتلم بالهجرة فى سبيل الله ،وفتنة المسلمين فى دينهم ، والكفر بعد الإيمان وجزاء هذا كله عند الله ثم تضيف إلى موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة : العدل والإحسان، والإنفاق والوفاء بالعهد وغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة ، وهكذا هى مليئة حافلة من ناحية الموضوعات التى تعالجها .

فأما الإطار الذى تعرض فيه هذه الموضوعات ، والمجال الذى تجرى فيه الأحداث فهو فسيح شامل . . . هو السموات والأرض . والماء الهاطل ، والشجر النامى . . والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم . والبحار والجبال والمعالم والسبل والأنهار ، وهو الدنيا بأحداثها ومصائرها ، والأخرى بأقدارها ومشاهدها ، وهو الغيب بألوانه وأعماقه فى الأنفس والآفاق .

فى هذا المجال الفسيح يبدو سياق السورة وكأنه حملة ضخمة للتوجيه والتأثير واستجاشة العقل والضمير ، حملة هادئة الإيقاع ، ولكنها متعددة الأوتار ، ليست فى جلجلة سورة الأنعام وسورة الرعد ، ولكنها فى هدوئها تخاطب كل حاسة وكل جارحة فى الكيان البشرى ، وتتجه إلى العقل الواعى كما تتجه إلى الوجدان الحساس إنها تخاطب العين لترى ، والأذن لتسمع ، واللمس ليستشعر ، والوجدان ليتأثر والعقل ليتدبر وتحشد الكون كله : سماءه وأرضه وشمسه وقمره ، وليله ونهاره ، وجباله وبحاره ، وفجاجه وأنهاره ، وظلاله وأكنانه ، ونبته وثماره ، وحيوانه وطيوره ، كما تحشد دنياه وآخرته ، وأسراره وغيوبه .. كلها أدوات توقع بها على أوتار الحواس والجوارح والعقول والقلوب ، مختلف الايقاعات التى لا يغلق أمامها إلا القلب الميت والعقل المنكوس ، والحس المطموس .

هذه الإيقاعات تتناول التوجيه إلى آيات الله فى الكون وآلائه على الناس كما تتناول مشاهد القيامة ، وصور الاحتضار ومصارع الغابرين ، تصاحبها اللمسات الوجدانية التى تتسرب إلى أسرار الأنفس ، وإلى أحوال البشر وهم أجنة فى البطون وهم فى الشباب والهرم والشيخوخة وهم فى حالات الضعف والقوة ، وهم فى أحوال النعمة والنقمة ، كذلك تتخذ السورة الأمثال والمشاهد والحوار والقصص الخفيف أدوات للعرض والإيضاح .

فأما الظلال العميقة التى تلون جو السورة كله فهى الآيات الكونية تتجلى فيها عظمة الخلق ، وعظمة النعمة ، وعظمة العلم والتدبير .. كلها متداخلة ، فهذا الخلق الهائل العظيم المدبر عن علم وتقدير ملحوظ فيه أن يكون نعمة على البشر لاتلبى ضروراتهم وحدها ولكن تلبى أشواقهم كذلك ، فتسد الضرورة ، وتتخذ للزينة ، وترتاح بها أبدانهم وتستريح لها نفوسهم ، لعلهم يشكرون . . ومن ثم تتراءى فى السورة ظلال النعمة ، وظلال الشكر ، والتوجيهات إليها والتعقيب بها فى مقاطع السورة وتضرب عليها الأمثال وتعرض لها النماذج وأظهرها نموذج إبراهيم :

﴿ شاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ النحل ١٢١

كل أولئك فى تناسق ملحوظ بين الصور والأفكار ، والعبارات والإيقاعات ، والقضايا والموضوعات نرجو أن نشاهده فى أثناء استعراضنا لأجزاء السورة

التوحيد فى السورة

تبدأ سورة النحل بآية مشهورة تقال كثيرا عندما يحين الأجل ويقف الإنسان عاجزا أمام حوادث القدر ، يقول سبحانه :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾
النحل « ١ »

ومن أسباب نزول هذه الآية أن أهل مكة كانوا يستعجلون الرسول صلى الله عليه وسلم — أن يأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ؛ وكلما امتد بهم الأجل ولم ينزل العذاب زادوا استعجالا وزادوا استهزاء واستهتارا ، وحسبوا أن محمدا يخوفهم بما لا وجود له ولا حقيقة ، ليؤمنوا له ويستسلموا ، ولم يدركوا حكمة الله فى إمهالهم ورحمته فى إنظارهم ولم يحاولوا تدبر آياته فى الكون ، وآياته فى القرآن .

نعم الله

تسترسل الآيات فى سورة النحل تستعرض نعم الله سبحانه على الإنسان فتذكر خلق السموات والأرض والإنسان ، ، والأنعام والنبات ، والليل والنهار ، والجبال والبحار والشمس والقمر والنجوم ، وهى ظواهر طبيعية ملموسة ولكننا إذا قرأنا الآيات من ٣ إلى ١٨ فى سورة النحل نجد أننا أمام لوحة كونية معروضة تنتقل بالإنسان من مشهد إلى آخر وكل مشهد يدل على وحدانية الخالق ، ووحدانية المنعم وتعرض الآيات هذه النعم فوجا فوجا ومجموعة مجموعة بادئة بخلق السموات والأرض ، فيقول سبحانه :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ النحل ٣ .

فالحق قوام خلقهما والحق قوام تدبيرهما والحق عنصر أصيل فى

تصريفهما وتصريف من فيهما وما فيهما فما من شيء من ذلك كله عبث ولا جزاف إنما كل شيء قائم على الحق وملتبس به وسائر فى النهاية إليه .

ثم تستعرض الآيات نعمة خلق الأنعام ، والأنعام المتعارف عليها فى الجزيرة العربية كانت هى الإبل والبقر والضأن والمعز وقد أباح الله أكلها أما الخيل والبغال والحمير فللركوب والزينة ولا تؤكل ، ثم يجيء التعقيب على هذه النعمة بقوله سبحانه :

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ « النحل ٨ »

ليظل المجال مفتوحا فى التصور البشرى لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة . إن الإسلام عقيدة مفتوحة مرنة قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها ومقدرات الحياة كلها ومن ثم يهيء القرآن الأذهان لاستقبال كل ما تتمخض عنه القدرة ويتمخض عنه العلم ، ويتمخض عنه المستقبل ، استقباله ، بالوجدان الدينى المتفتح المستعد لتلقى كل جديد فى عجائب الخلق والعلم والحياة .

ولقد وجدت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان وستجد وسائل أخرى لايعلمها أهل هذا الزمان ، والقرآن يهيء القلوب والأذهان بلا جمود ولا تحجر حين يقول :

﴿ وَيَخْلُقُ مَالا تَعْلَمُونَ ﴾ .

والفوج الثانى : من آيات الخلق والنعمة ، هى إنزال الماء وإنبات النبات والمرعى والزروع التى يأكل منها الإنسان مع الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من أشجار الثمار .

والفوج الثالث : من أفواج الآيات .

تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وكلها ذات أثر حاسم فى حياة الإنسان ومن شاء فليتصور نهارا بلا ليل أو ليلا بلانهار ثم يتصور مع هذا حياة الإنسان والحيوان والنبات فى هذه الأرض كيف تكون ، كل

أولئك طرف من حكمة التدبير وتناسق النواميس فى الكون كله . يدركه أصحاب العقول التى تتدبر وتعقل :

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ النحل ١٢ .

والفوج الرابع : من أفواج النعمة فيما خلق الله للانسان :

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ . النحل ١٣

امتن الله على عباده بما خلق لهم فى الأرض من ألوان المنافع . وبما أودعه فيها للبشر من مختلف المعادن التى تقوم بها حياتهم فى بعض الجهات وفى بعض . الأزمان ولفت أنظارهم الى هذه الذخائر المخبوءة فى الأرض ، المودعة للناس حتى يبلغوا رشدهم يوما بعد يوم ، ويستخرجوا كنوزهم فى حينها ووقت الحاجة إليها وكلما قيل : إن كنزا منها قد نفد أعقبه كنز آخر غنى ، من رزق الله المدخر للعباد قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

ثم امتن سبحانه على عباده بالبحر المالح وما يشتمل عليه من صنوف النعم « فمنها اللحم الطرى من السمك وغيره للطعام ، وإلى جواره الحلية من اللؤلؤ ومن المرجان وغيرها من الأصداف والقواقع » .

ومنها مرور السفن تمخر عباب البحر ، وتيسر المصالح وتبادل المنافع بين الناس قال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ النحل « ١٤ » .

وعندما ينتهى استعراض النعم يبين القرآن أن من يخلق ليس كمن لا يخلق وأن نعم الله على الإنسان لاتعد ولا تحصى :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ النحل ١٨ .

تتعرض الآيات من ٢٢ إلى ٥٠ فى سورة النحل ، لتقرير وحدة الألوهية فيقول سبحانه :

﴿ وَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ﴾

وكل ما سبق فى السورة من آيات الخلق وآيات النعمة وآيات العلم يؤدى إلى هذه الحقيقة الكبيرة البارزة وهى أن هذا الكون البديع المنظم لا يحفظ نظامه إلا إله واحد والذين لا يسلمون بهذه الحقيقة قلوبهم منكرة فالجحود صفة كامنة فيها ، والعلة أصيلة فى نفوسهم المريضة ، وطباعهم المعاندة المتكبرة عن الإقرار والإذعان والتسليم .

وتختم هذه الآيات بمشهد مؤثر مشهد الظلال فى الأرض كلها ساجدة لله ومعها ما فى السموات وما فى الأرض من دابة . والملائكة قد برئت نفوسهم من الاستكبار وامتلأت بالخوف من الله والطاعة لأمره بلا جدال . هذا المشهد الخاشع الطائع يقابل صورة المستكبرين المتكبرة قلوبهم فى مفتتح هذه المجموعة من الآيات .

وبين المطلع والختام يستعرض السياق مقولات أولئك المستكبرين المنكرين للوحى والقرآن إذ يزعمون أنه أساطير الأولين ، ومقولاتهم عن أسباب شركهم بالله وتحريمهم ما لم يحرمه الله إذ يدعون أن الله أراد منهم الشر وارتضاه . ومقولاتهم عن البعث والقيامة إذ يقسمون جهدهم لا يبعث الله من يموت ويتولى الرد على مقولاتهم جميعـــا ، ويعرض فى ذلك مشاهد احتضارهم ومشاهد بعثهم وفيها يتبرأون من تلك المقولات الباطلة كما يعرض بعض مصارع الغابرين من المكذبين أمثالهم ويخوفهم أخذ الله فى ساعة من ليل أو نهار وهم لا يشعرون وهم فى تقلبهم فى البلاد ، أو وهم على تخوف وتوقع وانتظار للعذاب إلى جوار هذا يعرض صوراً من مقولات المتقين المؤمنين وما ينتظرهم عند الاحتضار ويوم البعث من طيب الجزاء ....

وينتهى هذا الدرس بذلك المشهد الخاشع الطائع للظلال والدواب والملائكة فى الأرض والسماء والسياق القرآنى يعبر عن خضوع الأشياء لنواميس الله

بالسجود وهو أقصى مظاهر الخضوع — ويوجه إلى حركة الظلال المتفيئة — أى الراجعة بعد امتداد — وهى حركة لطيفة خفيفة ذات دبيب فى المشاعر والأعماق ويرسم المخلوقات داخرة أى خاضعة خاشعة ويضم إليها ما فى السموات وما فى الأرض من دابة ويضيف إلى الحشد الكونى .. الملائكة فى مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود ، قال تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَافِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَيَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِم وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ النحل ٤٩ ، ٥٠ .

ادلة الوحدانية

تستمر الآيات من ٥١ إلى ٧٦ فى سورة النحل فى إثبات قضية الألوهية الواحدة التى لا تتعدد ، تبدأ فتقرر وحدة الإله ووحدة المالك ، ووحدة المنعم فى الآيات الثلاث الأولى متواليات وتختم بمثلين تضربهما للسيد المالك الرازق ، والعبد المملوك الذى لا يقدر على شىء ولا يملك شيئا . . هل يستوون ؟ فكيف يسوى الله المالك الرازق بمن لا يقدر ولا يملك ولا يرزق ؟ فيقال : هذا إله وهذا إله ؟ .

وفى خلال هذا الدرس تعرض الآيات نموذجا بشريا للناس حين يصيبهم الضر فيجأرون إلى الله وحده ، وإذا كشف عنهم الضر راحوا يشركون به غيره .

وتعرض الآيات صورا من أوهام الوثنية وخرافاتها فى تخصيص بعض مارزقهم الله لآلهتهم المدعاة ، فى حين أنهم لايردون شيئا مما يملكونه على عبيدهم ولايقاسمونهم إياه وفى نسبة البنات إلى الله على حين يكرهون ولادة البنات لهم :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ النحل « ٥٨ » .

وفى الوقت الذى يجعلون لله .. يكرهون تروح ألسنتهم تتشدق بأن لهم

الحسنى ، وأنهم سينالون على مافعلوا خيرا وهذه الأوهام التى ورثوها من المشركين قبلهم ، هى التى أرسل الرسول — صلى الله عليه وسلم — يبين لهم الحقيقة فيها . وليخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور اليقين ثم تأخذ الآيات فى عرض نماذج من صنع الألوهية الحقة فى تأملها عظة وعبرة فالله وحده هو القادر عليها الموجد لها ، وهى هى دلائل الألوهية لاسواها : فالله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها والله يسقى الناس — غير الماء — لبنا سائغا يخرج من بطون الأنعام من بين فرث ودم ، والله يطلع للناس ثمرات النخيل والأعناب يتخذون منها سكرا ورزقا حسنا والله أوحى إلى النحل لتتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم تخرج عسلا فيه شفاء للناس .

اسم السورة

وقد سميت هذه السورة بسورة النحل للاشارة الى الأمر العجيب الدقيق فى شأن النحل فهى تعمل بإلهام من الفطرة التى أودعها إياها الخالق ، وهذا الإلهام لون من الوحى تعمل النحل بمقتضاه وهى تعمل بدقة عجيبة يعجز عن مثلها العقل المفكر سواء فى بناء خلاياها أو فى تقسيم العمل بينها أو فى طريقة إفرازها للعسل المصفى :

وهى تتخذ بيوتها حسب فطرتها فى الجبال والشجر وما يعرشون أى ما يرفعون من الكروم وغيرها ، وقد ذلل الله لها سبل الحياة ، بما أودع فى فطرتها وفى طبيعة الكون حولها من توافق ، قال تعالى :

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ النحل ٦٨ و ٦٩ .

وقد سئل الإمام الشافعى بم عرفت الله ؟ قال بالنحلة نصفها بعسل

ونصفها يلسع ، وفى الحديث المؤمن كالنحلة . أى أنه خفيف الظل مترفع فى هدفه ، لا يأكل إلا طيبا ، ولا يترك إلا أثرا حسنا ، وإذا وقع على شىء لم يكسره ، وتستمر الآيات فى عرض أدلة القدرة الإلهية فتذكر أن الله يخلق الناس ويتوفاهم ويؤجل بعضهم حتى يشيخ فينسى ما تعلمه ويرتد ساذجا لا يعلم شيئا ، والله فضل بعضهم على بعض فى الرزق ، والله جعل لهم من أنفسهم أزواجا وجعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة ، وهم بعد هذا كله يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا فى السموات والأرض ، ويجعلون لله الأشباه والأمثال .

هذه اللمسات كلها فى أنفسهم وفيما حولهم . يوجههم إليها لعلهم يستشعرون القدرة وهى تعمل فى ذواتهم وفى طعامهم وفى شرابهم وفى كل شىء حولهم .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

مظاهر القدرة الالهية

تتحدث الآيات من ٧٧ إلى ٨٩ فى سورة النحل عن مظاهر القدرة الإلهية فتوضح عظمة الخالق وفيض نعمته وإحاطة علمه وتركز الآيات فى هذا الشوط على قضية البعث ، والساعة إحدى أسرار الغيب ، الذى يختص الله بعلمه فلا يطلع عليه أحدا .

وموضوعات هذا الدرس تشمل ألوانا من أسرار غيب الله فى السموات والأرض ، وفى الأنفس والآفاق . غيب الساعة التى لا يعلمها إلا الله وهو عليها قادر وهى عليه هينة :

﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ النحل ٧٧ .

وغيب الأرحام والله وحده هو الذى يخرج الأجنة من هذا الغيب لا تعلم شيئا ، ثم ينعم على الناس بالسمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون نعمته . وغيب أسرار الخلق ويعرض منها تسخير الطير فى جو السماء ما يمسكهن الا الله .

يلى هذا الدرس استعراض لبعض نعم الله المادية على الناس وهى

بجانب تلك الأسرار وفى جوها . نعم السكن والهدوء والاستظلال فى البيوت المبنية والبيوت المتخذة من جلود الأنعام للظعن والإقامة ، والأثاث والمتاع من الأصواف والأوبار والأشعار .

وتذكر الآيات من نعم الله الظلال ، والأكنان وهى مايستر الإنسان ويغطيه والسرابيل وهى ما يلبسه الإنسان من قميص يقيه الحر والبرد أو درع تقيه بأس الحرب :

﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ النحل ٨١ .

ثم تفصل الآيات أمر البعث فى مشاهد يعرض فيها المشركون وشركاؤهم والرسل شهداء عليهم والرسول صلى الله عليه وسلم شهيد على قومه . وبذلك تتم هذه الجولة فى جو البعث والقيامة .

الأوامر والنواهى

تتعرض الآيات من ٩٠ الى ١١١ فى سورة النحل لشرح بعض أهداف القرآن ويبدأ هذا الدرس بآية شهيرة يرددها الخطباء على المنابر فى نهاية خطبة الجمعة وهى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ النحل « ٩٠ » .

وفى هذا الدرس أمر بالوفاء بالعهد ونهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها وكلها من مبادىء السلوك الأساسية التى جاء بها القرآن الكريم .

وفى هذا الدرس بيان الجزاء المقرر لنقض العهد واتخاذ الأيمان للخداع والتضليل وهو العـذاب العظيم . والبشرى للذين صبروا ومضاعفة الثواب لهم .

ثم تذكر الآيات بعض آداب تلاوة القرآن . وهى الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم لطرد شبحه من مجلس القرآن الكريم كما تذكر بعض تقولات المشركين عن القرآن فمنهم من يرمى الرسول – صلى الله عليه وسلم – بافتراء الله

على الله ومنهم من يقول : إن غلاما أعجميا هو الذى يعلمه هذا القرآن :

وفى نهاية الدرس يبين جزاء من يكفر بعد إيمانه ، ومن يكرَه على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان . ويبين جزاء من فتنوا عن دينهم ثم هاجروا وجاهدوا وصبروا . وكل أولئك تبيان و هدى ورحمة وبشرى للمسلمين .

وفى الآيات إباحة لمن أكره على الكفر أن ينطق لسانه به مادام القلب عامرا بالإيمان روى ابن جرير باسناده أن العذاب لما اشتد على عمار بن ياسر نطق ببعض ما أرادوا ، ثم شكا ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له النبى : « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئنا بالإيمان : قال النبى : (إن عادوا فعد) فكانت رخصة فى مثل هذه الحال .

وقد أبى بعض المسلمين أن يظهروا الكفر بلسانهم مؤثرين الموت على لفظه باللسان كذلك صنعت سمية أم ياسر ، وهى تُطعَن بالحربة فى موضع العفة حتى تموت ، وكذلك صنع أبوها ياسر .

وقد كان بلال - رضوان الله عليه - يعذب أشد العــذاب حتى لتوضع الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ويطلب منه أن ينطق بكلمة الشرك فيأبى و هو يقول : أحد أحد

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

ختام سورة النحل

يتحدث الربع الأخير فى سورة النحل عن مثل ضربه الله لتصوير حال مكة وقومها المشركين الذين جحدوا نعمة الله عليهم ، لينظروا المصير الذى يتهددهم من خلال المثل الذى يضربه لهم ، حين يقول سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ النحل ١١٢ .

وهى حال أشبه شىء بحال مكة جعل الله فيها البيت ، وجعلها بلدا حراما

من دخله فهو آمن مطمئن لا تمتد إليه يد ولو كان قاتلا ، ولا يجرؤ أحد على إيذائه وهو فى جوار بيت الله الكريم ، وكان الناس يتخطفون من حول البيت وأهل مكة فى حراسته وحمايته آمنون مطمئنون ، كذلك كان رزقهم يأتيهم هينا هنيئا من كل مكان مع الحجيج ومع القوافل الآمنة مع أنهم فى واد قفر جدب غير ذى زرع ، فكانت تجبى إليهم ثمرات كل شىء فيتذوقون طعم الأمن وطعم الرغد منذ دعوة ابراهيم الخليل ، فإذا كذب أهل مكة بدعوة محمد وجحدوا رسالته استحقوا العقاب والعذاب ولباس الجوع والخوف جزاء كفرهم وعنادهم .

ثم ينتقل السياق بهم إلى الطيبات التى حرمتها قبائل مكة على أنفسها اتباعا لأوهام الوثنية ، وقد أحلها الله لهم ، وحدد المحرمات وبينها وليست هذه منها وذلك لون من الكفر بنعمة الله وعدم القيام بشكرها يتهددهم بالعذاب الأليم من أجله . وهو افتراء على الله لم ينزل به شريعة .

وبمناسبة ما حرم على المسلمين من الخبائث . يشير إلى ما حرم على اليهود من الطيبات بسبب ظلمهم . وقد جعل هذا التحريم عقوبة لهم على عصيانهم . ولم يكن محرما على آبائهم فى عهد ابراهيم الذى كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . فكانت حلالا له الطيبات ولبنيه من بعده حتى حرم الله بعضها على اليهود فى صورة عقوبة لهم خاصة ومن تاب من بعد جهالته فإن الله غفور رحيم .

ثم جاء دين محمد صلى الله عليه وسلم امتدادا واتباعا لدين ابراهيم ، فعادت الطيبات كلها حلالا وكذلك السبت الذى منع فيه اليهود من الصيد، فإنما السبت على أهله الذين اختلفوا فيه ، ففريق كف عن الصيد وفريق نقض عهده فمسخه الله وانتكس عن مستوى الإنسانية .

وتختم السورة عند هذه المناسبة بالأمر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . وأن يجادلهم بالتى هى أحسن . وأن يلتزم قاعدة العدل فى رد الاعتداء بمثله دون تجاوز . . والصبر

والشكر كبير ، والعاقبة بعد ذلك للمتقين المحسنين لأن الله معهم ينصرهم ويوفقهم ويهديهم طريق الخير والفلاح .

وفي أسباب نزول القرآن أن الآيات الأخيرة من سورة النحل نزلت في حمزة بن عبد المطلب حين استشهد في غزوة أحد وفي هذه الغزوة مثّل المشركون بالمسلمين فبقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم وما تركوا أحداً غير ممثول به غير حنظلة بن الراهب ، كان الراهب أبو عامر مع أبي سفيان فتركوا حنظلة لذلك ، ثم وقف رسول الله على جثة حمزة وقد مثل به فرآه مبقور البطن فقال : أما والذي أحلف به إن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك ، فنزل قوله تعالى :

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ النحل ١٢٦

ولما نزلت هذه الآية كفّر النبي عن يمينه وكف عما أراده ، ومن هنا نصير إلى أن خواتيم سورة النحل مدنية ، ولا خلاف في تحريم المثلة وقد وردت الأخبار بالنهي عنها حتى بالكلب العقور .

الأهداف العامة لسورة الإسراء

سورة الإسراء مكية نزلت في السنة الحادية عشرة للبعثة قبل الهجرة بسنة وشهرين ، وتسمى سورة الإسراء نظراً لذكر الإسراء في صدرها كما تسمى سورة بني إسرائيل ، لأنها تحدثت عنهم وعن إفسادهم في الأرض وعن عقوبة الله لهم على هذا الفساد .

وعدد آياتها ١١١ آية ، وهي من أواخر ما نزل من السور بمكة وقد تميزت آياتها بالطول النسبي وبسط الفكرة والدعوة إلى التحلي بالآداب ومكارم الأخلاق .

فسورة الإسراء اشتملت على خصائص السورة المكية ، ومن ناحية أخرى ظهرت فيها صفات من خصائص السورة المدنية ، لأنها من أواخر ما نزل بمكة فهي ممهدة للعهد المدني أو هي مما يشبه المدني وهو مكي .

الإسراء

بدأت سورة الإسراء بقوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

وخلاصة الإسراء : أن الله تعالى أكرم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بمعجزة إلهية هي الانتقال به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بالشام ثم صعد إلى السموات العلا ورأى من كل سماء مقربيها ورأى سدرة المنتهى وجنة المأوى وآيات ربه الكبرى ثم فرض الله عليه الصلاة لتكون صلة بين المخلوق

والخالق ورباطا بين الإنسان وربه وعاد عليه الصلاة السلام إلى مكة قبل طلوع الفجر .

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة يختار فيها من اللطيف الخبير تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيين — صلى الله عليه وسلم — وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعا . وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله ، واشتمال رسالته على هذه المقدسات وارتباط رسالته بها جميعا ، فهى رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان ، وتتضمن أكبر من المعانى القريبة التى تنكشف عنها للنظرة الأولى .

والإسراء آية صاحبتها آيات :

﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ .

والنقلة العجيبة بين المسجد الحرام والمجسد الأقصى فى الوقت القصير آية من آيات الله ، تفتح القلب على آفاق عجيبة فى هذا الوجود وتكشف عن نعم الله على الجنس البشرى الذى كرمه الله وفضله على كثير من خلقه واصطفى من بينه رسلا وأنبياء يوحى إليهم ويخصهم بالنبوة والهداية ، والمعجزات الباهرة .

هذا الإسراء آية من آيات الله . وهو نقلة عجيبة بالقياس إلى مألوف البشر والمسجد الأقصى هو طرف الرحلة . وهو قلب الأرض المقدسة التى بارك الله حولها بركات مادية ومعنوية فحولها الأشجار والثمار ، وإليها يتحرك الحجيج وقد زارها الأنبياء والمرسلون .

وجمهور العلماء على أن الإسراء كان بالروح والجسد يقظة لا مناما وذهب بعض العلماء إلى أن الإسراء كان بالروح فقط وكان فى النوم لا فى اليقظة لقوله تعالى فى سورة الإسراء :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ الإسراء ٦٠ .

وقد رد جمهور العلماء بأن هذه الآية تشير إلى رؤيا رآها النبى صلى الله عليه وسلم ليلة غزوة بدر الكبرى ، قال تعالى :

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً ﴾ الأنفال ٤٣ .

أو تشير إلى رؤيا رآها النبى بدخول المسجد الحرام حاجا معتمرا قبل صلح الحديبية قال تعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَالَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ الفتح ٢٧ .

واستدل الجمهور بأن الله جعل الإسراء آية كبرى وقال أسرى بعبده والعبد مجموع الروح والجسد ولو شاء لقال أسرى بروح عبده .

ثم إن كفار مكة أنكروا الإسراء ، وارتد بعض ضعاف الإيمان بسبب الإسراء ، ولو كان الإسراء مناما لما أنكره كفار مكة ، ولما ارتد بسببه ضعاف الإيمان ولما تميز أبو بكر الصديق بتصديقه من بين سائر الناس .

وقد ركب الرسول البراق وركوب البراق من خصائص الأجساد ، والإسراء فى حقيقته معجزة إلهية خاصة بالرسول الأمين ، ولا حرج على فضل الله ، ولا حدود لقدرته فهو سبحانه على كل شىء قدير ، قال شوقى :

يتساءلون وأنت أطهر هيكل　　بالروح أم بالهيكل الإسراء
بهما سموت مطهرا وكلاهما　　نور وروحانية وبهاء

بدأت سورة الإسراء بالحديث عن الإسراء بالنبى الأمين ، والسورة فى مجملها تتحدث عن النبى وعن القرآن الذى نزل عليه وموقف المشركين من هذا القرآن ، وفى خلال هذا الحديث تستطرد إلى ذكر بنى إسرائيل والحديث عن ماضيهم وفسادهم فى الأرض وعقوبة الله لهم كأنها تتوعد كل مكذب ومفسد بالعقاب العادل وفى هذا تهديد لكفار مكة . ولكل خارج على نطاق الإيمان وشريعة العدل والنظام الإلهى .

ويلاحظ أن وعيد الله لبنى إسرائيل على إفسادهم فى الأرض مرتين لم يذكر فى القرآن إلا فى صدر سورة الإسراء .

وقد تعددت أقوال المفسرين فى بيان القوم الذين سلطهم الله على اليهود وذهب جمهور المفسرين إلى أن المسلط عليهم فى المرة الأولى هو بختنصر البابلى وقد غزاهم سنة ٦٠٦ قبل الميلاد ، ثم ساعدهم قورش ملك الفرس سنة ٥٢٦ قبل الميلاد فعادوا لبلادهم وأعادوا بناء هيكلهم .

والمسلط عليهم فى المرة الثانية هم الرومان بقيادة تيطس سنة ٧٠ م وقد كان إذلالهم فى المرة الثانية أشد وأنكى ، وقد تفرق اليهود فى البلاد بعد هزيمتهم الثانية وأصبح تاريخهم ملحقا بتاريخ الممالك التى نزلوا فيها ، ولم يرجع اليهود إلى فلسطين إلا فى العصر الحديث .

وينبغى أن ندرك أن آيات سورة الإسراء لا تحدد تاريخا معينا لفساد اليهود . ولا قوما بأعيانهم سلطهم الله عليهم ، فإذا أردنا معرفة ذلك فلنرجع إلى التاريخ لا لنحكمه فى فهم القرآن ، ولكن لنستأنس به فقط .

وخلاصة الآيات التى تحدثت عن فساد اليهود ما يأتى :

١ — أخبر الله أن بنى إسرائيل سيفسدون فى الأرض مرتين وهذا الفساد معناه طغيان وعدوان منهم على عباد الله وخروجهم على الطريق القويم .

٢ — أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم من ينتقم منهم .

٣ ـ بعد الانتقام الأول عادوا إلى طريق الجادة فانتصروا على أعدائهم لكنهم لم يلبثوا أن عادوا للفساد فحق عليهم وعيد الله .

٤ ـ سلط الله عليهم فى المرة الثانية من أذلهم وهدم هيكلهم وقضى عليهم وعلى ملكهم .

٥ ـ ذكر الله أنه يشملهم برحمته إذا تابوا إليه فإن عادوا للفساد عاد عليهم بالعقاب .

وقد عنيت سورة الإسراء بالحديث عن مكارم الأخلاق .

فدعت إلى توحيد الله وأمرت بالإحسان إلى الوالدين وصلة الرحم والعطف على الفقير والمسكين وابن السبيل ، ونهت عن التبذير والقتل والزنا وتطفيف الكيل وأكل مال اليتيم والكبر والبطر ، وإذا قرأت الآيات من ٢٣ ـ ٣٩ رأيت دستورا أخلاقيا كريما يأمر بالفضائل ويحث على القيم وينهى عن الرذائل ويحذر من المعاصى والموبقات .

وترى أن القرآن أعظم كتاب فى التربية الأخلاقية والسلوكية وهذه التربية هى التى صاغت المجتمع الإسلامى المحمدى صياغة جديدة مهذبة ، وصار القرآن روحا جديدة يسرى فى أوصال المجتمع العربى والإسلامى فيهدم حطام الجاهلية وأوثانها ويقيم على أشلائها دولة جديدة تؤمن بالله ورسوله وتهتدى بكتابه الذى أنزله الله نورا وهدى . فترى المسلم إما عابدا فى مسجده أو ساعيا على رزقه أو مجاهدا فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وجمعت المسلمين راية جديدة شعارها الإخلاص وعمادها الحب لله ورسوله وقوتها فى تماسك المسلمين وأخوتهم وترابطهم وتساندهم حتى أصبحوا يداً واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

أوهام المشركين وحجج القرآن الكريم

فى الآيات ٣٩ إلى ٥٨ من سورة الإسراء حديث عن أوهام الوثنية الجاهلية حول نسبة البنات والشركاء إلى الله .

وخلاصة ذلك ـ أنهم جعلوا الملائكة إناثا ، ثم ادعوا أنهن بنات الله

ثم عبدوهن ، فأخطئوا في الأمور الثلاثة خطأ عظيما .

ثم تحدثت السورة عن البعث واستبعاد الكافرين اوقوعه ، وعن استقبالهم للقرآن وتقولاتهم على الرسول عليه الصلاة والسلام وأمرت المؤمنين أن يقولوا قولا آخر ويتكلموا بالتي هي أحسن .

(وفي الآيات ٥٩-٧٢) بينت السورة لماذا كانت معجزة محمد صلى الله عليه وسلم معجزة عقلية خالدة ولم تكن معجزة مادية محدودة ، فقد كذب الأولون بالخوارق فحق عليهم الهلاك إتباعا لسنة الله كما تناولت الحديث عن الإسراء وحكمته وإن الله جعله فتنة وامتحانا للناس ليتميز المؤمنون ، وينكشف المنافقون ، ويجيء في هذا السياق طرف من قصة إبليس وإعلانه أنه سيكون حربا على ذرية آدم :

يجيء هذا الطرف من القصة كأنه كشف لعوامل الضلال الذي يبدو من من المشركين ويعقب عليه بتخويف البشر من عذاب الله وتذكيرهم بنعمة الله عليهم في تكريم الإنسان وتمييزه على جميع المخلوقات وتسخير جميع الكون له حتى يفكر بعقله ويؤمن بقلبه فمن اهتدى أخذ كتابه بيمينه يوم القيامة ، ومن عمى عن الحق في الدنيا فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا.

(وفي الآيات ٧٣ - ٨٨) تستعرض سورة الإسراء كيد المشركين للرسول ومحاولتهم فتنته عن بعض ما أنزل إليه ومحاولة إخراجه من مكة ثم تأمر النبي صلى الله علية وسلم أن يمضي في طريقه يقرأ القرآن ويؤدي الصلاة ويدعو الله أن يحسن مدخله ومخرجه وتذكر رسالة القرآن بأنها شفاء لأمراض الجاهلية ورحمة بالجماعة الإسلامية .

(وفي الآيات ٨٨ - ١١١) نجد القسم الأخير من السورة ويستمر الحديث في هذه الآيات عن نزول القرآن وإعجازه بينما يطلب كفار مكة خوارق مادية ويطلبون نزول الملائكة ويقترحون أن يكون للرسول بيت من زخرف أو جنة من نخيل وعنب تفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا من الماء ، أو أن يرقى هو في السماء ثم يأتيهم بكتاب ملموس محسوس فيه شهادة بأنه مرسل من عند الله . إلى آخر

هذه المقترحات التي يمليها العنت والمكابرة ، لا طلب الهدى والاقتناع ، ويرد الله على هذا كله بأنه خارج عن وظيفة الرسول وطبيعة الرسالة :

فالرسول بشر يوحى إليه وليس إلها يتحكم في مظاهر الكون ، وقد سبق أن أعطى الله موسى معجزات مادية فكذب بها فرعون وجحد نبوة موسى فكانت العاقبة أن أغرق الله فرعون ومن معه من المكذبين .

إن طريقة القرآن الكريم هي طريقة الدعوة الهادفة المتأنية وقد نزل مفرقا ليقرأه الرسول على قومه في هدوء وتؤدة ، وليجيب على أسئلة السائلين وليكون كتاب الحياة يحياها مع المؤمنين يعلمهم دينهم ويرد عنهم دعاوى أعدائهم ويلفت انظارهم إلى الكون وما فيه حتى يعبدوا الله ويسجدوا له عن خشوع ويقين ، وتختم سورة الإسراء بحمد الله وتنزيهه عن الولد والشريك في الملك كما بدئت بتنزيه الله وتسبيحه في أول السورة :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾

وفي آخر السورة :

﴿ وَقُلْ الحَمْدُ للهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكنْ لَهُ شَرِيكٌ فى المُلْك وَلَمْ يكنْ لَهُ وَلىٌّ مِنَ الذُّل وَكَبِّرْهُ تَكْبيرًا ﴾ الإسراء ١١١ .

من أسرار الاعجاز في سورة الاسراء

يقول الله تعالى في سورة الإسراء :

﴿ قلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجنُّ عَلى أَنْ يَأْتوا بمِثْلِ هَذَا القرْآن لا يَأْتونَ بمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض ظَهيرًا ﴾ . الإسراء ٨٨ .

لقد كانت هناك معركة فكرية ونفسية بين القرآن وبين المشركين الصق المشركون فيها التهم بالرسول عليه الصلاة والسلام فرموه بالسحر والجنون وافتراء القرآن من عند نفسه ، وقد نزلت سورة الإسراء في ذروة هذه المعركـة واحتدامها بعد أن مات أبو طالب عم الرسول وماتت زوجته خديجة فكان

الإسراء تسرية الرسول الأمين ، وكانت سورة الإسراء قلعة من حصون البيان والجدال بالحجة الدامغة ، والدليل الواضح .

إنك تحس عند قراءة السورة بنفحات حية تصور عنف المشركين وضلال عقيدتهم وتبرز أسلوب الدعوة الجديد الذي يملك الحجة على قضية الالوهيـة ويسوق الأدلة على قضيته من سجلات التاريخ ومن واقع الكون ومشاهده،ومن التحدى بالقرآن وتأكيد عجزهم عن الإتيان بمثله .

والقرآن من خلال حديثه ينتقل من فن إلى فن ومن وصف للاسراء إلى حديث عن تاريخ اليهود إلى رد على دعوى المشركين إلى ذكر قصص لآدم وإبليس ، وفرعون ، وموسى .

ويربط القرآن بين هذه الأفكار المتناثرة فى الظاهر برباط قوى متين ، يؤكد أنه كتاب الله .

وقد تعرضت علوم السابقين للنقض والتعديل ، ولم يبق كتاب منزه عن النقض والعيب إلا هذا الكتاب .

وفى ختام هذا الحديث يمكننا أن نرجع أهـداف سورة الإسراء إلى الأمور الآتية :

١ – معجزة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس .

٢ – تاريخ بنى إسرائيل وإفسادهم فى الأرض وعقوبة الله لهم .

٣ – جملة من الآداب يجب على المسلمين أن يتحلوا بها حتى تظل رابطتهم قوية متماسكة .

٤ – بيان أن كل ما فى السموات والأرض مسبح لله .

٥ – الكلام عن البعث مع إقامة الأدلة على إمكانه .

٦ – الرد على المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة من الأوثان والأصنام .

٧ – الحكمة فى عدم إنزال المعجزات التى اقترحوها على محمد صلى الله عليه وسلم .

٨ – قصص سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس عن السجود .

٩ - تعداد بعض نعم الله .

١٠ - طلب المشركين من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوافقهم فى بعض معتقداتهم وإلحاحهم فى ذلك .

١١ - أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإقامة الصلاة والتهجد فى الليل .

١٢ - بيان إعجاز القرآن وأن البشر يستحيل عليهم أن يأتوا بمثله .

١٣ - قصص موسى مع فرعون .

١٤ - الحكمة فى إنزال القرآن منجما .

١٥ - تنزيه الله عن الولد والشريك والناصر والمعين .

دروس من سورة الكهف

سورة مكية

المشهور بين العلماء أن سورة الكهف مكية كلها ، وأنها من السور التى نزلت جملة واحدة كما جاء فى الخبر الذى أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « نزلت سورة الكهف جملة » .

وقد روى ذلك أيضاً عن بعض الصحابة ، واختاره الدانى ، ومشى عليه أكثر أهل التفسير والمتكلمين فى علوم القرآن وهناك روايات أخرى تخالف هذا المشهور فتقرر أن السورة مكية إلا بعض آياتها ، فأنه مدنى .

وفى المصحف الفؤادى المطبوع بمصر ، سورة الكهف مكية إلا آية ٣٨ ومن آية ٨٣ إلى غاية ١٠١ فمدنية ، وآياتها ١١٠ نزلت بعد الغاشية .

وقال الفيروزبادى : « السورة مكية بالاتفاق وفيها إحدى عشرة آية مختلف فيها بين مكيتها ومدنيتها ، وهى الآيات : ١٣ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٨٤ ، ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٣ (١) » .

وينبغى أن يعلم أن كثيرا مما ذكر أنه مدنى تضمنته سورة مكية ، أو مكى تضمنته سورة مدنية ، هو موضع خلاف بين العلماء لإختلاف الرواية فيه ، أو لانبناء الحكم فيه على اجتهاد واستنباط من القائل به وفى ذلك يقول ابن الحصار فيما نقله عنه السيوطى فى الإتقان : « كل نوع من المكى

---

(١) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ ، تحقيق الأستاذ محمد على النجار ، جـ ١ ص ٢٩٧ .

والمدنى منه آيات مستثناة ، إلا أن من الناس من اعتمد فى الاستثناء على الإجتهاد دون النقل (١) » .

القصص فى سورة الكهف

القصص هو العنصر الغالب فى هذه السورة ، ففى أولها تجىء قصة أصحاب الكهف وبعدها قصة أصحاب الجنتين ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس . وفى وسطها تجىء قصة موسى مع العبد الصالح . وفى نهايتها قصة ذى القرنين . ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة فهو وارد فى إحدى وسبعين آية من عشر ومئة آية : ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق على القصص أو تعقيب عليه .

ويلتقى هذا القصص حول فكرة أساسية للقرآن وهى إثبات أن البعث حق وأن المؤمن يكافــأ بحسن الجزاء ، وأن الكافر يلقى جزاء عنته وكفره فى الدنيا أو الآخرة .

قصة اصحاب الكهف

فى قصة أصحاب الكهف يتجلى صدق الإيمان وقوة العقيدة والإعراض عن كل ما ينافيها إعراضا عمليا صارما ، لاتردد فيه ولا مواربة ، فتية رأوا قومهم فى الضلال يعمهون ، وفى ظلمات الشرك يتخبطون ، لا حجة لهم ولاسلطان على مايزعمون، وأحسوا فى أنفسهم غيرة على الحق لم يستطيعوا معها أن يبقوا فى هذه البيئة الضالة بأجسامهم ، ولو خالفوها بقلوبهم ، فتركوا أوطانهم وتركوا مصالحهم واعتزلوا قومهم وأهليهم ، وخرجوا فارين متجنبين الشطط وأهل الشطط ، وآثروا كهفا يأوون إليه فى فجوة منه ، لايراهم فيه أحد ، ولا يؤنسهم فى وحشتهم إلا كلبهم .

ذلك هو مغزى القصة الخلقى ، وفيه ما فيه من إرشاد وإيحاء وتمجيد

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن ١ — ١٧ .

لأخلاق الشرف والرجولة والثبات على العقيدة والتضحية فى سبيلها .

أما المعنى العام الذى تتلاقى فيه القصة مع غرض السورة فهو إثبات قدرة الله على مخالفة السنن التى ألفها الناس وظنو أنها مستعصية عليه جل شأنه ، أن تبدل أو تحول كما هى مستعصية على كل مخلوق ، وشتان بين قدرة الخالق والمخلوقين ، وهذا ما تشير إليه القصة فى ثناياها إذ يقول الله عز وجل :

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِم لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعةَ لا رَيْبَ فِيهَا ﴾ الكهف ٢١ .

قصة موسى والخضر

أما قصة موسى وفتاه والعبد الصالح فلبابها ومغزاها هو إثبات قصور الخلق مهما سمت عقولهم ، وكثرت علومهم أمام إحاطة الله وعلم الله . وهكذا ترتبط – فى سياق السورة – قصة موسى والعبد الصالح ، بقصة أصحاب الكهف فى ترك الغيب لله الذى يدبر الأمر بحكمته ، وفق علمه الشامل الذى يقصر عنه البشر الواقفون وراء الأستار ، لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار .

لقد وقف موسى خطيبا فى بنى إسرائيل فأجاد وأبدع فى خطبه ، فقال له أحد المستمعين ما أفصحك يانبى الله هل فى الأرض من هو أكثر علما منك ؟ قال موسى لا ، فأخبره الله أن فى الأرض من هو أكثر علما منه ، فقال موسى يارب دلنى عليه حتى أذهب إليه فأتعلم منه .

وضرب موسى لنا مثلا رائعا فى الرحلة لطلب العلم وتحمل الصعاب والمشقات بهمة الرجال وعزيمة الأبطال .

إذا هم ألقى همه بين عينه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

سار موسى مع تابع له هو يوشع بن نون ومعهما حوت فى مكتل ،

وبلغ مجمع البحرين : بحر الروم وبحر القلزم . أى البحر الأبيض والبحر الأحمر ، أو أنه مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر .

وفى المكان الذى أراد الله أن يلتقى فيه نبى بنى إسرائيل بعبده الصالح ، فقد موسى حوته وعاد ليبحث عنه فوجد رجلا نحيـــل الجسم ، غائر العينين ، عليه دلائل الصلاح والتقوى ، فسلم عليه موسى ، وتلطف معه فى القول وأبدى رغبته فى اتباعه لبتعلم منه العلم ، فاشترط الخضر على موسى الصبر والتريث فقال موسى :

﴿ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ الكهف ٦٩

وانطلق موسى مع الخضر فى سفينة جيدة ، وفى غفلة من أهلها أخذ الخضر لوحين من خشب السفينة فخلعهما ، فذكره موسى بأن هذا ظلم وفساد ، فالتفت الخضر إليه وقال :

﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ الكهف ٧٢

فاعتذر موسى بالنسيان ووعد أن يرافقه مع الصبر والسكوت . وسار الرجلان ثم قتل الخضر غلاما بريئا فى عمر الزهر فاحتج موسى ، وذكره الخضر بالشرط فسكت .

وفى الجولة الثالثة دخل الرجلان قرية وكان الجوع قد اشتد بهما فطلبا من أهلها طعاما فأبوا إطعامهما ورأى الخضر جدارا متداعيا أوشك أن يقع فطلب من موسى مساعدته حتى بناه وأتم بناءه واعترض موسى على هذا العمل لأن أهل القرية لايستحقون مثل هذا المعروف فهم بخلاء لؤماء ، فينبغى أن يأخذ الخضر أجرا على بناء الجدار لهم ، وافترق الرجلان بعد أن سمع موسى من الخضر سبب هذه الأعمال :

أما السفينة فكانت ملكا لجماعة من المساكين يعتمدون عليها فى كسب الرزق ووراءهم ملك ظالم يستولى على كل سفينة صالحة للعمل غصبا فخرق الخضر السفينة ليراها الملك عاطبة فيتركها ليستفيد بها أهلها ، فهو عمل مؤلم

فى الظاهر ولكنه مفيد فى الحقيقة والواقع :

وأما الغلام فقد كان مفسدا وسيشب على الفساد والإفساد وكان أبواه مؤمنين فأراد الله أن يقبض الغلام إلى جواره وأن يعوض والديه بنتا صالحة تزوجت نبيا وأنجبت نبيا .

وأما الجدار فكان ماكا لغلامين يتيمين تحدرا من رجل صالح كريم، وكان تحت الجدار كنز من المال ولو سقط الجدار لتبدد الكنز فأراد الله أن يقام الجدار ويجدد حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما حلالا طيبا لهما . .

ثم قال الخضر :

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَالَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صبْرًا ﴾ الكهف ٨٢

وقد يتساءل الإنسان عن عمل الخضر عليه السلام ، وهل هو مشروع على الإطلاق ، وهل يجوز لمن علم فى حادثة – ما – مثل ما علمه العبد الصالح من حقيقة الأمر فيها أن يخالف الظاهر ؟

وقد اهتم بعض المفسرين بترديد أمثال هذه الأسئلة والمناقشات والإجابة عنها وتخريج مايحتاج منها إلى تخريج ، كأن الأمر أمر أحكام تشريعية أو بيان لموضوعات خلافية . والواقع أنه لم يقصد بهذه القصة إلا الاقناع بأن الإنسان مهما اتسع عقله وسمت مداركه وعلا منصبه ، محدود فى علمه ، وأن كثيرا من الأمور يخفى عليه ، وأن لله عبادا قد يخصهم بنوع من العلم لايبذله لجميع الناس ، ولا يستقيم حال الدنيا على بذله لجميع الناس .

قصة ذى القرنين

تلك قصة عبد مكن الله له فى الأرض وسخر له العلم والقوة والآلات والمواصلات وآتاه من كل شىء سببا . وقد استغل هذه الإمكانيات فى عمل مثمر نافع يعم نفعه ويبقى أثره وقد تحرك ذوالقرنين إلى المغرب غازيا فاتحا ، محاربا مجاهدا وسار النصر فى ركابه حتى انتهى إلى عين اختلط ماؤها

وطينها فتراءى له أن الشمس تغرب فيها وتختفي وراءها وظن أنه ليس وراء هذه العين مكان للغزو ولا سبيل للجهاد ، ولكنه رأى عندها قوماً هاله كفرهم ، وكبر عليه ظلمهم وفسادهم فخيره الله بين قتالهم أو إمهالهم ودعوتهم للعدل والإيمان فاختار إمهالهم وقام فيهم مدة ضرب على يد الظالم ونصر المظلوم وأخذ بيد الضعيف ، وأقام صرح العدل ، ونشر لواء الإصلاح وقد وضع لهم دستور الحكم العادل فقال :

[﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ۝ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ الكهف ٨٧ ، ٨٨ .

وقد عاد ذو القرنين إلى الشرق فسار غازيا مجاهدا حتى انتهى إلى غاية العمران في الأرض وهناك وجد أقواما تطلع الشمس عليهم ، ولكن ليس لهم بيوت تسترهم ، أو أشجار تظلهم ولعلهم كانوا على حال من الفوضى ونصيب من الجهل .. فبسط حكمه عليهم ونفذ فيهم دستور العدل ومكافأة المحسن ومعاقبة المسيء الذى سبق ذكره ، ثم تركهم إلى الشمال غازيا مجاهدا مظفرا منصورا ، حتى انتهى إلى بلاد بين جبلين يسكنها أقوام [لا تكاد تعرف لغاتهم ، أو يفهم فى الحديث مرماهم ، ولكنهم قد جاوروا يأجوج ومأجوج ، وهم قوم مفسدون فى الأرض ، وأوزاع من الخلق ضالون مضلون .]

وقد لجأ الأقوام إلى ذى القرنين ليحول بينهم وبين المفسدين وشرطوا على أنفسهم نولا يدفعونه إليه ، وأموالا يضعونها بين يديه ولكن ذا القرنين أجابهم إلى طلبهم ورد عطاءهم وقال لهم :

[﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ الكهف ٩٥ .

ثم طلب إليهم أن يعينوه على ما يفعل فحشدوا له الحديد والنحاس ، والخشب والفحم ، فوضع بين الجبلين قطع الحديد وحاطها بالفحم والخشب ، ثم أوقد النار ، وأفرغ عليه ذائب النحاس ، واستوى كل

ذلك بين الجبلين سدا منيعا قائما ، ما استطاعت يأجوج ومأجوج أن تظهره لملاسته ، أو تنقبه لمتانته ، وأراح الله منهم شعبا كان يشكو من أذاهم ، ويألم من عدوانهم .

ونظر ذو القرنين الى العمل الضخم الذى قام به ، فلم يأخذه البطر والغرور ولكنه ذكر الله فشكره ، ورد اليه العمل الصالح الذى وفقه اليه وتبرأ من قوته إلى قوة الله ، وأعلن عقيدته فى البعث والحشر وإيمانه بأن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة ، فتعود الأرض سطحا أجرد مستويا وهكذا تختم هذه القصة بتأكيد قدرة الله على البعث :

﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ الكهف ٩٨ .

« وبذلك تنتهى قصة ذى القرنين ، النموذج الطيب للحاكم الصالح ، يمكنه الله فى الأرض ، وييسر له الأسباب ، فيجتاح الأرض شرقا وغربا ، ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر ، ولا يطغى ولا يتبطر ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادى ، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان ، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق ولا يسخر أهلها فى أغراضه وأطماعه .. إنما ينشر العدل فى كل مكان يحل به ، ويساعد المتخلفين ، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل ، ويستخدم القوة التى يسرها الله له فى التعمير والإصلاح ودفع العدوان واحقاق الحق . ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضله ، ولا ينسى وهو فى إبان سطوته قدرة الله وجبروته ، وأنه راجع إلى الله »(١) .

---

(١) فى ظلال القرآن ج ١٦ ص ١٥ ط ١ .

أهداف سورة الكهف

نزلت سورة الكهف بمكة فى وقت اشتدت فيه حملة القرآن على المنكرين المكذبين بيوم الدين . وقد نزلت قبلها سورة الغاشية وهى سورة تبدأ وتنتهى بحديث الساعة وإياب الناس جميعا إلى الله ليحاسبهم على ماقدموا .

ونزل بعد سورة الكهف سورة النحل وعدة سور تحـدثت عن البعث والجزاء وأثبتت وحدانية الله وقدرته وذكرت عقوبته للمكذبين وأخذه على يد الظالمين .

لقد كان كفار مكة ينكرون البعث، ويستبعدون وقوعه فى عناد وإصرار فتكفل القرآن بمناقشتهم وتفنيد آرائهم وأثبت قدرة الله على البعث والجزاء ، وقدم الأدلة على هذه القضية وساق فى سورة الـكهف عددا من الحجج والبراهين على حقيقتها مبرزا ذلك فى صورة واضحة قد اكتملت فيها عناصر القوة والروعة والإفحام . فالمحور الموضوعى لسورة الـكهف هو تصحيح العقيدة ، وتأكيد قدرة الله على البعث والجزاء ، وتصحيح المفاهيم الخاطئة .

ونستطيع أن نجمل مظاهر ذلك فيما يأتى :

١ ــ بدأت السورة بقوله تعالى :

﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا * ماكثين فيها أبدا ﴾ . الكهف ١ — ٣

وهى تتحدث فى هذا البدء عن الدار الآخرة وما فيها من بأس شديد يصيب أقواما ، وأجر حسن يفوز به أقوام آخرون .

وختمت بقوله تعالى :

﴿ قُلْ إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ . الكهف ١١٠ .

وهى تتحدث فى هذا الختام عن الدار الآخرة أيضا وعمن يرجو لقاء ربه، وما يجب عليه أثرا لهذا الرجاء والإيمان من عمل صالح، وتوحيد لله لايخالطه اشراك.

وهكذا يتلاقى أول السورة وآخرها: أولها يتحدث عن الآخرة بطريق التقرير لها، وبيان مهمة القرآن فى إثبات ما يكون فيها من الجزاء إنذارا وتبشيرا، وآخرها يتحدث عن هذه الحقيقة التى تركزت وتقررت ويحاكم الناس إليها فى الإيمان والعمل الصالح.

ومما يلاحظ أن آيات البدء قد ذكر فيها أمر الذين قالوا اتخذ الله ولدا، من انذارهم وبيان كذبهم وتخليطهم وجهلهم على الله، وذلك هو قول الذين يشركون بالله، ويعتقدون ماينافى وحدانيته وتنزيهه، وأن آية الختام قررت ﴿إنما إلهكم إله واحد﴾ وأن على من يؤمن به، ويرجو لقاءه ألا يشرك بعبادته أحدا، فتطابق الأول والآخر فى إثبات الوحدانية والتنزيه لله جل وعلا، كما تطابقا فى أمر البعث والدار الآخرة.

٢ — أما فى أثناء السورة وما بين بدئها وختامها، فقد جاء أمر البعث عدة مرات:

(أ) جاء فى مقدمة قصة أصحاب الكهف التى ساقها الله حقيقة من حقائق التاريخ الواقعية، دليلا على قدرته، وتنظيرا لما ينكره الكافرون من أمر البعث والنشور:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ الكهف ٩، وفى ثنايا هذه القصة:

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِم لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ الكهف ٢١.

فهى تقرر أن أصحاب الكهف آية من آيات الله، وأنهم مع غرابة أمرهم لايعدون فى جانب القدرة الإلهية عجبا، فإنما هم فتية آمنوا

بربهم ، وأووا إلى الكهف فرارا بعقيدتهم، فضرب الله على آذانهم فيه مدة من الزمن ثم بعثهم ، وإذن فالله قادر على أن يضرب على آذان الناس جميعا فى هذه الدار بالموت ، كما يضرب على آذانهم بالنوم، ثم يبعثهم إلى الدار الآخرة كما بعث هؤلاء الفتية ، وما ذلكم على الله بعزيز ، ولا هو فى قدرته بعجيب ، وتقرر أن العبرة من بعثهم والاعثار عليهم هى أن يعلم الناس أن وعد الله حق ، وأن الساعة لاريب فيها .

(ب) وجاء أمر البعث مرة ثانية فى هذه السورة حين قررت أن الحق من الله ، وأن كل امرئ مخير فى الإيمان أو الكفر :

﴿ وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

فهناك دار أخرى غير هذه الدار يحاسب فيها كل امرئ ، ويجزى بما يستحقه :

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِم سُرَادِقُهَا ﴾ الكهف ٢٩

وللذين آمنوا وعملوا الصالحات :

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَار ﴾ الكهف ٣١ .

(ج) وجاء أمر البعث فى المثل الذى ضربه الله للناس عن صاحب الجنتين وزميله، وماكان من إنكاره قدرة الله ، وشكه فى الساعة،ونصح صاحبه له وتبرئه منه وأن الله قد أحال الجنتين صعيدا زلقا ، وحينئذ تنبه الكافر فقال :

﴿ يالَيْتَنِى لمْ أُشْرِك بربى أحدًا ﴾ الكهف ٤٢

(د) وجاء أمر البعث بعد هذا فى المثل الذى ضربه الله بالحياة الدنيا ، يكون فيها نبات وزينة ثم يصبح ذلك كله هشيما تذروه الرياح ، وتنتهى الدنيا ومافيها، قد عقب الله على هذا المثل بذكر الجبال وسيرها ، والأرض

وبروزها ، والحشر وشموله ، والعرض على الله ، ووضع الكتاب ، واشفاق المجرمين مما وفيه ، وقولهم :

﴿ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّاأَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ الكهف ٤٩ .

(ه) وجاء فى السورة أيضا إشارة إلى قصة آدم وإبليس ، حيث طلب الله من الثانى أن يسجد للأول فأبى ، فتقررت بينهما العداوة مُنذ ذلك اليوم إلى أبد الدهر. وحذر الله أبناء آدم من أن يتخذوا الشيطان و ذريته أولياء من دونه ، مع هذه العداوة المتأصلة ، ثم ذكر لهم أمرا من أمور الآخرة بعد هذا التحذير من اتخاذ الأولياء أو الشركاء — حيث ينادى الشركاء فلا يجيبون ، ويستجار بهم فلا يجيرون ؛ وتبرز الجحيم فيراها المجرمون ويظنون أنهم مواقعوها ، ولا يجدون عنها مصرفا .

وفى هذا الأسلوب جمع بين المبدأ والمعاد ، ووضع لقضية الخلق والبعث مقترنتين بين يدى العقل ، ليدرك الإنسان أنه منذ أول نشأته هدف لعدو مبين يحاول إضلاله وافتته عن الطريق المستقيم حسدا له وانتقاما منه ، وأن أخطر هذا الإضلال هو الوصول إلى حد الثقة بالعدو المبين ، واتخاذه وليا من دون الله يتبع أمره وينصر هواه ، وأن هذا العدو المخاتل سيكون أمره يوم الجزاء كسائر الشركاء ،يزينون الكفر والعصيان ما داموا فى الدنيا . حتى إذا جاء أمر الله أعلنوا براءتهم ممن اتبعوهم وضلوا بسببهم :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُر فَلمَّا كفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فى النَّار خَالِدَيْن فِيهَا وَذٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ الحشر ١٦ ، ١٧ .

(و) وجاء فى هذه السورة أيضا — مما يتصل ببراهين البعث — قصة موسى وفتاه والعبد الصالح . وهى قصة عظيمة حافلة بالفوائد والمعانى الجليلة. وفيها يساق الحديث على نحو يشعر معه كل سامع شعورا قويا بأن الله

علما فوق علم الناس . وتصريفا للكون على سنن منها ما هو معروف ومنها ما هو خفى . وإذا آمن الناس بهذا واطمأنوا إليه . لم يعد هناك مجال للعجب من أمر الساعة . فما هى إلا تغيير يحدثه خالق الكون ومالك ناصيته : فإذا السنن المعروفة تحل محلها سنن أخرى ، ومن قدر على إنشاء السنن قدر على تغييرها . وبهذا يؤمن كل عاقل بصدق ما أخبر به المعصوم من كل أمر يبدو أمام العقول عجيبا : وهو فى قدرة الله غير عجيب :

(ز) جاءت السورة أيضا — بعد هذه القصة — بقصة أخرى عن عبد مكن الله له فى الأرض وآتاه من كل شىء سببا ، حيث سخر له العلم والقوة وأسبابا أخرى كثيرة ، ذلك هو « ذو القرنين » وقد لجأ إليه قوم ليحول بينهم وبين المفسدين ، فأنجدهم وأعانهم وجعل الله عمله فى ذلك رحمة للناس يبقى ما بقيت هذه الحياة ، فإذا جاء وعد الله ضاعت السدود والحوائل وأصبحت دكا ، وترك الناس مضطربين يموج بعضهم فى بعض ، ثم ينفخ فى الصور فيجمعون جميعا ، وتعرض يومئذ للكافرين جهنم عرضا ، فيبصرون وقد كانت أعينهم من قبل فى غطاء ، ويسمعون وقد كانت آذانهم من قبل فى صمم . وهكذا نجد القصـــة قد انتهت إلى أمر البعث والدار والآخرة وما فيها وتخلصت إليه فى براعة وقوة ، مذكرة به ، منذرة ما هنالك من الأهوال والشدائد .

(ح) ثم تأخذ السورة بعد ذلك فى تهديد الكافرين الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، وتبين ما أعد لهم ، وتوازن هؤلاء جميعا بالذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أعد لهم ، ويأتى ختامها بعد إثبات القدرة والعظمة لله وأن كلماته لا تنفد ولو كتبت بماء البحار — والمراد آياته فى الكون وتصريفه وآثار قدرته — فتذكر رسالة الرسول وأنها عن وحى من هذا الخالق القادر الواحد ، وتتوجه بعد ذلك إلى جميع الناس بصيغة من صيغ العموم ، هى لفظ « من » فتقول :

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ الكهف ١١٠ .

بهذا يتجلى للنـاظر فى السورة أنها منتظمة النسق ، مطردة السيـاق ، واضحة الغرض ، قوية الأسلوب ، متماسكة فى أولها وآخرها وأثنائها . يجول فيها معنى واحد تلتقى عليه الآيات والأمثال والقصص والوعد والوعيد والتذكير والبيان . ولذلك يقول الله عز وجل فى آية من آياتها :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ الكهف ٥٤ .

دروس من سورة مريم

سورة مريم مكية نزلت بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة وقبل الإسراء وكانت الهجرة إلى الحبشة فى السنة السابعة من البعثة ، وكان الإسراء فى السنة الحادية عشرة للبعثة ، قبل الهجرة إلى المدينة بسنة وشهرين .

أى أن سورة مريم نزلت بعد السنة السابعة من البعثة وقبل السنة الحادية عشرة .

وقد سميت هذه السورة بهذا الأسم لذكر قصة مريم فيها وعدد آياتها (٩٨) آية ، وعدد كلماتها (١١٩٢) كلمة .

أهداف السورة

الأهداف الأساسية لسورة مريم هى تنزيه الله عن الولد والشريك ، وإثبات وحدانية الله ، والإلمام بقضية البعث القائمة على التوحيد .

هذه هى الأهداف الأساسية للسورة . كالشأن فى السور المكية غالباً .

والقصص هو مادة هذه السورة . فهى تبدأ بقصة زكريا ويحيى . فقصة مريم ومولد عيسى ، فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه . . ثم تعقبها بإشارات إلى النبيين : إسحاق ويعقوب ، وموسى وهارون ، وإسماعيل ، وإدريس . وآدم ونوح . ويستغرق هذا القصص حوالى ثلثى السورة ، ويستهدف إثبات الوحدانية والبعث ، ونفى الولد والشريك وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين .

ومن ثم بعض مشاهد القيامة وبعض الجدل مع المنكرين للبعث ، واستنكار للشرك ودعوى الولد ، وعرض لمصارع المشركين والمكذبين فى الدنيا وفى الآخرة وكله يتناسق مع اتجاه القصص فى السورة ويتجمع حول محورها الأصيل .

« وللسورة كلها جو خاص يظللها ويشيع فيها ويتمشى فى موضوعاتها .. » إن سياق هذه السورة معرض للانفعالات والمشاعر القوية . . الانفعالات فى النفس البشرية ، وفى « نفس » الكون من حولها . فهذا الكون الذى نتصوره جماد لا حس له يعرض فى السياق ذا نفس وحس ومشاعر وانفعالات ، تشارك فى رسم الجو العام للسورة حيث نرى السماوات والأرض والجبال تغضب وتنفعل حتى لتكاد تنفطر وتنشق وتنهد استنكارا :

﴿ أن دعوا للرحمن ولدا وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ سورة مريم ٩١ و٩٢ .

« أما الانفعالات فى النفس البشرية فتبدأ مع مفتتح السورة وتنتهى مع ختامها والقصص الرئيسى فيها حافل بهذه الانفعالات فى مواقفه العنيفة العميقة . وبخاصة فى قصة مريم وميلاد عيسى » (١) .

القصص فى سورة مريم

القصص فى سورة مريم امتداد للقصص فى سورة الكهف . فهناك ظهرت قدرة الله البالغة فى حفظ أصحاب الكهف وإحيائهم بعد موتهم ، وفى إعطاء الرحمة والعلم للخضر عليه السلام ، وفى منح ذى القرنين أسباب الملك والسلطان والسيادة ، وهنا تظهر رحمة الله وفضله على زكريا إذ يمنحه يحيى على كبر وشيخوخه ، وتظهر قدرة الله البالغة فى خلق عيسى من أم دون أب ، ثم نعمته السابغة على الأنبياء والرسل ورعاية الله لهم حتى يؤدوا رسالتهم ، ويظهر ذلك فى قصة إبراهيم مع أبيه ، وقصة موسى مع قومه ، وقصة إسماعيل الصادق الوعد ، وقصة إدريس الصديق النبى .

---

(١) فى ظلال القرآن ٢٤/١٦ ط١ .

زكريا ويحيى

ذُكرت حلقة من هذه القصة فى سورة آل عمران ، ولكنها فى سورة مريم تخالف ماسبق منها فى أسلوبها وسياقها وما فيها من زيادة ونقص .

إن السمة الغالبة هنا هى سمة الرحمة والرضا والاتصال فهى تبـدأ بذكر رحمة الله لعبده زكريا وهو يناجى ربه نجاء خفيا .

فتصور أحاسيس ذلك الشيخ الهرم ورغبته فى الذرية والولد ودعائه لله خفية بعيدا عن زوجته وعن الناس .

ثم ترسم لحظة الاستجابة فى رعاية وعطف ورضا .. فالرب ينادى عبده من الملأ الأعلى « يازكريا » ويعجل له البشرى :

﴿ إِنَّا نبَشِّرُكَ بغلامٍ ﴾

ويغمره بالعطف فيختار له اسم الغلام الذى بشره : « اسمه يحيى » . وهو اسم فذ غير مسبوق : ﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ . .

وكأنما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء ، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء فإذا هو يواجه الواقع . . إنه رجل شيخ بلغ من الكبر عتيا ، وهن عظمه واشتعل شيبه وامرأته عاقر لم تلد فى فتوته وصباه : فكيف ياترى سيكون له غلام ؟ :

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ مريم ٨

ثم يأتيه الجواب عن سؤاله . بأن هذا أمر هين يسير أمام قدرة الله فهو سبحانه الخالق الفعال لما يريد . وهو سبحانه الذى جعل العاقر لا تلد . وجعل الشيخ الفانى لا ينسل . وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سبب العقم ؛ وتجديد قوة الإخصاب فى الرجل وهو على كل شيء قدير .

وتمت ولادة يحيى وكبر وترعرع وأحكم الله عقله وهيأه لرعاية ميراث

أبيه فى حزم وعزم ولم يكن هذا الميراث مالا أو عقارا وإنما كان رسالة الهدى ودعوة الإيمان وناداه الله :

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّة ﴾ مريم ١٢

والكتاب هو التوراة كتاب بنى إسرائيل من بعد موسى وعليه كان يقوم أنبياؤهم يعملون به ويحكمون . وقد نودى يحي ليحمل العبء وينهض بالأمانة فى قوة وعزم . لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة . .

وقد زود الله يحي بالحكمة فى صباه ووهبه الحنان والعطف لتأليف القلوب واجتذابها إلى الخير وآتاه الطهارة والتقوى فكان موصولا بالله عابدا له مجـاهدا فى سبيله يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يخشى فى الله لومة لائم .

حكمة خلق عيسى

انتقلت السورة من قصة ميلاد يحي إلى قصة ميلاد عيسى وقد تدرج السياق من القصة الأولى ووجه العجب فيها هو ولادة العاقر من بعلها الشيخ ، إلى الثانية ووجه العجب فيها هو ولادة العذراء من غير بعل وهى أعجب وأغرب :

وإذا نحن تجاوزنا حادث خلق الإنسان أصلا وإنشائه على هذه الصورة فإن حادث ولادة عيسى ابن مريم يكون أعجب ما شهدته البشرية فى تاريخها كله ويكون حادثا فذا لا نظير له من قبله ولا من بعده .

والبشرية لم تشهد خلق نفسها . وهو الحادث العجيب الضخم فى تاريخها لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب ولا أم . وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث . فشاءت الحكمة الإلهية أن تبرز العجيبة الثانية فى مولد عيسى من غير أب على غير السنة التى جرت منذ وجد الإنسان على هذه الأرض. ليشهدها البشر لم تظل فى سجل الحياة الإنسانية بارزة فذة تتلفت إليها

الأجيال . إن عز عليها أن تلتفت إلى العجيبة الأولى التي لم يشهدها إنسان !

لقد جرت سنة الله فى امتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى فى جميع الفصائل بلا إستثناء .

حتى المخلوقات التى لا يوجد فيها ذكر وأنثى متميزان تتجمع فى الفرد الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث .. جرت هذه السنة أحقابا طويلة حتى استقر فى تصور البشر أن هذه هى الطريقة الوحيدة ونسوا الحادث الأول . حادث وجود الإنسان لأنه خارج عن القياس . فأراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ليذكرهم بحرية القدرة وطلاقة الإرادة . وأنها لا تحتبس داخل النواميس التى تختارها . ولم يتكرر حادث عيسى لأن الأصل هو أن تجرى السنة التى وضعها الله وأن ينفذ الناموس الذى اختاره . وهذه الحادثة الواحدة تكفى لتبقى أمام أنظار البشرية معلما بارزا على حرية المشيئة وعدم احتباسها داخل حدود النواميس :

﴿ ولِنَجْعَلَهُ آيةً للنَّاسِ ﴾ .

ونظرا لغرابة الحادث وضخامته فقد عز على فرق من الناس أن تتصوره على طبيعته وأن تدرك الحكمة فى إبرازه . فجعلت تضفى على عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ صفـــات ألوهية . وتصوغ حول مولده الخرافات والأساطير ، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب ـ وهى إثبات القدرة الإلهية التى لا تتقيد ـ تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد . والقرآن فى هذه السورة يقص كيف وقعت هذه العجيبة ويبرز دلالاتهـــا الحقيقية وينفى تلك الخرافات والأساطير .

قصة ميلاد عيسى

وهب الله مريم التقوى واليقين ورزقها من فضله بغير حساب وفى يوم ما اعتكفت مريم كعادتها . وتوارت من أهلها واحتجبت عن أنظارهم . وبينا هى فى خلوتها . مطمئنة إلى انفرادها . إذ ظهر أمامها رجل مكتمل سوى الخلقة فانتفضت انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل فى خلوتها ،

فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد به وتستثير مشاعر التقوى فى نفس الرجل ، والخوف من الله والتحرج من رقابته فى هذا المكان الخالى . ولكن الرجل السوى هدأ من روعها وأعاد إليها طمأنينتها وأخبرها أنه ملاك أرسله الله إليها لحكمة إلهية وفضل ربانى :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غلامًا زَكِيًّا ﴾ مريم ١٩ .

وتدرك مريم شجاعة الأنثى المهددة فى عرضها ! فتسأل فى صراحة وحجة قائلة :

﴿ أَنَّى يَكون لى غلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ مريم ٢٠ .

فهى لم تخالط رجلا فى نكاح ولا فى سفاح فأخبرها الملاك أن هذا الحمل سيتم بقدرة الله وحده وهو أمر هين أمام هذه القدرة التى تقول للشيء كن فيكون وقد أراد الله أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس وعلامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته .

﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ مريم ٢١ .

ثم مضى الملاك واختفى . وتم الحمل بقدرة الله ، وجلست مريم حائرة تفكر فى أمر نفسها وتخيلت ما سيقوله الناس عن عذراء تحمل وتلد من غير أن يكون لها بعل ، وفى حدة الألم ومرارة الخوف نظرت إلى الطفل فى حسرة واكتئاب ، وجعلت تتمنى لو ضمها القبر . وفارقت هذا العالم قبل أن تصير أما من غير أن تتزوج فقالت :

﴿ يَا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾ مريم ٢٢ .

لكنها ما لبثت أن سمعت صوت وليدها فبدد مخاوفها وكفكف دموعها . وناداها من تحتها :

﴿ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ مريم ٢٤

أى جدولا يجرى ماؤه فى تلك البقعة الجرداء والأرجح أنه جرى

للحظته من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء فى الجبل . وهذه النخلة التى تستندين إليها هزيها فتتساقط عليك رطبا . فهذا طعام وذاك شراب والطعام الحلو مناسب للنفساء . والرطب والتمر من أجود طعام النفساء :

﴿ فكلى واشْرَبى ﴾ هنيئا ﴿ وَقَرى عَيْنًا ﴾

واطمئنى قلبا . بما ترين من قدرة الله التى أخضر بها جذع النخلة اليابسة . وطيبى نفسا بما حباك الله من جريان الماء فى تلك البقعة المقفرة واطمأنت مريم إلى فضل الله وإلى أن الله لن يتركها وحدها وإلى أن حجتها معها . هذا الطفل الذى ينطق فى المهد .

ورجعت مريم إلى قومها وعشيرتها تحمل وليدها على كتفها ، وسرعان ما شاع أمرها . وعرف خبرها . وجاء أقاربها يؤنبونها بألسنة التقريع والتأنيب ويلومونها على هذه الفعلة المنكرة ويذكرونها بشرف أسرتها وكرم أصلها . والتزمت مريم الصمت وأشارت إليهم أن كلموا هذا الوليد إن أردتم الوقوف على حقيقة الأمر .

فقال القوم لها :

(كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فى المَهْدِ صَبِيًّا) مريم ٢٩

كيف نكلم وليدا لم تكتمل أدوات نطقه . ولم تتحرك شفته إلى ثدى أمه .

فانطلق الوليد يجيبهم فى بيان وحجة وبرهان وقال :

﴿ إنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا * وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِى بالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا * والسَّلامُ علىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعثُ حيًّا ﴾ مريم ٣٠ - ٣٣ .

وهكذا يعلن عيسى - عليه السلام - عبوديته لله . فليس هو ابنه كما تدعى فرقة . وليس هو إلها كما تدعى فرقة . وليس هو ثالث ثلاثة كما تدعى

فرقه ، ويعلن أن الله جعله نبيا لا ولدا ولا شريكا . وأن الله أوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته .

اسلوب القرآن

تحس فى كلمات هذه السورة السهولة واليسر ، والرضا واللطف فهى كلمات معبرة عن معانيها ، فمعانى السورة تدور حول فضل الله على زكريا ومريم وغيرهما من الأصفياء .

ويتمثل الرضا والسلاسة واليسر فى معانى السورة كما يتمثل فى ألفاظها وفواصلها وهى : رضياً ، سرياً ، حفياً ، نجياً ...

فأما المواضع التى تقتضى الشدة والعنف ، فتجىء فيها الفاصلة مشددة على حرف الدال فى الغالب : مدّا ، ضدّا ، إدًّا ، هدّا ، أوزايا : عزا ، أزا .

ويتنوع الإيقاع الموسيقى والفاصلة والقافية ، بتنوع الجو والموضوع فى هذه السورة . فهى تبدأ بقصة زكريا ويحى فتسير الفاصلة والقافية هكذا :

« ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفيا .... الخ » مريم ٢ ، ٣ وتليها قصة مريم وعيسى فتسير الفاصلة والقافية على النظام نفسه :

﴿ واذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مرْيم إِذِ انْتَبذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجابًا فَأَرْسلْنَا إِلَيْهَا رُوحنَا فَتَمثَّل لَهَا بشَرًا سويًّا ﴾ .. الخ مريم ١٦ ، ١٧

إلى أن ينتهى القصص ، ويجىء التعقيب ، لتقرير حقيقة عيسى ابن مريم ، وللفصل فى قضية بنوته ، فيختلف نظام الفواصل والقوافى . تطول الفاصلة وتنتهى القافية بحرف الميم أو النون المستقر الساكن ، وكأنما الآيات تعبر عن حكم بعد نهاية القصة ، مستمد منها ، ولهجة الحكم تقتضى

أسلوبا تعبيريا غير أسلوب الاستعراض وتقتضى ايقاعا قويا رصينا بدل إيقاع القصة الرضى المسترسل فيقول سبحانه :

﴿ ذلِكَ عِيسى ابْنُ مرْيم قَوْلَ الْحقِّ الَّذِى فِيهِ يمْتَرونَ * ما كَانَ للهِ أَن يتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إذا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقولُ له كنْ فَيَكون﴾ الخ مريم ٣٤ و٣٥

حتّى إذا انتهى التقرير والفصل وعاد السياق إلى القصص عادت القافية الرضية المديدة :

﴿ واذْكرْ فى الْكِتَاب إبْراهِيم إنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبيًّا * إذْ قَالَ لأَبيهِ يا أَبتِ لمَ تَعْبُدُ مالا يسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئًا ﴾ الخ مريم ٤١ و ٤٢

حتى إذا جاء ذكر المكذبين وما ينتظرهم من عذاب وانتقام تغير الايقاع الموسيقى وجرس القافيه :

﴿ قلْ منْ كَانَ فى الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَن مَدًّا * حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيعْلَمُونَ منْ هُو شَرٌّ مَكَانًا وأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ .. الخ مريم ٧٥ .

وفى موضع الاستنكار يشتد الجرس والنغم بتشديد الدال :

﴿ وَقَالوا : اتَّخَذَ الرَّحْمَن وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُم شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجبالُ هَدًّا). الخ مريم ٨٨-٩٠

وهكذا يسير الايقاع الموسيقى فى السورة وفق المعنى والجو ويشارك فى إبقاء الأسلوب الذى يتناسق مع المعنى فى ثنايا السورة ، وفق انتقالات السياق من فكرة إلى فكرة ومن معنى إلى معنى .

يمكننا أن نلمح ثلاث مجموعات رئيسية فى سورة مريم :

المجموعة الأولى : زكريا ويحيى وقصة مريم وعيسى والتعقيب على هذه القصة بالفصل فى قضية عيسى التى كثر فيها الجدل ، واختلفت فيها أحزاب اليهود و النصارى .

المجموعة الثانية : تتضمن حلقة من قصة إبراهيم مع أبيه وقومه واعتزاله لملة الشرك وماعوضه الله من ذرية نسلت بعد ذلك أمة . ثم أشارت إلى قصص النبيين ومن اهتدى بهم ومن خلفهم من الغواة ، ومصير هؤلاء وهؤلاء ، وينتهى بإعلان الربوبية الواحدة التى تعبد بلا شريك :

﴿ ربُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ واصْطَبرْ لِعبَادتِهِ هلْ تَعْلَمُ لهُ سمِيًّا ﴾ مريم ٦٥ .

والمجموعة الثالثة : والأخيرة : تبدأ بالجدل حول قضية البعث وتستعرض بعض مشاهد القيامة ، وتعرض صورة من استنكار الكون كله لدعوى الشرك ، وتنتهى بمشهد مؤثرعميق من مصارع القرون :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْن ﴾

أى أمة من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل .

﴿ هلْ تحِسُّ مِنْهُمْ مِن أَحد أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ ركْزًا ﴾ مريم ٩٨

وقد جاء فى تفسير الطبرى لهذه الآية الأخيرة من سورة مريم مايأتى :

ويقول تعالى ذكره : وكثيرا أهلكنا يامحمد قبل قومك من مشركى قريش ﴿ من قرن ﴾ يعنى من جماعة من الناس إذ سلكوا فى خلافى وركوب معاصى مسلكهم :

﴿ هَلْ تحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحد ﴾

يقول فهل تحس أنت منهم أحدا يامحمد فتراه وتعاينه ﴿أو تسمع لهمْ ركْزاً﴾

يقول أو تسمع لهم صوتا بل بادوا وهلكوا وخلت منهم دورهم وأوحشت منهم منازلهم وصاروا إلى دار لاينفعهم فيها إلا صالح من عمل قدموه ، فكذلك قومك هؤلاء صائرون إلى ماصار إليه أولئك إن لم يعاجلوا التوبة قبل الهلاك » (١) .

وبذلك تنتهي سورة مريم بعد تقرير قدرة الله الفائقة وحكمته البالغة في خلق يحيي وخلق عيسى ، وتقرير قدرته سبحانه على البعث والحشر والحساب والجزاء ، ومكافأة المؤمنين ومعاقبة المعتدين .

---

(١) تفسير الطبري ١٦-١٠٢ ط ١ بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق سنة ١٣٢٨ هـ

أهداف سورة طه

نزلت سورة طه بعد سورة مريم ، وقد نزلت سورة مريم فيما بين الهجرة إلى الحبشة وحادثة الإسراء ، فيكون نزول سورة طه فى ذلك التاريخ أيضا . أى بعد السنة السابعة من البعثة وقبل السنة الحادية عشرة من البعثة .

وفى المصاحف المطبوعة بالقاهرة : سورة طه مكية الا آيتى ١٣٠ ، ١٣١ فمدنيتان وآياتها ١٣٥ آية نزلت بعد مريم .

وقال الفيروزيادى « السورة مكية اجماعاً ، وكلماتها ١٣٤١ كلمة ولها اسمان طه لافتتاح السورة بها ، وسورة موسى لاشتمالها على قصته مفصلة » (١)

معنى طه

قيل معناها يارجل ، وقيل معناها يالإنسان ، وقال آخرون هى اسم من أسماء الله وقد أقسم الله به ، وقال آخرون هى حروف مقطعة مكونة من الطاء والهاء يدل كل حرف منها على معنى واختلفوا فى ذلك المعنى اختلافهم فى آلمص وقد ذكرنا ذلك فى التعريف بسورة الأعراف ، قال ابن جرير الطبرى « والذى هو أولى بالصواب عندى من الأقوال فيه قول من قال معناها يا رجل لأنها كلمة معروفة فى عك فيما بلغنى وأن معناها يارجل » . (٢)

---

(١) بصائر : ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزبادى ص ٣٠ .
(٢) تفسير الطبرى ٦ / ٣٠ . بولاق .

« وقيل أصله طأها على أنه أمر لرسول الله بأن يطأ الأرض ، بقدميه فإنه كان يقوم الليل حتى ورمت قدماه من طول القيام . وقد أبدلت الألف من الهمزة ، والهاء كناية عن الأرض » (١) .

والمعنى طأ الأرض بقدميك يا محمد وهون على نفسك فى القيام وارأف بنفسك ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به تعبا ، بل لتسعد به وتذكر به الناس .

اهداف السورة

من أهداف سورة طه :

تيسير الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان فضل الله الواسع على رسله وأصفيائه وبيان وظيفة الرسول وحصرها فى الدعوة والتذكرة والتبشير والانذار، ثم ترك أمر الخلق بعد ذلك الى الله الواحد الذى لا إله غيره ، المهيمن على ظاهر الكون وباطنه ، الخبير بظواهر القلوب وخوافيها ، الذى تعنو له الجباه ، ويرجع إليه الناس : طائعهم وعاصيهم .. فلا على الرسول ممن يكذب ويكفر ، ولا يشقى لأنهم يكذبون ويكفرون .

ثم تعرض السورة قصة موسى من حلقة الرسالة إلى حلقة اتخاذ بنى إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر مفصلة مطولة ، وبخاصة موقف المناجاة بين الله وكليمه موسى ، وموقف الجدل بين موسى وفرعون وموقف المباراة بين موسى والسحرة . . وتتجلى فى غضون القصة رعاية الله لموسى الذى صنعه على عينه واصطنعه لنفسه ؛ وقال له ولأخيه :

﴿ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ سورة طه ٤٦

ثم تعرض السورة قصة آدم سريعة قصيرة ؛ تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطيئته ، وهدايته له ، وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى أو ضلال بعد التذكير والإنذار .

---

(١) المصحف المفسر : محمد فريد وجدى ص ٤٠٦ .

وتحيط بقصة آدم مشاهد القيامة ، وكأنما هي تكملة لما كان أول الأمر في الملأ الأعلى من خلق آدم ؛ حيث يعود الطائعون من ذريته إلى الجنة ، ويذهب العصاة من ذريته إلى النار تصديقا لما قيل لأبيهم آدم وهو يهبط إلى الأرض بعد خروجه من الجنة :

* * *

ونلحظ أن السياق يمضي في هذه السورة في شوطين اثنين :

الشوط الأول ـ يتضمن مطلع السورة بالخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ـ

﴿ مَا أَنزَلْنَا عليكَ القرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ طه ٢، ٣

ثم تتبعه قصة موسى نموذجا كاملا لرعاية الله سبحانه لمن يختارهم لإبلاغ دعوته فلا يشقون بها وهم في رعايته .

والشوط الثاني ـ يتضمن مشاهد القيامة وقصة آدم وهما يسيران في اتجاه مطلع السورة وقصة موسى . ثم ختام السورة بما يشبه مطلعها ويتناسق معه ومع جو السورة .

وللسورة ظل خاص يغمر جوها كله . . ظل علوى جليل تخشع له القلوب ؛ وتسكن له النفوس ؛ وتعنو له الجباه . . انه الظل الذى يخلعه تجلى الرحمان على عبده موسى بالوادى المقدس . في تلك المناجاة الطويلة ؛ والليل ساكن وموسى وحيد ؛ والوجود كله يتجاوب بذلك النجـاء الطويل . . وهو الظل الذى يخلعه تجلى القيوم في موقف الحشر العظيم :

﴿ وخَشَعتِ الأَصْواتُ لِلرَّحمَـٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا همْسًا ﴾ طه ١٠٨

﴿ وعَنَتِ الوُجُوهُ للحيِّ القَيُّوم ﴾ طه ١١١ .

والإيقاع الموسيقى للسورة كلها يستطرد في مثل هذا الجو من مطلعها إلى ختامها رخيا شجيا نديا بذلك المد الذاهب مع الألف المقصورة في القافية كلها تقريبا »(١) .

---

(١) في ظلال القرآن ١٦-٦٢ ، ٦٣ ط ١

بدأت سورة طه بمقدمة مؤثرة عن القرآن وعن صفات الله وأسمائه الحسنى :

ثم قص الله على رسوله حديث موسى . نموذجا لرعايته للمختارين لحمل دعوته وقصة موسى هى أكثر القصص ورودا فى القرآن . وهى تعرض فى حلقات تناسب السورة التى تعرض فيها وجوها وظلها . وقد وردت حلقات منها حتى الآن فى سورة البقرة وسورة المائدة وسورة الأعراف وسورة يونس وسورة الإسراء . وسورة الكهف وذلك غير الإشارات إليها فى سور أخرى .

وما جاء منها فى المائدة كان حلقة واحدة : حلقة وقوف بنى إسرائيل أمام الأرض المقدسة لايدخلون فيها لأن فيها قوما جبارين :

وفى سوره الكهف كانت كذلك حلقة واحدة حلقة لقاء موسى للعبد الصالح وصحبته فترة وقد سبق الحديث عنها فى دروس من سورة الكهف بعنوان قصة موسى والخضر .

فأما فى البقرة والأعراف ويونس وفى هذه السورة ـ طه ـ فقد وردت منها حلقات كثيرة ولكن هذه الحلقات تختلف فى سوره عنها فى الأخرى . تختلف الحلقات المعروضة . كما يختلف الجانب الذى تعرض منه تنسيقا له مع اتجاه السورة التى يعرض فيها :

فى البقرة سبقتها قصة آدم وخلقه وتكريمه فى الملأ الأعلى . . : فجاءت قصة موسى وبنى إسرائيل تذكيرا لبنى إسرائيل بنعمة الله عليهم وعهده إليهم وانجائهم من فرعون وملئه . واستسقائهم وتفجير الينابيع لهم . وإطعامهم المن والسلوى . وذكرت عدوانهم فى السبت وقصة البقرة وفى الأعراف سبقها الأنذار وعواقب المكذبين بالآيات قبل موسى عليه السلام فجاءت قصة موسى تعرض ابتداء من حلقة الرسالة . وتعرض فيها آيات العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل ؛ ومحـاكمة

فرعون وملئه المكذبين؛ وفى يونس سبقها عرض مصارع المكذبين؛ ثم عرض منها حلقات ثلاث :

حلقة الرسالة ؛ وحلقة السحرة ؛ وحلقة غرق فرعون .

أما هنا فى سورة طه فقد كان مطلع السورة يشف عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفيهم لحمل رسالته وتبليغ دعوته ؛ فجاءت القصة مظللة بهذا الظل تبدأ بمشهد المناجاه ؛ وتتضمن نماذج من رعاية الله لموسى فى طفولته وشبابه ورجولته ؛ وتثبيته وتأييده وحراسته وتعهده :

قصة موسى فى سورة طه

ولد موسى فى مصر ونما وترعرع فى بيت فرعون ثم قتل قتيلا خطأ فخرج هاربا إلى أرض مدين وهناك تزوج بنت نبى الله شعيب ومكث فى أرض مدين عشر سنين . ثم عاد بأهله إلى مصر :

وفى الطريق أدركته عناية الله ومن الله عليه بالرسالة والعناية . . وناداه :

﴿ إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ طه ١٢ ، ١٣ .

وهذا الوحى يتعلق بثلاثة أمور مترابطة : الاعتقاد بالوحدانية ؛ والتوجه بالعبادة ؛ والإيمـــان بالساعة وهى أسس رسالة الله الواحدة . ومن نداء الله لموسى :

﴿ إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لا إِلَـــهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِى * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ طه ١٤ ، ١٥

وخص الله موسى بمعجزات ظاهرة . وآيات باهرة . أمره الله أن يلقى عصاه فألقاها فإذا هى حيـــة تسعى . نمت وعظمت حتى غدت

فى جلادة الثعبان ؛ وضخامة الجان(١) . لمحها موسى فاشتد خوفه فناداه الله :

﴿ خذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولى ﴾ طه ٢١

ثم أدخل موسى يده تحت ابطه فخرجت بيضاء بياضا يغلب نور الشمس ليس فيها بهاق أو برص أو مرض وتمت لموسى معجزتان هما اليد والعصى . فرأى آيات الله الكبرى . واطمأن للنهوض بالتبعة العظمى .

* * *

أمر الله موسى أن يذهب إلى فرعون رسولا وداعيا إلى الهدى ومبشرا بالجنة لمن أطاع الله وبالنار لمن عصاه .

فطلب موسى من ربه أن يشرح له صدره وأن ييسر له أمره وأن يحل حبسة لسانه ليفقه النـــاس قوله وأن يمن الله عليه بمعين من أهله هو أخوه هارون .

واستجاب الله دعاء موسى وحباه بفضل زائد وذكره بأفضاله عليه صغيرا وناشئا حيث نجاه عندما قتل قتيلا خطأ وألقى عليه المحبة ورباه برعايته وصنعه بعين عنايته .. قال سبحانه :

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ طه ٣٩ .

وكانت عناية الله معه فى شبابه حين نجاه من كيد أتباع فرعون وكانت عناية الله معه فى رحلته إلى أرض مدين ثم فى عودته إلى أرض مصر على موعد وتدبير إلهى .. قال تعالى :

﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فى أهل مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ، وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ طه ٤٠ ، ٤١ .

وكلف الله موسى أن يذهب مع أخيه هارون إلى فرعون بعد أن طغى

(١) نوع من الحيات .

فرعون وتجبر ، ليقولا له قولا لينا لا يهيج الكبرياء الزائف ولا يثير العزة بالاثم ، لعل قلبه أن يتعظ أو يتذكر .

ادلة موسى على وجود الله

توجه موسى وهارون إلى فرعون ليبلغاه رسالة الله رب العالمين .

فقال فرعون :

﴿ مَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى ﴾ طه ٤٩ .

فأجاب موسى :

﴿ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ طه ٥٠ .

وهى اجابة تلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود : هبة الوجود لكل موجود ، وهبة خلقه على الصورة التى خلق بها ، وهبة هدايته للوظيفة التى خلق لها .

وثنى فرعون بسؤال آخر :

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى ﴾ ؟ طه ٥١ .

ماشأن القرون التى مضت من الناس ؟ أين ذهبت ؟ ومن كان ربها ؟ ومايكون شأنها وقد هلكت لاتعرف الهها هذا ؟

وأجاب موسى : إن علمها عند الله الذى لاتخفى عليه خافية وقد سجل عملها فى كتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها .

وقد تفضل الله على الناس بالنعم المتعددة فمهد لهم الأرض وذلل سبلها وأنزل الماء من السماء فأجرى به نهر النيل وغيره من الأنهار ليخرج بالماء أزواجا متعددة من النباتات يستفيد منها الإنسان والحيوان .

وقد خلق الانسان من الأرض ثم رزق من نباتها ومائها ثم يعود اليها ثم يبعث منها يوم القيامة .

عرض موسى هذه الآيات الكونية أمام فرعون وأراه المعجزات الظاهرة الملموسة من اليد والعصا .

ولكن فرعون قابل هذه المعجزات الواضحة ، والحجج البالغة ، بالجحود والكنود وأخذ فرعون يكيل التهم لموسى ، ويسفه دعوته ويصفه بالطمع فى الملك ، ويصف معجزاته بأنها سحر ظاهر مبين .

موسى والسحرة

توعد فرعون موسى بأن يجمع له السحرة من كل مكان ، ليبطلوا سحره ويظهروا عجزه . وقبل موسى التحدى ، وحدد يوم العيد واجتماع الناس فى زينتها الجديدة موعدا للمبارزة ، حتى يشيع الحق ويظهر ظهور الشمس .

وجمعت السحرة فى يوم العيد ، ولم يتخلف واحد منهم ، فإذا بهم آلاف مع كل واحد منهم حبل وعصا وخيروا موسى قائلين :

﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ طه ٦٥ .

فترك لهم موسى فرصة البدء واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة .

فتقدم السحرة وألقوا مافى أيديهم من حبال فتحركت الحبال وماجت بها الساحة وسحرت عيون المشاهدين وملأتهم بالرهبة والإجلال لهذا العمل العظيم .

وخشى موسى أن يخدع الناس عن الحق وأدركه خوف الداعية على دعوته فذكره الله بأن معه قوة كبرى ، وبأنه على الحق وعدوه على الباطل وبأنه رسول مؤيد بالمعجزة ، وعدوه ساحر مضلل مخادع .

﴿ قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى ۝ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ طه ٦٨ ، ٦٩ .

وألقى موسى عصاه فابتلعت أعمال السحرة فى سرعة مذهلة وأدرك السحرة أن عمل موسى ليس سحرا ولكنه معجزة وبرهان من الله على صدق رسالته ، فإذا بهم يخرون لله ساجدين ، توبة عما صنعوا ، وخشوعا لهيبة الحق ، وإكبارا لذلك الأمر الخطير ، وإيمانا بالله رب العالمين .

وعندئذ غلت مراجل الحقد والحفيظة فى صدر فرعون ، ولام السحرة على إيمانهم بموسى ، قبل أن يأذن لهم .

وقال : إنه أستاذكم وكبيركم الذى علمكم السحر ، فاتفقتم معه على فعلكم ومؤامرتكم :

﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ طه ٧١ .

ولكن ذلك جاء بعد فوات الأوان ، كان نور الإيمان قد تخلل صدورهم فوصلهم بخالقهم فزهدوا فى عرض الدنيا وسلطانها ، وتطلعت قلوبهم إلى مرضاة الله وفضلوا ثواب الآخرة على كل ماعداه وقالوا :

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ طه ٧٣ .

غرق فرعون ونجاة موسى

استمر موسى فى أداء رسالته وقيامه بواجب دعوته ، وقد اشتد إيذاء فرعون وأتباعه للمؤمنين فاستغاثوا بموسى ، فخرج موسى بهم ليلا إلى الارض المقدسة وقد سهل الله إليها طريقهم ، واعترض البحر سبيلهم فاستغاثوا بموسى قائلين البحر أمامنا وفرعون وراءنا . فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه بعصاه فتولت قدرة الله أن تيسر لهم فى البحر اثناعشر طريقا يابسا ممهدا للسير فسار كل فريق فى طريق وحفظتهم عناية الله من فرعون ، وحين حاول فرعون اللحاق بهم أطبقت عليه وعلى

جنوده مياه البحر وأدركهم الغرق والهلاك ، ونجى الله المؤمنين ، و أذ الكافرين. وجعل من ذلك عظة وعبرة لمن اعتبر ، فمن آمن بالله وجاهد فى سبيله كان فى كنف الله ورعايته ، ومن كفر بآيات الله وخرج عن طريق هدايته أعد الله له العذاب والنكال . ونظر بنو اسرائيل فى دهشة إلى مصرع الجبابرة العتاة ، ثم نجى الله فرعون ببدنه ، ليكون آية لمن خلفه ، ودليلا على أن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

موسى والسامرى

ترك موسى قومه وذهب لميعاد ربه عجلا مشتاقا لمناجاة ربه وانتهز السامرى الفرصة فصنع لبنى اسرائيل عجلا من الذهب بطريقة فنية تجعل الريح تمر فيه فتحدث صوتا وخوارا .

وقال لهم إن موسى لن يعود إليكم لقد ذهب لمقابلة ربه فضل الطريق إليه ، وهذا هو إلهكم وإله موسى .

وفتن بنو اسرائيل بعبادة العجل ، فقد ألفوا الذل وطاعة فرعون .

وعاد موسى غضبان أسفا يلوم هارون على تباطئه عن اخماد هذه الفتنة فاعتذر هارون بأنه صبر حتى يعود موسى فيلتئم الشمل وتعود الوحدة إلى الجماعة .

وتوعد موسى السامرى بالعذاب والنكال وأمر بطرده من محلة بنى إسرائيل ، فخرج طريدا هو وأهله إلى البرارى ثم أتى موسى بالعجل فحرقه بالنار ، ونسف رماده فى اليم ليبين لقومه أن مثل هذا لايصح أن يتخذ الها :

﴿ إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ طه ٩٨ .

مشاهد القيامة وختام السورة

بدأت سورة طه بمقدمة فى بيان جلال الله وقدرته وعلمه الواسع فى الآيات من ١ — ٨ .

ثم تحدثت عن رسالة موسى وجهاده فى مصر ، وجهوده مع بنى اسرائيل فى الآيات من ٩ — ٩٨ .

وبعد قصة موسى تجىء الآيات (٩٩ — ١١٤) تعقيب على هذه القصة ببيان فضل القرآن ، وعاقبة من يعرض عنه ، وترسم الآيات هذه العاقبة فى مشهد من مشاهد القيامة ، تتضاءل فيه أيام الحياة الدنيا ، وتتكشف الأرض من جبالها وتعرى ، وتخشع الأصوات للرحمان ، وتعنو الوجوه للحى القيوم ، لعل هذا المشهد وما فى القرآن من وعيد يثير مشاعر التقوى فى النفوس ، ويذكرها بالله ويصلها به . وينتهى هذا المقطع بإراحة بال الرسول — صلى الله عليه وسلم — من القلق من ناحية القرآن الذى ينزل عليه ، فلا يعجل فى ترديده خوف أن ينساه ، ولا يشقى بذلك فالله ميسره وحافظه انما يطلب من ربه أن يزيده علما :

وبمناسبة حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يردد مايوحى إليه قبل انتهاء الوحى خشية النسيان ، تعرض الآيات (من ١١٥ إلى ١٢٣) نسيان آدم لعهد الله وتنتهى بإعلان العداوة بينه وبين ابليس وعاقبة من يتذكرون عهد الله و من يعرضون عنه من ولد آدم . وترسم الآيات هذه العاقبة فى مشهد من مشاهد القيامة كأنما هو نهاية الرحلة التى بدأت فى الملأ الأعلى ، ثم تنتهى إلى هناك مرة أخرى . . . وفى ختام السورة تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عن إعراض المعرضين وتكذيب المكذبين فلا يشقى بهم فلهم أجل معلوم . ولا يحفل بما أوتوه من متاع فى الحياة الدنيا فهو فتنة لهم ، وينصرف إلى عبادة الله وذكره فترضى نفسه وتطمئن ، ولقد هلكت القرون من قبلهم ، وشاء الله أن يعذر اليهم بالرسول الأخير ، فلينفض يده من أمرهم ، وليعلن اليهم أنه متربص بهم ذلك المصير فليتربصوا هم كيف يشاءون :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى . قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ طه ١٣٤ ، ١٣٥ .

* * *

وبذلك تختم السورة التى حددت وظيفة القرآن فى بدايتها :

﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى ﴾ .

وأكدت هذه الوظيفة فى نهايتها فهى التذكرة الأخيرة لمن تنفعه التذكرة وليس بعد البلاغ الا انتظار العاقبة . والعاقبة بيد الله :

وقد كانت قصة موسى ونهاية فرعون فى خلال السورة تحقيقا لهذا المعنى وتأكيدا لفوز المؤمنين ومصرع المكذبين ، وبذلك يتناسق المطلع والختام وتكون السورة أشبه بموضوع له مقدمة ثم قصة تؤيد المقدمة ثم خاتمة تؤكد الموضوع . وظهر أن بين أجزاء السورة وحدة فكرية خلاصتها :

شمول فضل الله ، ورحمته وعطفه ، لأحبابه المؤمنين ، وإيقاع نقمته وعذابه بالكافرين والمكذبين .

أهداف سورة الأنبياء

سورة الأنبياء سورة مكية بالاتفاق وآياتها (١١٢) آية وقد نزلت قبيل الهجرة إلى المدينة أى حوالى السنة الثانية عشرة من البعثة وسميت بسورة الأنبياء لأنه اجتمع فيها على قصرها كثير من قصص الأنبياء فسميت السورة باسمهم .

الغرض منها وترتيبها

هى سورة مكية نزلت فى آخر العهد المكى أى فى ذروة تجبر أهل مكة وعتهم وانصرافهم عن الإسلام .

فنزلت تنذر هؤلاء الكفار باقتراب العذاب فى بدايتها :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ . . . ﴾ الأنبياء ١ .

ثم ساقت السورة الأدلة على الألوهية والتوحيد والرسالة والبعث . وهى الموضوعات التى عنيت بها السور المكية ، من أجل تقرير العقيدة والدفاع عنها .

* * *

ونلحظ هنا أن السورة قد عالجت هذه الموضوعات بعرض النواميس الكونية الكبرى ، وربط العقيدة بها .

فالعقيدة فى سورة الأنبياء جزء من بناء هذا الكون يسير على نواميسه الكبرى .

وهذه العقيدة تقوم على الحق الذى قامت عليه السموات والارض ، وليست لعبا ولا باطلا ، كما أن هذا الكون لم يخلق عبثا ، ولن يترك سدى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ الانبياء ١٦ .

ويلفت السياق أنظار الناس إلى مظاهر الكون الكبرى فى السماء والأرض ، والرواسى والفجاج . والليل والنهار والشمس والقمر ، موجها الأنظار إلى وحدة النواميس التى تحكمها وتصرفها ، وإلى دلالة هذه الوحدة على وحدة الخالق المدبر والمالك الذى لاشريك له فى الملك ، كما أنه لاشريك له فى الخلق .

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الانبياء ٢٢ .

ثم تتحدث السورة عن وحدة النواميس التى تحكم الحياة فى هـــذه الأرض ، وعن وحدة مصدر الحياة :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ الانبياء ٣٠ .

وعن وحدة النهاية التى ينتهى إليها الأحياء :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ﴾ الانبياء ٣٥ .

والعقيدة وثيقة الارتباط بتلك النواميس الكونية ، فهى واحدة كذلك وإن تعدد الرسل على مدار الزمان .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ الانبياء ٢٥ .

وكما أن العقيدة وثيقة الارتباط بنواميس الكون الكبرى ، فكذلك ملابسات هذه العقيدة فى الأرض . فالسنة التى لاتتخلف أن يغلب الحق فى النهاية وأن يزهق الباطل ، لأن الحق قاعدة كونية وغلبته سنة الهية :

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ الانبياء ١٨ .

وأن يحل الهلاك بالظالمين المكذبين وينجى الله الرسل والمؤمنين :

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا المُسْرِفِينَ ﴾ الأنبياء ٩ .

وأن يرث الارض عباد الله الصالحون :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ الانبياء ١٠٥ .

ومن ثم يستعرض السياق أمة الرسل الواحدة فى سلسلة طويلة استعراضا سريعا : يطول بعض الشيء عند عرض حلقة من قصة إبراهيم – عليه السلام – وعند الاشارة إلى داود وسليمان .

ويقصر عند الإشارة إلى قصص نوح ، وموسى ، وهارون ، ولوط ، وإسماعيل ، وادريس ، وذى الكفل ، وذى النون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى – عليهم السلام – .

وفى هذا الاستعراض تتجلى المعانى التى سبقت فى سياق السورة تتجلى فى صورة وقائع فى حياة الرسل والدعوات ، بعد ماتجلت فى صورة قواعد عامة ونواميس .

كذلك يتضمن سياق السورة بعض مشاهد القيامة ، وتتمثل فيها تلك المعانى نفسها فى صورة واقع يوم القيامة .

وهكذا تتجمع الأساليب المنوعة فى السورة على هدف واحد هو استجاشة القلب البشرى لادراك الحق الأصيل فى العقيدة التى جاء بها خاتم الرسل – صلى الله عليه وسلم – فلا يتلقاها الناس غافلين معرضين لاهين . كما تصفهم السورة فى مطلعها .

ان هذه الرسالة حق كما أن هذا الكون حق وجد : فلا مجال للهو فى استقبال الرسالة ، ولا مجال لطلب الآيات الخارقة ، وإن آيات الله فى الكون وسنن الكون كله توحى بأنه الخالق القادر الواحد ، والرسالة من لدن ذلك الخالق القادر الواحد .

نظم السورة

النظم فى سورة الأنبياء يختلف عن النظم فى سورة مريم وسورة طه . هناك كان النظم سهلا والختام رخيا يختم فى الغالب بالألف اللينة .

أما فى سورة الأنبياء فالنظم هنا نظم التقرير الذى يتناسق مع موضوعها ، ومع جو السياق فى عرض هذا الموضوع . ولذلك ختمت آياتها بالميم أو بالنون .

* * *

واذ نظرنا إلى الجانب الذى عرض من قصة إبراهيم فى سورة مريم وجدنا أن الحلقة التى عرضت هناك حلقة الحوار الرخى بين إبراهيم وأبيه . وقد ختمت آيات الحوار هناك بالألف اللينة مثل نبيا ، صفيا ، عليا .

وأما هنا فجاءت حلقة تحطيم الاصنام ، والقاء إبراهيم فى النار ، وليتم التناسق فى الموضوع والجو والنظم والايقاع فقد ختمت قصة إبراهيم هنا بالنون أو الميم التى تفيد التقرير والتأكيد ، أو مايشبه أحكام القضاء بعد تفكر وتأمل وترتيب .

اشواط اربعة

يمكن أن نقسم سورة الأنبياء إلى أربعة أقسام ، يمضى السياق خلالها من قسم إلى آخر ، ويمهد كل شوط للذى يليه .

الشوط الأول

يبدأ الشوط الأول بمطلع قوى الضربات ، يهز القلوب هزا وهو يلفتها إلى الخطر القريب المحدق ، وهى عنه غافلة لاهية :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ . . . ﴾ الانبياء ١ .

ثم يهزها هزة أخرى بمشهد من مصارع الغابرين الذين كانوا عن آيات ربهم غافلين :

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ . . . ﴾ الخ ... الانبياء ١١ .

ثم يربط بين الحق والجد فى الدعوة . والحق والجد فى نظام الكون ، وبين عقيدة التوحيد ونواميس الوجود . وبين وحدة الخالق المدبر ووحدة الرسالة والعقيدة . ووحدة مصدر الحياة ونهايتها ومصيرها على النحو الذى أسلفناه ، ويستغرق هذا الشوط من أول السورة إلى الآية ٣٥ .

الشوط الثانى

أما الشوط الثانى فيرجع بالحديث إلى الكفار الذين يواجهون الرسول صلى الله عليه وسلم - بالسخرية والاستهزاء ، بينما الأمر جد وحق ، وكل ماحولهم يوحى باليقظة والاهتمام . وهم يستعجلون العذاب والعذاب منهم قريب . . وهنا يعرض مشهدا من مشاهد القيامة ، ويلفتهم إلى ما أصاب المستهزئين بالرسل قبلهم . ويقرر أن ليس لهم من الله من عاصم ويوجه قلوبهم إلى تأمل يد القدرة وهى تنقص الأرض من أطرافها ، وتزوى رقعتها وتطويها فلعل هذا أن يوقظهم من غفلتهم التى جاءتهم من طول النعمة وامتداد الرخاء .

وينتهى هذا الشوط بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى بيان وظيفته :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ .

وإلى الخطر الذى يتهددهم فى غفلتهم :

﴿ وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴾ الانبياء ٤٥ .

حتى تنصب الموازين القسط وهم فى غفلتهم سادرون . ويستغرق هذا الشوط من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٧ .

الشوط الثالث

ويتضمن الشوط الثالث استعراض أمة النبيين وجهاد الرسل وبلاءهم فى سبيل الحق ويبدأ الشوط بموسى وهارون وقد أنعم الله عليهما بالفرقان وهو التوراة لأنها تفرق بين الحق والباطل ، ثم ذكر إبراهيم وقد أعطاه الله الرشد والهداية فأنكر على قومه عبادة الأصنام ثم حطمها ، فألقى النار فجعلها الله بردا وسلاما عليه . ثم نجاة لوط من قومه المعتدين ، ونجاة نوح وأتباعه من الطوفان ، ثم ذكر حكم داود وفهم سليمان ، وتسخير الشياطين والجن لتعمل بين يديه باذن ربه ، ثم تضرع أيوب ودعاء يونس وسؤال زكريا وصلاح مريم . ويعقّب الشوط بأن هناك وحدة بين هذه الرسالات فى العقيدة والإيمان والهدف والقيم والسلوك :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء ٩٢ .

وتتجلى فى رسالة الأنبياء عناية الله بهم ، ورعايته لأهل رسالته وتوليهم بالعناية والرعاية وأخذ المكذبين والظالمين أخذ عزيز مقتدر ، ويستغرق هذا الشوط من الآية ٤٨ إلى الآية ٩٥ .

الشوط الرابع :

أما الشوط الرابع والأخير فيعرض النهاية والمصير ، فى مشهد من مشاهد القيامة المثيرة ، حين يفتح سد يأجوج ومأجوج ويعرض ذل الكفار فى عذاب جهنم ، ونعيم المؤمنين فى الجنة ثم طى السموات فى ساعة القيامة ، ثم توجه السياق إلى الرسول بالخطاب فذكر أن الله أرسله بالرحمة والاحسان لتبليغ رسالة الله إلى الناس . ثم ختمت السورة بمثل مابدأت :

ايقاعا قويا ، وانذارا صريحا ، وتخلية بينهم وبين مصيرهم المحتوم ويستغرق هذا الشوط من الآية ٩٦ إلى ١١٢ .

وفى آخر آية ، للسورة رنين يتحدى الكفار ويتوعدهم بحكم الله العادل :

﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ الأنبياء ١١٢

أهداف سورة الحج

سورة الحج مدنية نزلت بعد سورة النور

وقيل إن سورة الحج من السور المكية ، وقد استثنى من ذهب إلى هذا الرأى الآيات من ١٩ — ٢٤ (١) .

* * *

وكان الأولى أن يستثنى من قال انها مكية آيات الاذن بالقتال من ٣٨ — ٤١ ، ومنها قوله تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا وإن اللهَ عَلَى نَصْرِهِم لَقَدِيرٌ ﴾

الحج ٣٩ .

* * *

وعند التأمل فى سورة الحج نجد أن أسلوبها وموضوعاتها وطريقتها أقرب إلى السور المكية .

[فموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة وإثبات البعث وانكار الشرك ومشاهد القيامة وآيات الله المبثوثة فى صفحات الكون] . بارزة فى السورة.

ويمكن أن يقال ان هذه السورة مشتركة بين مكة والمدينة كما يبدو من دلالة آياتها وعلى الأخص آيات الاذن بالقتال وآيات العقـاب بالمثل فى قوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَاعُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ الحج ٦٠ .

---

(١) بصائر ذوى التمييز للفيروزبادى تحقيق النجار ، وقد ذهب إلى أن السورة مكية بالاتفاق . والنظم الفنى فى القرآن لعبد المتعال الصعيدى ص ٢٠٤ .

فهذه الآيات مدنية لأن المسلمين لم يؤذن لهم فى القتال والقصاص إلا بعد الهجرة وبعد قيام الدولة الإسلامية فى المدينة ، أما قبل ذلك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - حين بايعه أهل يثرب وعرضوا عليه أن يميلوا على أهل منى من الكفار فيقتلوهم « إنى لم أومر بهذا » . حتى إذا صارت المدينة دار إسلام ، شرع الله القتال لرد أذى المشركين عن المسلمين ، والدفاع عن حرية العقيدة ، وحرية العبادة للمؤمنين .

ومن الموضوعات المدنية فى سورة الحج ، حماية الشعائر والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغى وهو يرد العدوان والأمر بالجهاد فى سبيل الله .

وفى السورة موضوعات أخرى عولجت بطريقة القرآن المكى وتغلب عليها السمات المكية وهذه السمات تجعل سورة الحج مما يشبه المكى وهو مدنى .

سمات القوة

تتضح فى سورة الحج سماة القوة والعنف ، وأساليب الرهبة والتحذير ، واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والخوف من بأس الله .

وتبدو هذه المعانى فى المشاهد والأمثال .

فمشهد البعث مزلزل عنيف رهيب ، تذهل فيه الأم عن وليدها وهو بين يديها ، وكذلك مشهد العذاب :

﴿ فالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُم ثِيَابٌ مِن نَّارٍ ، يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءوسِهِمُ الحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَافِي بُطُونِهِمْ وَالجُلُودُ * وَلَهُم مقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ ﴾ الحج ١٩ ـ ٢٢ .

ومشهد القرى المدمرة بظلمها :

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ الحج ٤٥ .

تجتمع هذه المشاهد العنيفة المرهوبة إلى قوة الأوامر والتكاليف ، وتبرير الدفع بالقوة ، وتأكيد الوعد بالنصر والتمكين . إلى عرض الحديث عن قوة الله وضعف الشركاء المزعومين .

• • •

ووراء كل ذلك الدعوة إلى التقوى والوجل واستجاشة مشاهد الرهبة والامتثال لأمر الله تبدأ بها السورة وتتناثر فى ثناياها :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ الحج ١ .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ الحج ٣٢ .

﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الحج ٣٤ ــ ٣٥ .

﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ الحج ٣٧ .

ذلك إلى استعراض مشاهد الكون ، ومشاهد القيامة ، ومصارع الغابرين والأمثلة والعبر ، والصور والتأملات ، لاستجاشة مشاعر الإيمان والتقوى والاخبات والاستسلام ، وهذا هو الروح السارى فى جو السورة كلها والذى يطبعها ويميزها .

أقسام السورة وأفكارها (١)

تشتمل سورة الحج على أربع مجموعات أو أقسام رئيسية يجرى السياق فيها كالآتى :

القسم الأول :

يبدأ القسم الأول بالنداء العام : نداء الناس جميعا إلى تقوى الله ، وتخويفهم من زلزلة الساعة ووصف الهول المصاحب لها وهوهول عنيف مرهوب . فى ظل هذا الهول باستنكار الجدل فى الله بغير علم ، واتباع كل شيطان محتوم على من يتبعه الضلال ، ثم يعرض دلائل البعث من أطوار الحياة فى حياة الإنسان وحياة النبات ، مسجلا تلك القربى بين أبناء الحياة ، ويربط بين تلك الأطوار المطردة الثابتة ، وبين أن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور .. وكلها سنن مطردة ، وحقائق ثابتة متصلة بناموس الوجود ثم يعود إلى استنكار الجدل فى الله بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير .

بعد هذه الدلائل المستقرة فى صلب الكون وفى نظام الوجود ، وإلى استنكار بناء العقيدة على حساب الربح والخسارة ، والانحراف عن الاتجاه إلى الله عند وقوع الضراء ، والاتجاه إلى غير حماه ، واليأس من نصرة الله وعقباه ، وينتهى هذا الشوط بتقرير أن الهدى والضلال بيد الله ، وأنه سيحكم بين أصحاب العقائد المختلفة يوم الحساب وهنا يعرض ذلك المشهد العنيف من مشاهد العذاب للكافرين ، وإلى جواره مشهد النعيم للمؤمنين .

ويستغرق هذا القسم من أول السورة إلى الآية ٢٤ .

القسم الثانى :

يبدأ القسم الثانى بالحديث عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد

---

(١) انظر بصائر ذوى التمييز للفيروزبادى تحقيق النجار ١ / ٣٢٣ وفى ظلال القرآن بقلم سيد قطب ١٧ / ٧١ .

الحرام ، ويستنكر هذا الصد عن المسجد الحرام الذى جعله الله للناس جميعاً ، يستوى فى ذلك المقيمون به والطارئون عليه، وبهذه المناسبة يذكر طرفا من قصة بناء البيت ، وتكليف إبراهيم — عليه السلام — أن يقيمه على التوحيد ، وأن يطهره من رجس الشرك ، ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وما وراءها من استجاشة مشاعر التقوى [فى القلوب ، وهو الهدف المقصود ، وينتهى هذا القسم بالإذن للمؤمنين فى القتال ، لحماية الشعائر والعبادات من العدوان الذى يقع على المؤمنين ولاجريرة لهم إلا أن يقولوا ربنا الله . ويستغرق هذا القسم الآيات : (٢٥ — ٤١) .

القسم الثالث :

يبدأ القسم الثالث بعرض نماذج من تكذيب المكذبين من قبل ، ومن مصارع المكذبين ومشاهد القرى المدمرة على الظالمين . وذلك لبيان سنة الله فى الدعوات ، وتسلية الرسول — صلى الله عليه وسلم — عما يلقاه من صد واعراض وتطمين المسلمين بالعاقبة التى لابد أن تكون ، كذلك يتضمن عرض طرف من كيد الشيطان للرسل والنبيين فى دعوتهم ، وتثبيت الله لدعوته ، وأحكامه لآياته ، حتى يستيقن بها المؤمنون ، ويفتن بها الضعاف والمستكبرون ويستغرق هذا القسم الآيات : (٤٢-٥٩) .

القسم الرابع :

يتضمن القسم الرابع وعد الله بنصرة من وقع عليه البغى فقام يدفع عن نفسه العدوان ويتبع هـذا الوعد بعرض دلائل القدرة فى صفحات الكون ، وإلى جوارها يعرض صورة زرية لضعف الآلهة التى يركن اليها المشركون ، وينتهى هـذا القسم وتنتهى السورة معه بنداء الذين آمنوا ليعبدوا ربهم ، ويجاهدوا فى الله حق جهاده ، ويعتصموا بالله وحده ، وهم ينهضون بتكاليف عقيدتهم العريقة منذ أيام إبراهيم الخليل ويستغرق هذا القسم الآيات : (٦٠-٧٨) .

ومن هذا العرض نجد تعاقب موضوعات السورة وتناسقها فى حلقات متساوقة تسلم كل حلقة للتى تليها ليكون فى مجموعها سورة كاملة هى سورة الحج .

حكمة التسمية

سميت هذه السورة بسورة الحج لأنها اشتملت على الدعوة إلى الحج على لسان إبراهيم الخليل ، وفى الحج منافع دينية وعلمية وتجارية وسياحية .

قال تعالى :

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالحَجِ يَأْتُوكَ رِجَالاً وعلى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ الحج ٢٧ ، ٢٨ .

فى الحج يتجمع المسلمون من كل بلد ، للتعارف والتآلف والتشاور والتعاون ، وبذلك يصبحون يداً واحدة وقوة متآلفة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

فى الحج يشاهد الانسان الأماكن المقدسة ، التى شهدت ميلاد الإسلام ، وولادة الرسول ورسالته وجهاده وهديه .

فى الحج يتعرف المسلمون من كل قطر على إخوانهم ، ويتدارسون شئونهم ويعرفون آلامهم وآمالهم . وربما تعاقدوا على شراء مايلزمهم أو عمل ما ينفعهم .

فى الحج سياحة فى أرض الله وأداء لمناسك مقدسة فى موطن إبراهيم الخليل وهاجر وإسماعيل ، ورؤية الكعبة المقدسة وزمزم والصفا والمروة ومنى وعرفات ، وبعد الحج زيارة للمسجد النبوى وصلاة بالروضة ووقوف أمام قبر النبي صلى الله عليه وسلم وزيارته ، وزيارة قبور الصحابة والشهداء ، ورؤية أمجاد الإسلام ومواقع المعارك ، وبذلك يستقر الايمان فى القلب والشعور ويصبح الحج عبادة ذات منافع متعددة ، إذا فهم المسلمون حكمته ورسالته .

مقصود السورة اجمالا (١)

إذا أردنا التعرف على الأفكار المنثورة في سورة الحج فسنجدها تدور حول الأمور الآتية :

الوصية بالتقوى والطاعة ، وبيان هول الساعة وزلزلة القيامة ، والدليل على إثبات الحشر والنشر ، وجدال أهل الباطل مع أهل الحق . وذم أهل النفاق وعبادة الأوثان ، ومدح المؤمنين وبيان رعاية الله لرسوله ، ونصره رغم أنف الكافرين ، وسجود الكائنات لله . وقيام إبراهيم بالدعوة إلى الحج وبيان تعظيم الحرمات والشعائر ، والمنة على العباد بدفع فساد أهل الفساد، وإهلاك القرى بسبب ظلم أهلها وذكر نسيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسهوه حال تلاوة القرآن ، وتثبيت المؤمنين ، وشقاق الكافرين حتى تفاجأهم الساعة ، وبيان قدرة الله سبحانه ، وعجز الأصنام وعبادها ، واصطفاء الرسل من الملائكة كجبريل ، ومن الإنس كمحمد ، وتكليف المؤمنين بأنواع من العبادة كالصلاة والجهاد والإحسان ، وترغيبهم في الوحدة والجماعة والتمسك بحبل الله في قوله :

﴿ واعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ الحج ٧٨ .

---

(١) انظر بصائر ذوى التمييز للفيروزبادى ١ / ٣٢٣ .

أهداف سورة "المؤمنون"

سورة المؤمنون مكية وآياتها ١١٨ آية نزلت بعد الأنبياء وسميت سورة المؤمنين لافتتاحها بفلاح المؤمنين .

المؤمنون والايمان

تبدأ السورة بذكر صفات المؤمنين ثم يستطرد السياق منها إلى دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق ، ثم إلى حقيقة الايمان كما عرضها رسل الله — صلوات الله عليهم — من لدن نوح — عليه السلام — الى محمد خاتم الرسل والنبيين ، وشبهات المكذبين حول هذه الحقيقة واعتراضاتهم عليها ؛ ووقوفهم في وجهها ؛ حتى يستنصر الرسل ربهم ، فيهلك المكذبين وينجي المؤمنين ... ثم يستطرد إلى اختلاف الناس بعد الرسل في تلك الحقيقة الواحدة التي لا تتعدد ... ومن هنا يتحدث عن موقف المشركين من الرسول — صلى الله عليه وسلم — ويستنكر هذا الموقف الذي ليس له مبرر وتنتهي السورة بمشهد من مشاهد القيامة يلقون فيه عاقبة التكذيب ، ويؤنبون على ذلك الموقف المريب ، وتختم السورة بتعقيب يقرر التوحيد المطلق والتوجه إلى الله بطلب الرحمة والغفران ... فهي سورة «المؤمنون» أو هي سورة الإيمان بكل قضاياه ودلائله وصفاته وهو موضوع السورة ومحورها الأصيل .

الأقسام الرئيسية في السورة

يمضي سياق سورة المؤمنين في أربعة أقسام رئيسية تتناول تاريخ الدعوة وحاضرها وتسوق الأدلة الحسية والنفسية على الإيمان بالله .

القسم الأول :

يبدأ القسم الأول بتقرير الفلاح للمؤمنين :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

ويبين صفات المؤمنين هؤلاء الذين كتب لهم الفلاح ويثني بدلائل الإيمان في الأنفس والآفاق فيعرض أطوار الحياة الانسانية منذ نشأتها الأولى الى نهايتها في الحياة الدنيا متوسعا في عرض أطوار الجنين مجملا في عرض المراحل الأخرى .. ثم يتابع خط الحياة البشرية الى البعث يوم القيامة، وبعد ذلك ينتقل من الحياة الانسانية إلى الدلائل الكونية : في إنزال الماء ، وفي إنبات الزروع والثمار ، ثم الى الأنعام المسخرة للانسان ، والفلك التي يُحْمَل عليها ، وعلى الحيوان ويستغرق هذا القسم من أول السورة الى الآية ٢٢

القسم الثاني :

يشير القسم الثاني الى قصة نوح عليه السلام و هلاك الكافرين ثم يتبع ذلك ببيان سنة الله في إرسال الرسل لهداية الناس وابلاغهم كلمة الحق و الإيمان ودعوتهم الى الله فيقول نوح لقومه :

﴿ ياقوم أعبدوا الله مالكم من إلـه غيره ﴾ المؤمنون ٢٣ .

ويقول هذه الحقيقة كل نبي ورسول يقولها موسى ويقولها عيسى ويقولها محمد صلى الله عليه وسلم .

ويكون اعتراض المكذبين دائما :

﴿ مَا هَذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُم ﴾ المؤمنون ٣٣ .

ويقدم الكفار عددا من الحجج والأدلة على تكذيبهم فيلجأ الرسل الى ربهم يطلبون نصره فيستجيب سبحانه وينجي المؤمنين ويهلك الكافرين قال تعالى :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَاجَاءَ أمةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُم أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لايُؤْمِنُونَ ﴾ المؤمنون ٤٤ .

ويعني هذا القسم ببيان وحدة الرسالات ووحدة الأمم المؤمنة تحت رب واحد ، والإيمان واحد بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾

المؤمنون ٥١ ، ٥٢ .

ويستغرق هذا القسم الآيات من ٢٣ — ٥٢

القسم الثالث :

يتحدث القسم الثالث عن تفرق الناس بعد وصول الرسل إليهم وتنازعهم حول تلك الحقيقة الواحدة التي جاء بها الرسل :

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ المؤمنون ٥٣ .

ثم يتحدث عن غفلتهم عن ابتلاء الله لهم بالنعمة واغترارهم بما هم فيه من متاع بينما المؤمنون مشفقون من خشية ربهم يعبدونه ولا يشركون به ، ويخشون غضبه ويرجون رحمته وهنا يرسم مشهدا لأولئك الغافلين المغرورين يوم يأخذهم العذاب فإذا هم يجأرون ، فيأخذهم التوبيخ والتأنيب

﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ۝ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ المؤمنون ٦٦ ، ٦٧ .

ويستنكر السياق موقفهم العجيب من رسولهم الأمين ، وهم يعرفونه ولا ينكرونه ، وقد جاءهم بالحق لا يسألهم عليه أجرا ، فلماذا ينكرون منه ومن الحق الذي جاءهم به ؟ وهم يسلمون بملكية الله لمن في السموات والأرض ، وربوبيته للسموات والأرض وسيطرته على كل شيء في السموات والأرض ،

ويعد هذا التعليم هم ينكرون البعث ويزعمون لله ولدا سبحانه ! ويشركون به آلهة أخرى :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ المؤمنون ٩٢ .

ويستغرق هذا القسم الآيات من ٥٣ - ٩٢

القسم الرابع :

فى القسم الرابع والأخير حث للرسول أن يدعهم وشركهم وزعمهم وأن يدفع السيئة بالتى هى أحسن وأن يستعيذ بالله من الشياطين فلا يغضب ولا يضيق صدره بما يقولون ... ثم يرسم السياق مشهدا من مشاهد القيامة يصور ما ينتظرهم هناك من عذاب ومهانة وتأنيب . ويختم السورة بتنزيه الله سبحانه :

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ المؤمنون ١١٦ .

وينفى الفلاح عن الكافرين ، ليتناسب ابتداؤها بثبوته للمؤمنين ، وفى آخر آية أمر للنبى صلى الله عليه وسلم أن يتوجه إلى الله بطلب المغفرة والرحمة :

﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ المؤمنون ١١٨ .

ويستغرق هذا القسم الآيات من ٩٣ - ١١٨

مظاهر عامة للسورة

جو السورة كلها جو البيان والتقرير ، وجو الجدل الهادئ ، والمنطق الوجدانى واللمسات الموحية للفكر والضمير ، والروح السارى فى السورة هو روح الإيمان فى مطلعها مشهد الخشوع فى الصلاة وفى وسطها ملمح للإخبات والإحسان :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾

المؤمنون ٦٠ .

وفى اللمسات الوجدانية تجد قوله سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ المؤمنون ٧٨ .

وكلها مظللة بذلك الظل الإيمانى اللطيف (١)

(١) انظر فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب ١٨ / ٨ .

أهداف سورة النور

سورة النور مدنية وآياتها ٦٤ آية نزلت بعد سورة الحشر وسميت بهذا الاسم لكثرة ذكر النور فيها :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ . . . . ﴾ النور ٣٥ .

﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ . . ﴾ النور ٣٥ .

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَالَهُ مِن نُّورٍ ﴾ النور ٤٠ .

روح السورة

هذه سورة الآداب والأخلاق والتربية الاسلامية الهادفة لتهذيب الأخلاق والقيم المنبعثة عن ايمان المؤمن بالله فاذا دخل نور الايمان فى القلب اتسع له الصدر ، وانشرح له الفؤاد :

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت فى العبادة الأعضاء

وقد ذكر النور فى هذه السورة بلفظه كما ذكر بآثاره ومظاهره فى القلوب والأرواح ممثلة هذه الآثار فى بيان الفرائض والأحكام التى يقوم عليها بناء السورة ، وهى أحكام وآداب نفسية وعائلية وجماعية تؤدى الى طهارة الفرد وسلامة المجتمع ، تبدأ سورة النور باعلان قوى حاسم عن تقرير هذه السورة وفرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف ، ومن آداب وأخلاق :

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ النور ١ .

فيدل هذا البدء الفريد على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقى فى الحياة ، ومدى عمق هذا العنصر وأصالته فى العقيدة الإسلامية ، وفى فكرة الاسلام عن الحياة الإنسانية . .

والمحور الذى تدور عليه السورة كلها هو محور التربية ، التربية التى تشتد فى وسائلها إلى درجة الحدود ، وترق إلى درجة اللمسات الوجدانية الرقيقة التى تصل القلب بنور الله .

والهدف واحد فى الشدة واللين ، هو تربية الضمائر ، واستجاشة المشاعر ورفع المقاييس الأخلاقية للحياة حتى تشف وتتصل بنور الله .

وتتداخل الآداب النفسية الفردية ، وآداب البيت والأسرة وآداب الجماعة والقيادة بوصفها نابعة كلها من معين واحد هو العقيدة فى الله ، متصلة كلها بنور واحد هو نور الله .

فقرات السورة

يجرى سياق سورة النور فى خمس فقرات :

الفقرة الأولى :

تتضمن الفقرة الأولى الأعلان الحاسم الذى تبدأ به ، ويليه بيان حد الزنا وتفظيع هذه الفعلة وتقطيع مابين الزناه والجماعة المسلمة ، فلا هى منهم ولاهم منها ، ثم بيان حد القذف وعلة التشديد فيه ، واستثناء الأزواج من هذا الحد مع التفريق بين الزوجين بالملاعنة ، ثم حديث الافك وقصته ، وتنتهى هذه الفقرة بتقرير مشاكلة الخبيثين للخبيثات ، ومشاكلة الطيبين للطيبات وبالعلاقة التى تربط بين هؤلاء وهؤلاء ،وتستغرق هذه الفقرة من أول السورة إلى الآية ٢٦ .

الفقرة الثانية :

تتناول الفقرة الثانية وسائل الوقاية من الجريمة ، وتجنيب النفوس أسباب

الاغراء والغواية ، فتبدأ بآداب البيوت ، والاستئذان على أهلها ، والأمر بغض البصر والنهى عن إبداء الزينة لغير المحارم والحض على إنكاح الأيامى ، والتحذير من دفع الفتيات إلى البغاء . . . وكلها أسباب وقائية لضمانة الطهر والتعفف فى عالم الضمير والشعور ، ودفع المؤثرات ، التى تهيج الميول الحيوانية وترهق أعصاب المتحرجين المتطهرين ، وهم يقاومون عوامل الأغراء والغواية وتستغرق هذه الفقرة الآيات من ٢٧ – ٣٤ .

الفقرة الثالثـــة :

تتوسط هذه الفقرة مجموعة الآداب التى تضمنتها السورة فتربطها بنور الله وتتحدث عن أطهر البيوت وعن الرجال المؤمنين الذين يعمرون بيوت الله .

وفى الجانب المقابل : الذين كفروا وأعمالهم كسراب من اللمعان الكاذب أو كظلمات بعضها فوق بعض ، ثم تكشف الآيات عن فيوض من نور الله فى الآفاق : فى تسبيح الخلائق كلها لله ، وفى إزجاء السحاب ، وفى تقليب الليل والنهار ، وفى خلق كل دابة من ماء ، ثم اختلاف أشكالها ووظائفهـــا وأنواعها وأجناسها ، مما هو معروض فى صفحة الكون للبصائر والأبصار ، وتستغرق هذه الفقرة من الآية ٣٥ – ٤٦ .

الفقرة الرابعة :

تتحدث عن مجافاة المنافقين للأدب الواجب مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى الطاعة والتحاكم ، وتصور أدب المؤمنين الخالص وطاعتهم وتعدهم على هذا الاستخلاف فى الأرض والتمكين فى الدين والنصر على الكافرين وتستغرق هذه الفقرة من الآية ٤٧ – ٥٧ .

الفقرة الخامسة :

تستأنف هذه الفقرة الحديث عن آداب الاستئذان والضيافة فى محيط البيوت بين الأقارب والأصدقاء ، وتتحدث عن آداب الجماعة المسلمة كلها كأسرة واحدة مع رئيسها ومربيها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتم السورة بإعلان ملكية الله لما فى السموات والأرض وعلمه بواقع الناس ، وماتنطوى عليه حناياهم ، ورجعتهم إليه وحسابهم على مايعلمه من أمرهم ، وهو بكل شىء عليم ، وتستغرق هذه الفقرة من الآية ٥٨-٦٤.

اثر السورة فى حفظ المجتمع

تلحظ أن سورة النور دعوة هادفة إلى اضاءة القلب بنور الله وذكره وتذكر جلاله وعظمته . وهى سياج للفرد والمجتمع من الانحلال والتردى فى الخطيئة فقد أمرت بغض البصر وحفظ الفرج ونهت عن دخول البيوت بغير إذن واستئذان ، ونهت عن قذف المحصنات وبينت عقوبة البهتان وإلصاق التهم الكاذبة بالمستقيمين ، وذمت أشاعة الفاحشة ، وأظهرت عجائب صنع الله فى إرسال المطر وتفصيل أصناف الحيوان وحث على التوبة والانابة وبذلك أخذت بيد الإنسان إلى الطريق الصحيح ورفعت عنه عوامل الأحباط والانتكاس وبينت أن الله مطلع على كل شىء ، فى ختامها نجد هذه الآية ،

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ النور ٦٤ .

أهداف سورة الفرقان

سورة الفرقان سورة مكية نزلت بعد سورة يس ، ونزلت سورة يس بعد سورة الجن وكان نزول سورة الجن فى رجوع النبى صلى الله عليه وسلم من الطائف ، وكان قد ذهب إليها سنة عشر من بعثته فيكون نزول سورة الفرقان فى السنة العاشرة من البعثة ، وتكون من السور التى نزلت فيما بين الهجرة إلى الحبشة والأسراء . وهى فترة تميزت بقسوة مشركى مكة وعنفهم ورغبتهم فى القضاء على الدعوة بكل سبيل ، ولذلك تبدو سورة الفرقان وكأنها إيناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسرية وتطمين له وهو يواجه مشركى قريش وعنادهم وتعنتهم معه وجدالهم بالباطل ووقوفهم فى وجه الهدى وصدهم عنه .

سورة تشد أزر الرسول

تنوعت جوانب هذه السورة وتعددت لكنها فى جملتها كانت مؤازرة لرسول الله ثبته الثقة والاطمئنان وتفضح شبهات المشركين وتنافح عن الدعوة والداعية بالعديد من السبل .

* * *

فهى فى لمحة منها تصور الايناس اللطيف الذى يحيط به الله عبده ورسوله وكأنما يمسح على آلامه ومتاعبه مسحاً رفيقاً ، ويفيض عليه بالرعاية واللطف والمودة .

وهى فى لمحة تصور المعركة العنيفة مع البشرية الضالة الجاحدة المشاققة

لله ورسوله ، وهى تجادل فى عنف ، وتتعنت فى عناد وتجنح عن الهدى الواضح المبين .

أنها البشرية الضالة التى تقول عن هذا القرآن العظيم :

﴿ إنْ هَـٰذَا إلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُون ﴾ الفرقان ٤ .

أو تقول :

﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا ﴾ الفرقان ٥ .

والتى تقول عن محمد رسول الله :

﴿ إنْ تَتَّبِعُونَ إلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا ﴾ الفرقان ٨ .

أو تقول فى استهزاء :

﴿ أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللهُ رَسُولاً ؟ ﴾ الفرقان ٤١ .

وهذا التكذيب كان سمة الناس من عهد نوح إلى عهد محمد، لقد اعترض القوم على بشرية الرسول — صلى الله عليه وسلم — واعترضوا على حظه من المال فقالوا :

﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ الفرقان ٨ .

واعترضوا على طريقة تنزيل القرآن فقالوا :

﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ الفرقان ٣٢ .

وذلك فوق التكذيب والاستهزاء ، والافتراء والايذاء . وعندما يئس النبى من أهل مكة توجه إلى الطائف وبها قبائل ثقيف وفيها نعمة وغنى وزراعة وأعناب حتى كان العرب يعتقدون أن طائفاً من الجن نقلتها من اليمن السعيد إلى جنوب الحجاز .

وكما ذهب إلى الطائف دعا أهلها للإسلام فردوه أسوأ رد وأغروا به السفهاء والعبيد يرجمونه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان وأغمى على النبي الأمين فلما أفاق مد يده لله داعيا متضرعاً يقول :

« اللهم أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس يارب العالمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى إلى عدو يتجهمنى أو بعيد ملكته أمرى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى سخطك أو يحل على غضبك ، ان لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، عافيتك هى أوسع لى لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

* * *

وقد نزلت سورة الفرقان فى أعقاب رحلة الطائف فكانت حنانا ورحمة من الله لنبيه تمسح آلامه وتسرى عنه وتهون عليه مشقة مايلاقى من عنت القوم وسوء أدبهم وتطاولهم على الرسول الذى اختارته السماء ليحمل رسالة الله إلى الناس .

وتعزيه عن استهزائهم بتصوير المستوى الهابط الذى يتمرغون فيه :

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ الفرقان ٤٣ ، ٤٤ .

ويتكفل القرآن بالعون والمساعدة فى معركة الجدل والمحاجه :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ الفرقان ٣٣ .

ثم تعرض السورة أهوال القيامة ومشاهد المجرمين تهديدا ووعيدا

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلاً الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ

الحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكَافِرِينَ عَسِيراً ﴾ الفرقان ٢٥ ، ٢٦

وتصف ندم هؤلاء الكفار يوم القيامة فتقول :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً • يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ﴾ الفرقان ٢٧ ، ٢٨

ثم تقدم السورة مسيرة الأنبياء وجهادهم وبلاءهم تسلية للرسول الأمين ثم تحثه على الصبر والمصابرة ، وعلى جهاد الكفار بالحجة والبرهان :

﴿ فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ الفرقان ٥٢

وهكذا تمضي السورة فى جانب منها إيناس وتسرية وعطف وايواء من الله لرسوله ، وفى جانب آخر مشاقة وعنت من المشركين لرسول الله ، وتقدم السورة جوانب القدرة الالهية وتصف عجائب صنع الله فى مد الظل وتسخير الشمس ، وخلق الليل والنهار ، والظلام والنور ، وإنزال المطر وإنبات النبات ، وخلق الانسان والكواكب والبروج والافلاك . وتتوعد المشركين بالعذاب والعقاب .

فإذا اقتربت السورة من نهايتها وصفت عباد الرحمن بالتواضع وقيام الليل والاقتصاد فى النفقة والاحتراز من الشرك والزنى وقتل النفس ، وتذكر فضل التوبة ومنزلة التائبين عند الله ، وتختم السورة بتصوير هوان البشرية على الله لولا تلك القلوب المؤمنة التى تلتجيء إليه وتدعوه :

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ . فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ الفرقان ٧٧

موضوعات السورة

رغم إن الخط الأساسى لسورة الفرقان هو العناية بالرسول ومسح آلام الحزن عنه وتثبيت قلبه ، ألا انه يمكن أن نقسم هذه السورة إلى أربع فقرات أو أربع موضوعات متمايزة :

الموضوع الأول :

بدأ الموضوع الأول من سورة الفرقان بتسبيح الله وحمده على تنزيل هذا القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، وبتوحيد الله المالك لما فى السموات والأرض ، المدبر للكون بحكمة وتقدير ، ونفى الولد والشريك . ثم شرع فى ذكر ما أورده الكفار من شبه فذكر شبهتهم الأولى وهى قولهم :

﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ الفرقان ٤

ورد عليهم بأن ادعاءهم ظلم وزور ، لأنه تحداهم به فلم يمكنهم أن يأتوا بمثله .

ثم ذكر شبهتهم الثانية وهى زعمهم أن القرآن أساطير الأولين اكتتبها ورد عليهم بأن الذى أنزله هو خالق الإنسان وهو العليم بأسراره وما يناسبه .

ثم ذكر اعتراضهم على بشرية الرسول وحاجته للطعام والمشى فى الأسواق واقتراحهم أن ينزل عليه ملك أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها .

ورد عليهم بأن الله لو شاء لجعل لنبيه فى الآخرة جنات وقصورا خيرا مما ذكروه من نعم الدنيا ،

وجميع الرسل قبل محمد كانوا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق لأنهم بشر وذلك شأن البشر.

ويستغرق الموضوع الأول من أول السورة إلى الآية ٢٠ منها .

الموضوع الثانى :

بدأ الموضوع الثانى بذكر تطاول المشركين وزعمهم أنه كان يجب أن ينزل عليهم ملائكة تؤيد محمدا فى دعواه أو يروا ربهم .

ثم عاجلهم بمشهد اليوم الذى يرون فيه الملائكة لا تحمل البشرى وإنما تحمل الإنذار والوعيد .

﴿ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكَافِرِينَ عَسِيراً ﴾ الفرقان ٢٦

ليكون في ذلك تسلية للرسول – صلى الله عليه وسلم – وهم يهجرون القرآن وهو يشكو لربه هذا الهجران .

ثم ذكر اعتراضهم على عدم نزول القرآن جملة واحدة، ورد عليهم بأنه نزل مفرقا لتثبيت قلب الرسول والإجابة على استفهام المستفهمين وتوضيح الحق أمام السائلين .

ثم ذكر أنهم في الآخرة يمشون مقلوبين ، وجوههم إلى تحت ، وأرجلهم إلى فوق ، فيضلون في أخراهم كما ضلوا في دنياهم .

ثم شرع في تأييد ذلك بتصوير عاقبة المكذبين من قبلهم من قوم موسى وقوم نوح ، وعاد وثمود ، وأصحاب الرس والقرون الكثيرة بين ذلك ، ويعجب من أمرهم وهم يمرون على قرية لوط المدمرة ولا يعتبرون . فيهون بذلك كله من وقع تطاولهم على الرسول – صلى الله عليه وسلم – وقولهم :

﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ؟ ﴾ الفرقان ٤١

ثم عقب على هذا الاستهزاء بتحقيرهم ووضعهم في صف الأنعام بل دون ذلك

﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ الفرقان ٤٤

ويستغرق هذا الموضوع من الآية ٢١ – ٤٤ .

الموضوع الثالث :

يبدأ الموضوع الثالث بعرض مظاهر القدرة الآلهية في نظام هذا الكون وإبداع صنعته ودقة ناموسه .

فيعرض مشهد الظل ويستطرد إلى تعاقب الليل والنهار ، والرياح المبشرة بالماء المحيي ، وخلقة البشر من الماء ، ومع هذا فهم يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، ويتظاهرون على ربهم وخالقهم ، فينصرون الشيطان على ربهم الذي يريد أن يربيهم ويهديهم ، ويتطاولون في قحة إذا دعوا إلى

عبادة الرحمن ، وقد جعل الله الليل والنهار خلفه بخلاف أحدهما الآخر ، ويتعاقبان ليرى الإنسان الصباح المشرق والليل المظلم فيتذكر عظمة الله ويشكره ، ولكنهم لايتذكرون ولا يشكرون .

ويستغرق هذا الموضوع من الآية ٤٥ إلى الآية ٦٢ .

الموضوع الرابع :

يصف الموضوع الرابع عباد الرحمن الذين يسجدون له ويعبدونه ويسجل مقوماتهم التى استحقوا بها هذه الصفة الرفيعة ، ويفتح باب التوبة على مصراعيه لمن يريد الإقبال على الله ويصور جزاء المؤمنين الصابرين على تكاليف الإيمان والعبادة :

﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ الفرقان ٧٥ ، ٧٦

ويستغرق هذا الموضوع الآيات من ٦٣ ــ ٧٧ حيث تختم السورة ببيان هوان البشرية على الله لولا دعاء المؤمنين ، وعبادة المتقين .

وفى هذا الهوان تهوين لما يلقاه الرسول من عنت المشركين فهو يتفق مع ظل السورة وجوها ، ويتفق مع موضوعها وأهدافها .

أهداف سورة الشعراء

سورة الشعراء مكية وآياتها ٢٢٧ نزلت بعد سورة الواقعة ، وسميت بهذا الاسم لذكر الشعراء فيها فى قوله تعالى :

﴿ والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ ﴾ الشعراء ٢٢٤

موضوع السورة

موضوع سورة الشعراء هو موضوع السور المكية جميعا ، وهو تثبيت العقيدة وتلخيص عناصرها الأساسية ويتمثل ذلك فى دعوة السورة إلى توحيد الله :

﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المُعَذَّبِينَ ﴾ الشعراء ٢١٣

وبيان قدرة الله الفائقة ونعمه السابغة على لسان إبراهيم الخليل حين يقول :

﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * والَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * والَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِين . والَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ ﴾ الشعراء ٧٨ ــ ٨١ .

ثم تستطرد السورة إلى وعيد المكذبين بعذاب الدنيا أو بعذاب الآخرة . حيث تقول :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَاكَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ الشعراء ٦

وتقول :

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ الشعراء ٢٢٧

ذلك إلى تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ الشعراء ٢

وإلى طمأنينة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على مايلقون من عنت المشركين وتثبيتهم على العقيدة مهما أوذوا فى سبيلها من الظالمين ، كما ثبت من قبلهم من المؤمنين .

القصص فى سورة الشعراء

القصص غالب على سورة الشعراء يشغل معظم السورة. فمجموع آياتها ٢٢٧ آية منها ١٨٠ آية تحتوى على قصص هادف يمس شغاف القلوب ويبين رعاية الله للأنبياء والمرسلين ذكرت قصة موسى وفرعون فى الآيات من (١٠ - ٦٨) .

وفيها سبعة مشاهد : أولها : مشهد النداء والبعثة والوحى والمناجاة بين موسى وربه ، وثانيها : مشهد مواجهة موسى لفرعون وملئه وتأييد موسى بآيتى العصا واليد البيضاء ، وثالثها : مشهد التآمر وجمع السحرة وحشد الناس للمباراة الكبرى ، ورابعها : مشهد إيمان السحرة وتهديد فرعون ووعيده ، وخامسها : مشهد إيحاء الله لموسى أن يسرى بعباده ليلا ، وسادسها : مشهد إرسال فرعون فى المدائن حاشرين يجمعون الجنود لملاحقة بنى إسرائيل ، وسابعها : مشهد المواجهة أمام البحر ونهاية القصة بانفلاق البحر وغرق الظالمين ونجاة المؤمنين .

قصة ابراهيم :

تستغرق قصة إبراهيم الآيات : (٦٩ - ١٠٤) ، والحلقة التى تعرض هنا من قصة إبراهيم - عليه السلام - هى حلقة الرسالة إلى قومه ،

وحواره معهم حول العقيدة ، وإنكار الآلهة المدعاة ، والاتجاه بالعبادة إلى الله وبيان صفات الله وفضله وعظيم نعمائه ، فهو الذى يخلق ويطعم ويسقى ، ويشفى ويحيى ويميت ، ويغفر الذنب ويحاسب الناس ويكافىء المؤمنين ويعاقب الغاوين .

وفى أعقاب قصة إبراهيم مشهد كامل من مشاهد القيامة ، يتنكر فيه العباد للآلهة ، ويندمون على الشرك الذى انتهى بهم إلى ماهم فيه كأنهم قد صاروا فعلا فى موقف الحساب والجزاء ، وهنا عبرة القصة للمشركين .

ومن ثم يتوسع فى الحديث عن مقومات عقيدة التوحيد ، وفساد عقيدة الشرك ، ومصير المشركين فى يوم الدين ، لأن التركيز متجه إليه وتختصر السورة ماعدا ذلك مما يفصل فى سور أخرى .

قصة نوح :

تستغرق قصة نوح – عليه السلام – الآيات (١٠٥ – ١٢٢) وتلحظ أن القصص فى سورة الشعراء لايتبع التسلسل التاريخى فقد عرضت قصة موسى ، ثم قصة إبراهيم ، ثم قصة نوح . ولو أراد أن يتبع التسلسل التاريخى لعرض قصة نوح أولا ثم قصة إبراهيم ثانيا ثم قصة موسى ثالثا .

لكنه فى هذه السورة كان يذكر الأحدث ثم يرجع القهقرى من قصة إبراهيم إلى قصة نوح . لأن الخط التاريخى ليس هو المقصود هنا بل المقصود هو العبرة من نهاية الشرك والتكذيب .

وقصة نوح ومن قبلها قصة موسى وقصة إبراهيم قد عرضوا فى سور شتى سابقة .

لكن الجانب الذى يعرضه من القصة يأتى مناسبا لسياق السورة وللعظة والعبرة المقصود منها .

وتعرض قصة نوح فى الغالب فى سلسلة مع قصص عاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين – كما تشاهد فى هذه السورة – وأظهر مافى الحلقة المعروضة فى سورة الشعراء هنا هو دعوة نوح قومه إلى تقوى الله ، وإعلانه أنه لايطالب

منهم أجرا على الهدى ، وإباؤه أن يطرد المؤمنين الفقراء الذين يستنكف منهم الكبراء — وهذا ماكان بواجهه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى مكة سواء بسواء — ثم دعاؤه لربه أن يفتح بينه وبين قومه ، واستجابة الله له بإغراق المكذبين وإنجاء المؤمنين .

قصة هود :

تستغرق قصة نبى الله هود الآيات (١٢٣- ١٤٠) .

وقبيلة عاد وهم قوم هود كانوا يسكنون الأحقاف وهى جبال رملية قرب حضرموت من ناحية اليمن وقد جاءوا بعد قوم نوح ، وكانوا ممن زاغت قلوبهم بعد فترة الطوفان الذى طهر وجه الأرض من العصاه .

واتخذت عاد المساكن المرتفعة والمصانع المشيدة وبلغت شأوا بعيدا من الحضارة الصناعية ، وزادتها القوة بطرا وقسوة فكفرت بنعم الله وتطاولت وتجبرت ونسيت الخالق الرزاق ، وكذبوا نبى الله هود فأهلكهم الله ودمر مصانعهم ودورهم وصب عليهم العذاب من فوقهم ومن تحتهم ، وتركهم عبرة لكل طاغية :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ الشعراء ١٣٩

قصة ثمود :

تستغرق قصة ثمود الآيات : (١٤١ — ١٥٩) .

وقد دعاهم نبى الله صالح إلى عبادة الله وذكرهم بما فيه من نعمة وكانوا يسكنون بالحجر بين الشام والحجاز ، وقد مر النبى صلى الله عليه وسلم بدورهم المدمرة مع صحابته فى غزوة تبوك فاستحث راحلته وحنى ظهره ، وجلا وخشوعا لله وقال للمسلمين : (لاتمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم الا وأنتم مشفقون خشية أن يصيبكم ما أصابهم) .

لقد كانت ثمود فى نعمة فكفروا بنعمة الله عليهم وذكرهم صالح بقدرة الله فطلبوا منه معجزة فأعطاه الله الناقة على شرط أن يكون الماء الذى يستقون

منه يوما للناقة وبما لم وحذرهم صالح أن ينالوا الناقة بسوء على الإطلاق ، وإلا أخذهم عذاب يوم عظيم .

ولكنهم استمروا فى عنادهم وظلمهم ، فنحروا الناقة ، وكذبوا صالحا ، وأحسوا بالندم بعد فوات الأوان ، فأخذهم عذاب الله العادل : « إن فى ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين ۞ وإن ربك لهو العزيز الرحيم » الشعراء ١٥٨ ، ١٥٩ .

قصة لوط :

تستغرق قصة لوط الآيات (١٦٠ — ١٧٥) .

وقد كان قوم لوط يسكنون عدة قرى فى وادى الأردن واشتهر بينهم الشذوذ الجنسى بإتيان الذكور وترك النساء وهو انحراف شنيع فى الفطرة — فقد برأ الله الذكر والأنثى وفطر كلا منهما على الميل الى صاحبه لتحقيق حكمته ومشيئته فى امتداد الحياة عن طريق النسل الذى يتم باجتماع الذكر والأنثى ، فكان هذا الميل طرفا من الناموس الكونى العام .

ولكن قوم لوط خرجوا على الفطرة واستباحوا الفاحشة وهددوا لوطا بالطرد والنفى ، فخسف الله قراهم وغطاها الماء ومنها قرية سدوم ، ويظن أنها ثاوية تحت البحر الميت فى الأردن .

اصحاب الأيكة :

تستغرق قصة أصحاب الأيكة الآيات (١٧٦—١٩١) .

والأيكة : الشجر الكثيف الملتف وهم أهل مدين ونبيهم شعيب عليه السلام وكان شأنهم تطفيف الكيل والميزان وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط وحسن المعاملة فكذبوا نبيهم فأخذهم عذاب يوم عظيم فى يوم حار خانق يكتم الأنفاس ويثقل الصدور ثم تراءت لهم سحابة فاستظلوا بها ، فوجدوا لها بردا ثم إذا هى الصاعقة المجلجلة المدوية تفزعهم وتدمرهم تدميراً وكان ذلك يوم الظلة ، فالظلة كانت سمة اليوم المعلوم .

﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ الشعراء ١٨٩

في أعقاب القصص

الآيات الأخيرة من سورة الشعراء تعقيب على قصص المرسلين فيها ، وتأكيد على بعض أهداف الرسالة السماوية ، فقد ذكر الله في هذا القصص قضية الرسل والرسالات وقصة التكذيب والإعراض وقصة التحدى والعقاب وتمثلت هذه المعانى فى قصة موسى مع فرعون ، وقصة ابراهيم مع ابيه وقومه ، وقصة نوح مع قومة وقصة هود مع عاد، وقصة صالح مع ثمود ، وقصة لوط مع قومه ، وقصة شعيب مع أصحاب الأيكة ، فلما انتهى القصص عاد السياق إلى موضوع السورة وهو العقيدة والإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ، وقد جاء التعقيب الأخير فى السورة يتحدث عن القرآن فيؤكد أنه تنزيل من رب العالمين .

ويشير إلى أن علماء بنى إسرائيل يعرفون خبر هذا الرسول وما معه من القرآن : لأنه مذكور فى كتب الأولين ، إنما المشركون يعاندون الدلائل الظاهرة ، ويزعمون أنه سحر أو شعر ، ولو أن أعجميا لايتكلم العربية نزل عليه هذا القرآن فتلاه عليهم بلغتهم ماكانوا به مؤمنين ، لأن العناد هو الذى يقعد بهم عن الإيمان ، لا ضعف الدليل ، وماتنزلت الشياطين بهذا القرآن على محمد — صلى الله عليه وسلم — كما تتنزل بالأخبار على الكهان وما هو كذلك بشعر ، فإن له منهجا ثابتا ، والشعراء يهيمون فى كل واد وفق الانفعالات والأهواء . إنما هو القرآن المنزل من عند الله تذكيرا للمشركين قبل أن يأخذهم الله بالعذاب ، وقبل أن يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون :

﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ الشعراء ٢٢٧

وقد استغرق هذا التعقيب الأخير على القصص من الآية ١٩٢ إلى ٢٢٧ وختم هذا التعقيب بهذا التهديد المخيف الذى يلخص موضوع السورة .

تلك السورة التى اشتملت على تصوير عناد المشركين ومكابرتهم ، واستهتارهم بالوعيد ، واستعجالهم بالعذاب ، كما اشتملت على مصارع المكذبين على مدار الرسالات والقرون .

أهداف سورة النمل

سورة النمل مكية وآياتها ٩٣ آية نزلت بعد سورة الشعراء.

وسميت بسورة النمل لاشتمالها على مناظرة النمل مع سليمان فى قوله تعالى :

﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ النمل ١٨

نظام السورة

هذه السورة مجاورة لسورة الشعراء وهى تمضى على نسقها فى الأداء: مقدمة وتعقيب يتمثل فيهما موضوع السورة الذى تعالجه ، وقصص بين المقدمة والتعقيب يعين على تصوير هذا الموضوع ، ويؤكده ، ويبرز فيه مواقف معينة للموازنة بين موقف المشركين فى مكة ومواقف الغابرين قبلهم من شتى الأمم ، للعبرة والتدبر فى سنن الله وسنن الدعوات.

موضوع السورة

موضوع سورة النمل الرئيسى – كسائر السور المكية – هو العقيدة : الإيمان بالله ، وعبادته وحده ، والإيمان بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب ، والايمان بالوحى وأن الغيب كله لله لايعلمه سواه ، والإيمان بأن الله هو الخالق الرزاق واهب النعم ، وتوجيه القلب إلى شكر أنعم الله على البشر ، والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله ، وأن لاحول ولاقوة إلا بالله .

القصص فى سورة النمل

يأتى القصص فى سورة النمل لتثبيت أهداف السورة ، وتصوير عاقبة المكذبين بها ، وعاقبة المؤمنين .

تأتى حلقة من قصة موسى – عليه السلام – تلى مقدمة السورة . حلقة رؤيته للنار ، وذهابه إليها ، ونداءه من الملأ الأعلى ، وتكليفه الرسالة إلى فرعون وملئه ، ثم يعجل السياق بخبر تكذيبهم بآيات الله وهم على يقين من صدقها وعاقبة التكذيب مع اليقين ..

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ النمل ١٤

واستغرقت هذه الحلقة من قصة موسى من الآية ٧ – ١٤ .

قصة داود وبلقيس

استغرقت الآيات من ١٥ – ٤٤ فى الحديث عن داود وسليمان وبلقيس وبدأت بالإشارة إلى نعمة الله على داود وسليمان – ثم ذكرت قصة سليمان مع النملة ، ومع الهدهد ، ومع ملكة سبأ وقومها وفيها تظهر نعمة الله على داود وسليمان وقيامهما بشكر هذه النعمة وهى نعمة العلم والملك والنبوة مع تسخير الجن والطير لسليمان وفيها تظهر كذلك أصول العقيدة التى يدعو إليها كل رسول .

قصة بلقيس

تبدأ قصة بلقيس بتفقد سليمان للطير وبحثه عن الهدهد فلم يجده ثم جاء الهدهد بعد ذلك وكان هدهداً عجيباً صاحب ادراك وذكاء وإيمان ، وبراعة فى عرض الأخبار فقد أخبر سليمان أنه رأى ملكة ولها رعية كبيرة فى بلاد سبأ ورآهم فى نعمة وغنى ولكنهم يسجدون للشمس من دون الله فكتب له سليمان رسالة ليلقيها إليهم وفيها :

﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ النمل ٣٠

فلما ألقاها على الملكة جمعت قومها لتستشيرهم فيها : فذكروا لها أنهم أولو قوة وبأس شديد ، وفوضوا أمر ذلك إليها ، فذكرت لهم أن عاقبة الحرب افساد الديار ، وأنها ترى مسالمة سليمان بإرسال هدية إليه ، فلما جاءته الهدية لم يقبلها ، وهددهم بأن يرسل إليهم جنودا لاقبل لهم بها فلم تجد الملكة مفرا من أن تذعن له وتسافر إلى مقر ملكه ، فجمع قومه وأخبرهم بأنه يريد أن يحصل على عرشها قبل حضورها ، فأخبره عفريت من الجن بأنه يمكنه أن يأتيه به قبل أن يقوم من مجلسه ، وأخبره عالم من علماء قومه بأنه يمكنه أن يأتيه به قبل مرور طرفة عين ، فشكر سليمان ربه أن جعل فى ملكه مثل هذا الرجل المؤمن المتصل بالله سبحانه .

وأمر سليمان قومه أن يغيروا شيئا من شكل العرش ليختبر ذكاءها ، فانتهت الملكة إلى جواب ذكى أريب :

﴿ قَالَتْ : كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ النمل ٤٢

فهى لاتنفى ولاتثبت ودلت على فراسة وبديهة فى مواجهة المفاجأة العجيبة ثم تعرضت بلقيس لمفاجأة أخرى ، فى قصر من البلور أقيمت أرضيته فوق الماء ، وظهر كأنه لجة فلما قيل لها ادخلى الصرح حسبت أنها ستخوض فى لجة الماء وكشفت عن ساقيها فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها وقال : إنه صرح مملس من زجاج .

ووقفت الملكة متعجبة مندهشة أمام هذه العجائب التى تعجز البشر ، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر ، فرجعت إلى الله وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره : معلنة إسلامها مع سليمان — لالسليمان — ولكن لله رب العالمين .

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ النمل ٤٤ .

قصة صالح ولوط

وفى أعقاب قصة بلقيس نجد الآيات (٤٥ – ٥٣) تتحدث عن نبي الله صالح ومكر قومه فى حقه ، ونجد الآيات (٥٤– ٥٩) تتحدث عن نبي الله لوط وارتكاب قومه لفاحشة اللواط بالرجال . ومحاولة لوط تقديم النصيحة لهم دون جدوى ، بل هددوه بالطرد والنفى فأنجاه الله وأمطر على قومه حجارة من السماء فأهلكتم فبئس مطر الهالكين الخاطئين »

أدلة القرآن على وجود الله

فى ختام سورة النمل نجد آيات قوية تتحدث عن قدرة الله ومظاهر العظمة والقدرة فى هذا الوجود :

* * *

لقد استعرضت السورة فى بدايتها حلقات من قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط استغرقت الآيات (٧ – ٥٩) .

أما الآيات الأخيرة فى السورة من (٦٠ – ٩٣) فإنها تجول جولة هادفة فى تثبيت العقيدة ، جولة فى مشاهد الكون وأغوار النفس وأطواء الغيب ، وفى أشراط الساعة ، ومشاهد القيامة ، وأهوال الحشر ، التى يفزع لها من فى السموات والأرض إلا من شاء الله .

فى هذه الجولة الأخيرة يستعرض القرآن أمام الناس مشاهدات فى صفحة الكون وفى أطواء النفس لايملكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق الواحد المدبر القدير .

ويتوالى عرض هذه المشاهدات فى ايقاعات مؤثرة ، تأخذ عليهم أقطار النفس وأقطار المشاعر ، وهو يسألهم أسئلة متلاحقة : من خلق السموات والأرض ؟ من أنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ؟ من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى ،وجعل بين البحرين

حاجزا ؟ من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ؟ من يجعلكم خلفاء الأرض ؟ من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟ من يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ؟ من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من يرزقكم من السماء والأرض ؟ وفى كل مرة يقرعهم : أإله مع الله ؟ وهم لايملكون أن يدعوا فى الدعوى ، لايملكون أن يقولوا : أن إلها مع الله يفعل من هذا كله شيئا ، وهم مع هذا يعبدون أربابا من دون الله !

وعقب هذه الايقاعات القوية التى تقتحم القلوب ، لأنها إيقاعات كونية تملأ صفحة الوجود من حولهم ، أو إيقاعات وجدانية يحسونها فى قلوبهم .. يستعرض تكذيبهم بالآخرة وتخبطهم فى أمرها ، ويعقب عليه بتوجيه قلوبهم إلى مصارع الغابرين الذين كانوا مثلهم يكذبون ويتخبطون .

ويخلص من هذا إلى عرض مشهد الحشر ومافيه من هول .ومن فزع ويرجع بهم فى ومضة خاطفة إلى الأرض ، ثم يردهم إلى مشهد الحشر وكأنما يهز قلوبهم هزا ويرجها رجا ..

* * *

وتختم السورة بحمد الله الذى يستحق الحمد وحده ، وتكلهم إلى الله يريهم آياته ، ويطلع على أعمالهم ماظهر منها ومابطن :

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ النمل ٩٣

أهداف سورة القصص

سورة القصص مكية وآياتها ٨٨ نزلت بعد سورة النمل — وقد نزلت فى الفترة المكية الأخيرة فيما بين الهجرة إلى الحبشة والاسراء —

وقد سميت بسورة القصص لاشتمالها على القصص الذى حكاه موسى لنبى الله شعيب فى قوله سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ القصص ٢٥ .

قصة موسى

تستغرق قصة موسى حيزا كبيرا من سورة القصص فمن بداية السورة إلى الآية ٤٨ نجد حديثا مستفيضا عن موسى عليه السلام .

ومن الآية (٧٥ — ٨٢) نجد حديثا عن قارون ، أى أن معظم سورة القصص يتناول قصة موسى ويتناول قصة قارون ، والحكمة فى ذلك أن هذه السورة نزلت بمكة فى مرحلة قاسية كان المسلمون فيها قلة مستضعفة والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان ، فنزلت هذه السورة تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم ، وتقرر أن هناك قوة واحدة فى هذا الوجود ، هى قوة الله ، وأن هناك قيمة واحدة فى هذا الكون هى قيمة الإيمان ، فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه ، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى .

* * *

ومن ثم يقوم كيان سورة القصص على قصة موسى وفرعون ، وتعرض السورة من خلال هذه القصة قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر ، وفى مواجهتها موسى طفلا رضيعا لاحول له ولا قوة ولاملجأ له ولا وقاية .

وقد علا فرعون فى الأرض ، واتخذ أهلها شيعا ، واستضعف بنى إسرائيل ، يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ، وهو على حذر منهم ، وهو قابض على أعناقهم ، لكن قوة فرعون وجبروته وحذره ويقظته ، لاتغنى عنه شيئا ، بل لاتمكن له من موسى الطفل الصغير المجرد من كل قوة وحيلة ، وهو فى حراسة القوة الحقيقية الوحيدة ، ترعاه عين العناية ، وتدفع عنه السوء ، وتعمى عنه العيون ، وتتحدى به فرعون وجنده تحديا سافرا ، فتدفع به إلى حجره ، وتدخل به عليه عرينه ، بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه ، مكفوف الأذى عنه ، يصنع بنفسه لنفسه مايحذره ويخشاه .

* * *

لقد طمعت آسية أن يكون موسى وليدا لها تتبناه مع زوجها فرعون ، فقالت لفرعون :

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ القصص ٩ .

وهكذا دبر الله أن يتربى موسى فى بيت فرعون وأن يؤتى الحذر من مكمنه ، ولما حرم الله المراضع على موسى ، جاءت أمة كمرضعة له ، وأرضعته فى بيت فرعون ، وصار فرعون يجرى عليها كل يوم دينارا من الذهب ، وفى الحديث يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن كأم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرتها » (١) .

---

(١) أى المؤمن يعبد الله فيستفيد من العبادة نظافة القلب وثقة النفس وثبات اليقين وهدوء البال وصحة الجسم والروح . ثم ينال ثواب العبادة فى جنة عرضها السموات والارض يوم القيامة . وبذلك ينال اجره مضاعفا : مرة فى الدنيا ، ومرة فى الاخرة .

موسى فى سن الرجولة :

بلغ موسى أشده ، واستكمل نيفا وثلاثين عاما وقد صنعه الله على عينه فصار يتأمل فى هذا الكون ، ويبتعد عن حاشية فرعون ودخل العاصمة فى فترة الظهيرة فرأى قبطيا يعمل طباخا فى قصر فرعون يتشاجر مع إسرائيلى فاستغاث به الاسرائيلى فضرب موسى القبطى بجمع يده فوقع جثة هامدة ، وندم موسى على ذلك واستغفر الله وتاب إليه .

وتربص قوم فرعون بموسى ليقتلوه ، فانتدبت يد القدرة واحدا منهم يكتم إيمانه عنهم ، وجاء لموسى وقال له :

﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ القصص ٢٠

خرج موسى هاربا مهاجرا متجها إلى أرض مدين وحيدا فريدا فآواه الله ورعاه ، وتعرف هناك على نبي الله شعيب وتزوج بابنته ومكث هناك عشر سنين ، ثم عاوده الحنين إلى مصر فجاء إليها عبر سيناء وعند الشجرة المباركة نودى من قبل الله أن ياموسى انى أنا الله رب العالمين وامتن الله عليه بالرسالة وأيده بالمعجزات .

موسى مع فرعون :

عاد موسى إلى فرعون مرة أخرى يدعوه إلى الإيمان بالله ويقدم له الأدلة العقلية والمعجزات الظاهرة ولكن فرعون طغى وتجبر وكذب وعصى فأهلكه الله وأخذه نكال الآخرة والأولى ان فى ذلك لعبرة لمن يخشى .

* * *

الحلقة الجديدة فى القصة :

عنيت سورة القصص بإبراز حلقة ميلاد موسى وتربيته فى بيت فرعون وهى حلقة جديدة فى القصة تكشف عن تحدى القدرة الإلهية للطغيان والظلم ،

وفيها يتجلى عجز قوة فرعون وحيلته وحذره عن دفع القدر المحتوم والقضاء النافذ :

لقد ولد موسى فى ظروف قاسية فى ظاهرها ، فصاحبته رعاية الله وعنايته ، فى رضاعه وفى نشأته وفتوته ، وصنعه الله على عينه وهيأه للرسالة ، وإذا أراد الله أمرا هيأ له الأسباب ثم قال كن فيكون .

قارون

ذكرت سورة القصص قصة موسى فى بدايتها وقصة قارون فى نهايتها، والهدف واحد فقصة فرعون تمثل طغيان الملك ، وقصة قارون تمثل طغيان المال .

* * *

كان قارون من قوم موسى وكان غنيا ذا قدرة ومعرفة ، وأوتى من المال ما إن مفاتحه لتعي العصبة من الرجال الأقوياء وخرج على قومه فى زينته وأبهته ليكسر قلوب الفقراء ،ونصحه قومه بالاعتدال وإخراج الزكاة ،والاحسان إلى الناس والابتعاد عن الفساد .

فزادته النصيحة تيها وعلوا ، وخرج يباهي الناس بماله وكنوزه ثم تدخلت يد القدرة الإلهية فخسفت به وبداره الأرض ولم يغن عنه ماله ولا علمه .

وهكذا تصير عاقبة الظالمين ، كما غرق فرعون فى البحر : هلك قارون خسفا فى الأرض ، ولاتزال بحيرة قارون تذكر الناس بنهاية الظالمين قال تعالى :

﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ولَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالبيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فى الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ • فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيهِ حاصِبًا ومِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ومِنْهُمْ مَّنْ خَسفْنَا بِهِ الأَرْضَ ومِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيظْلِمهُمْ ولَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ العنكبوت ٣٩ ، ٤٠

أهداف السورة

تهدف سورة القصص إلى إثبات قدرة الله ورعايته للمؤمنين فهو سبحانه الواحد الأحد الفرد الصمد المتفرد بالحكم والقضاء قد آزر موسى وحيدا فريدا طريدا ونجاه من بطش فرعون ، وأغرق فرعون وجنوده — كما أهلك قارون وقومه .

وبين القصتين نجد الآيات من (٤٤ — ٧٥) تعقب على قصة موسى وتبين أين يكون الأمن وأين تكون المخافة : وتجول مع المشركين الذين يواجهون دعوة الإسلام بالشرك والانكار والمعاذير ، تجول معهم جولات شتى في مشاهد الكون ، وفى مشهد الحشر وفيما هم فيه من الأمر ، بعد أن تعرض عليهم دلائل الصدق فيما جاءهم به رسولهم — صلى الله عليه وسلم — وكيف يتلقاه فريق من أهل الكتاب بالإيمان واليقين بينما هم يتلقونه بالكفران والجحود وهو رحمة لهم من العذاب ، لو أنهم كانوا يتذكرون .

ختام السورة

فى ختام السورة نجد الآيات (٨٥ — ٨٨) ، تعد الرسول صلى الله عليه وسلم بالرجوع إلى مكة فاتحا منتصرا ينشر الهدى ويقيم الحق والعدل ؛ ومن العجيب أن هذا الوعد بالنصر جاءه وهو مخرج من بلده مطارد من قومه مهاجرا إلى المدينة ولم يبلغها بعد ، فقد كان بالجحفة قريبا من مكة ، قريبا من الخطر يتعلق قلبه وبصره ببلده الذى يحبه ويقول عند فراقه مخاطبا مكة : « والله إنك لمن أحب البلاد إلى ومن أحب البلاد إلى الله ولولا أن قومك أخرجونى منك ماخرجت » .

ويعده الله بالرجوع إلى مكة فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ القصص ٨٥ :

ويبين سبحانه أن كل مادون الحق فهو عرضة للفناء والزوال وأن زمام الحكم بيده تعالى . ونختم السورة بهذه الآية إثباتا للوحدانية ولجلال القدرة الألهية :

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ القصص ٨٨ .

أهداف سورة العنكبوت

سورة العنكبوت مكية ، نزلت بعد سورة الروم وآياتها ٦٩ آية .
وقد نزلت سورة العنكبوت فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة قبل الهجرة ، وكانت هذه الفترة من أقسى الفترات ولذلك تعرضت السورة لتثبيت المؤمنين على الإيمان ، وبيان أن هناك ضريبة يدفعها المؤمن ، هى الفتنة والامتحان بالايذاء أو بالإغراء أو بالوعد أو بالوعيد .

وتناولت قصص الأنبياء السابقين وجهادهم وبلاءهم ثم إهلاك الكافرين وانتصار المؤمنين وسميت سورة العنكبوت بهذا الاسم لتكرر ذكر العنكبوت فيها فى قوله تعالى :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العنكبوت ٤١

وفى المصحف المطبوع بالقاهرة والمتداول بين الناس نجد فى عنوان السورة : سورة العنكبوت مكية إلا من آية ١ إلى غاية آية ١١ فمدنية .

وقد رجحت اللجنة المشرفة على طبع المصحف الرأى القائل بأن الاحدى عشرة آية الأولى مدنية ، وذلك لذكر الجهاد فيها . . وذكر المنافقين .

وعند التأمل يترجح لدينا أن السورة كلها مكية ، أما تفسير الجهاد فيها فمرجعه أنها واردة بصدد الجهاد ضد الفتنة ، أى جهاد النفس لتصبر ولاتفتن ، وهذا واضح فى السياق ، وكذلك ذكر النفاق فقد جاء بصدد تصوير حالة نموذج من الناس .

ثلاثة فصول

الخط الأسامى لسورة العنكبوت هو الحديث عن الإيمان والفتنة ، وعن تكاليف الإيمان الحقة التى تكشف عن معدنه فى النفوس ، فليس الإيمان كلمة تقال باللسان ، إنما هو الصبر على المكاره والثبات فى المحن .

ومع أن موضوع السورة هو تكاليف الإيمان والثبات فى المحنة.. إلا أنه يمكن أن نقسم سورة العنكبوت إلى ثلاثة عناصر لهذا الموضوع أو ثلاثة فصول :

الفصل الأول : من أول السورة إلى الآية ١٣ .

ويتناول حقيقة الإيمان ، وسنة الابتلاء والفتنة ، ومصير المؤمنين والكافرين ، ثم فردية التبعية فلا يحمل أحد عن أحد شيئا يوم القيامة :

﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ العنكبوت ١٢

الفصل الثانى : من الآية (١٤ ــ ٤٥)

ويتناول قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وإشارة إلى قبيلة عاد وثمود ويصور هذا القصص ما وجد من عقبات وفتن فى طريق كل دعوة ، ويتحدث عن التهوين من شأن هذه العقبات أمام قوة الإيمان والاعتماد على قدرة الله ، والمضى فى تبليغ رسالته وتحمل تبعات هذه الرسالة احقاقا للحق وازهاقا للباطل . قال تعالى ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ الأنبياء ١٨ .

الفصل الثالث : من الآية ٤٦ إلى آخر السورة ، ويتناول النهى عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى ، ويتناول وحدة الدين والعقيدة والإيمان واتحاد ذلك مع الدين الأخير الذى يجحد به الكافرون ويجادل فيه المشركون ويختم بالتثبيت والبشرى الطمأنينة للمجاهدين فى الله المهديين إلى سبيله :

ويتخلل السورة من المطلع إلى الختام ايقاعات قوية عميقة حول معنى الإيمان وحقيقته تهز الوجدان هزا . وتقفه أمام تكاليف الإيمان وقفة

حازمة ، فإما النهوض بها ، وإما النكوص عنها ، وإلا فهو النفاق الذى يفضحه الله .

القصص فى سورة العنكبوت

استغرقت الآيات من (١٤–٤٥) فى الحديث عن قصص الأنبياء والتعليق عليه وبيان العظة والعبرة منه .

وبدأت بالحديث عن نوح عليه السلام ، فقد مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما هى مدة الرسالة وجزء من حياته كان قبل الرسالة ، وجزء منها كان بعد الطوفان وهو عمر مديد ولكن نتيجته محدودة فلم يؤمن به إلا قليل من قومه .

ثم ثنى بالحديث عن إبراهيم الخليل صاحب الرسالة الكبرى إذ دعا قومه إلى عبادة الله الخالق الرزاق ونبذ الأوثان والأصنام والتوجه إلى الله الأله الواحد :

﴿ فَمَا كَانَ جوَاب قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حرِّقُوهُ﴾ العنكبوت ٢٤

وفى قصة لوط يتبدى تبجح الرذيلة وسفورها بلا حياء ولا حرج ، وانحدار البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف والشذوذ مع الاستهتار بالنذير ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين ﴾ العنكبوت ٢٩ .

وفى قصة شعيب مع مدين يتبلى الفساد والتمرد على الحق والعدل فاستحقوا عذاب السماء : ﴿ فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ العنكبوت ٣٧ .

وتذكر الإشارة إلى عاد وثمود بالاعتزاز بالقوة والبطر بالنعمة كما تذكر الإشارة إلى قارون وفرعون وهامان بطغيان الملك واستبداد الحكم والتمرد على أمر الله .

وفى النهاية يلقى الظالم حتفه جزاء ظلمه ، وقد تكرر هذا المعنى فى

سور سابقة وتأكد هنا ليستقر فى الأذهان أمام المشركين والظالمين .

قال تعالى :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ العنكبوت ٤٠ .

وتعقب السورة على هذا القصص بمثل ضربته لهوان قوى الشرك والظلم فالباطل مهما علا لامستقبل له ، والحق مهما امتحن مستقبله هنيء مرىء قال تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ العنكبوت ٤١

وينتهى هذا القصص بهوان الشرك وعزة الإيمان وبيان قدرة الله الذى يضرب الأمثال ليتعظ بها العقلاء وليفهمها العلماء . قال تعالى :

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ العنكبوت ٤٣

الدرس الأخير فى سورة العنكبوت

يستغرق الدرس الأخير فى السورة ربعا كاملا من الآية ٤٦ إلى الآية ٦١ . والسورة بدأت بإعلان ثقل تكاليف الإيمان وتعرض المؤمنين للبلاء والامتحان .

ثم ذكرت قصص الأنبياء وبلائهم من عهد نوح .

وفى هذا الدرس الأخير يبين القرآن وحدة الرسالات فى الهدف ، فالرسالات كلها من عهد نوح والرسل من بعده إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم دعوة واحدة من عند إله واحد ذات هدف واحد هو اصلاح العقيدة وتهذيب السلوك ورد البشرية الضالة إلى قوانين الله العادلة . وأن المؤمنين بكل رسالة لاخوة للمؤمنين بسائر الرسالات : كلهم أمة واحدة

تعبد إلها واحداً ، وأن البشرية فى جميع أجيالها صنفان اثنان : صنف المؤمنين وهم حزب الله . وصنف المشاقين وهم حزب الشيطان .

ولقد ختم الجزء العشرون فى القرآن بآية شهيرة تدعو إلى تلاوة الكتاب وقراءة القرآن وإقامة الصلاة هى قوله تعالى :

﴿ اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ واللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ العنكبوت ٤٥

وبدأ الجزء الحادى والعشرون ، بالحديث عن هذا الكتاب والعلاقة بينه وبين الكتب السابقة ويأمر المسلمين ألا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، لبيان حكمة مجيء الرسالة الجديدة والكشف عما بينها وبين الرسالات قبلها من صلة — إلا الذين ظلموا منهم وبدلوا فى كتبهم وانحرفوا إلى الشرك . والشرك ظلم عظيم - ودعت الآية المؤمنين أن يعلنوا إيمانهم بالدعوات كلها وبالكتب جميعها ، فهى حق من عند الله يصدق مامعهم من القرآن والإسلام ، قال تعالى :

﴿ ولَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ العنكبوت ٤٦

ثم يحذر القرآن المشركين استعجالهم بعذاب الله ، ويهددهم بمجيئه بغتة ويصور لهم قربه منهم ، وإحاطة جهنم بهم ، ويصف حالهم يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ثم يلتفت إلى المؤمنين الذين يتلقون الفتنة والايذاء فى مكة يحضهم على الهجرة بدينهم إلى الله ليعبدوه وحده يلتفت إليهم فى أسلوب عجيب ، يعالج كل هاجسة تخطر فى ضمائرهم ، وكل معوق يقعد بهم ويقلب قلوبهم بين أصابع الرحمن فى لمسات تشهد بأن منزل هذا القرآن هو خالق هذه القلوب ، فما يعرف مساربها ومداخلها الخفية إلا خالقها اللطيف الخبير الذى تكفل برزق كل دابة فى كل مكان وزمان :

وينتقل من هذا التعجيب من حال أولئك المشركين ، وهم يتخبطون فى تصوراتهم ، فيقرون لله سبحانه بخلق السموات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر وانزال الماء من السماء وإحياء الأرض الموات ، وإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله وحده مخلصين له الدين . ثم هم بعد ذلك يشركون بالله ويكفرون بكتابه ويؤذون رسوله ، ويفتنون المؤمنون به ؛ ويذكر المشركين بنعمة الله عليهم بهذا الحرم الآمن الذى يعيشون فيه ، والناس من حولهم فى خوف وقلق وهم يفترون على الله الكذب ويشركون به آلهة مفتراة ، ويعدهم على هذا جهنم وفيها مثوى للكافرين .

وتختم السورة بوعد من الله سبحانه بهداية المجاهدين ورعايتهم فيقول سبحانه :

﴿ والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمعَ المُحْسِنِينَ ﴾

العنكبوت ٦٩

* * *

أهداف سورة الروم

سورة الروم مكية نزلت بعد سورة الانشقاق ، وآياتها ٦٠ آية وقد نزلت سورة الروم فى السنة التى انتصر فيها الفرس على الروم ، وكان ذلك قبل الهجرة بسنة .

وسميت هذه السورة بسورة الروم لقوله تعالى فى أولها: ﴿ آلم * غلبت الروم ﴾ الروم ١ و ٢ .

سبب نزول السورة

قال المفسرون(١) : بعث كسرى جيشا إلى الروم واستعمل عليهم رجلا يسمى شهر يران ، فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر عليهم، فقتلهم وخرب مدائنهم وقطع زيتونهم ، وكان قيصر قد بعث رجلا يدعى يحنس فالتقى مع شهر يران باذرعات وبصرى وهى أدنى الشام إلى أرض العرب فغلبت فارس الروم، وبلغ ذلك النبى وأصحابه بمكة فشق عليهم . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يكره أن يظهر الأميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم ، وفرح كفار مكة وشمتوا ، وقالوا للمسلمين : إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون . وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم .

فأنزل الله تعالى سورة الروم . وفيها يفيد أن أهل فارس قد غلبوا الروم فى أرض الأردن وفلسطين وهى أقرب البلاد إلى جزيرة العرب. ثم وعد الله بأن ينتصر الروم على الفرس فى جولة أخرى خلال بضع سنين . والبضع

---

(١) انظر تفسير الجلالين ، والطبرى ، ومقاتل بن سليمان وغلاف القرآن فى أسباب النزول للواحدى .

هو ما بين الثلاث إلى التسع أو العشر . وقد التقى الجيشان فى السنة السابعة من الالتقاء الأول وغلبت الروم فارس .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : لما كان يوم بدر غلب المسلمون كفار مكة وأتى المسلمين الخبر بعد ذلك – والنبى والمؤمنون بالحديبية – بأن الروم قد غلبوا أهل فارس(١) ففرح المسلمون بذلك ، لانتصار أهل الكتاب على عباد الأوثان ، فذلك قوله تعالى ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ .

فصلان مترابطان

يمضى سياق سورة الروم فى فصلين مترابطين

الفصل الأول : يربط بين نصر المؤمنين والحق الذى تقوم عليه السموات والأرض وما بينهما ، ويرتبط به أمر الدنيا والآخرة . ويوجه إلى سنة الله فيمن مضى قبلهم من القرون ، ويقيس عليها قضية البعث والإعادة . ومن ثم يعرض عليهم مشهدا من مشاهد الكون ، وآيات الله المبثوثة فى ثناياه ، ودلالة تلك المشاهد وإيحائها للقلوب ويضرب لهم من أنفسهم ومما ملكت أيمانهم مثلا تكشف عن سخافة فكرة الشرك ، وقيامها على الأهواء التى لا تستند إلى حق أو علم . . وينتهى هذ الموضوع بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اتباع طريق الحق الواحد الثابت الواضح ، طريق الفطرة التى فطر الناس عليها ، والتى لا تتبدل ولا تدور مع الهوى ، ولا يتفرق متبعوها أشيعا وأحزابا ، كما تفرق الذين اتبعوا الهوى . ويستغرق هذا الفصل من أول السورة إلى الآية ٣٢ .

الفصل الثانى : يكشف الفصل الثانى من سورة الروم عما فى طبيعة الناس من تقلب لا يصلح أن تقام عليه الحياة ، ما لم يرتبطوا بمعيار ثابت لا يدور مع الأهواء . ويصور حالهم فى الرحمة والضر ، وعند بسط الرزق وقبضه ، ويستطرد بهذه المناسبة إلى وسائل إنفاق هذا الرزق وتنميته ، ويعود

---

(١) فى تفسير الجلالين أن نصر الروم كان يوم بدر فاذا لاحظنا أن نزول سورة الروم كان قبل الهجرة بسنة رجحنا ما ورد فى تفسير مقاتل بن سليمان من أن نصر الروم على الفرس جاء خبره للمسلمين وهم فى الحديبية ٦ للهجرة وبذلك يكون بين الهزيمة والنصر بضع سنين أو سبع سنين

إلى قضية الشرك والشركاء فيعرضها من هذه الزاوية فإذا هم لا يرزقون ولا يميتون ولا يحيون ، ويربط بين ظهور الفساد فى البر والبحر وعمل الناس وكسبهم ، ويوجههم إلى السير فى الأرض ؛ والنظر فى عواقب المشركين من قبل ، ومن ثم يوجه الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى الاستقامة على دين الفطرة من قبل أن يأتى اليوم الذى يجزى فيه كل بما كسبت يداه ، ويعود بهم بعد ذلك إلى آيات الله فى مشاهد الكون كما عاد بهم فى الفصل الأول . ويعقب على ذلك بأن الهدى هدى الله ؛ وأن الرسول — صلى الله عليه وسلم — لا يملك إلا البلاغ فهو لا يهدى العمى ولا يسمع الصم ، ثم يطوف بهم فى جولة جديدة فى ذات أنفسهم ويذكرهم بأطوار نشأتهم من بدئها إلى منتهاها ، منذ الطفولة الواهنة الضعيفة إلى الموت والبعث والقيامة ويعرض عليهم مشهدا من مشاهدها ثم ينهى هذا الموضوع ويختم معه السورة بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الصبر على دعوته ، وما يلقاه من الناس فيها والاطمئنان إلى أن وعد الله حق لابد آت ؛ فلا يقلقه الذين لا يوقنون ، ويستغرق هذا الفصل من الآية ٣٣ إلى آخر السورة .

الأفكار العامة للسورة

الفكرة الرئيسية فى سورة الروم هى الكشف عن الارتباطات الوثيقة بين أحوال الناس وأحداث الحياة ، وماضى البشرية وحاضرها ومستقبلها وسنن الوجود ونواميس الكون ومن خلال هذه الارتباطات يبدو أن كل حركة وكل حالة وكل نصر وكل هزيمة كلها مرتبطة برباط وثيق محكومة بقانون دقيق وأن مرد الأمر فيها كله لله : (لله الأمر من قبل ومن بعد) وهذه هى الحقيقة الأولى التى يؤكدها القرآن كله بوصفها الحقيقة الموجهة فى هذه العقيدة . الحقيقة التى تنشأ عنها جميع التصورات والمشاعر والقيم والتقديرات ، والتى بدونها لا يستقيم تصور ولا تقدير .

وهناك أفكار متعددة مبثوثة فى ثنايا السورة منها :

ذكر أخبار القرون الماضية ، وذكر قيام الساعة ، وآيات التوحيد والحجج المترادفة الدالة على الذات والصفات ، وبيان البعث يوم القيامة

وتمثيل حال المؤمنين والكافرين ، وتقرير المؤمنين على الإيمان ، والأمر بالمعروف والإحسان إلى ذوى القربى، ووعد الثواب على أداء الزكاة والإخبار عن ظهور الفساد فى البر والبحر ، وعن آثار القيامة ، وذكر عجائب الصنع فى السحاب والأمطار ، وظهور آثار الرحمة فى إنبات النبات وظهور الربيع ، وذكر إصرار الكفار على الكفر ، وتخليق الله الخلق مع الضعف والعجز وإحياء الخلق بعد الموت والحشر والنشر وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم .

عالمية الدعوة الاسلامية

لم يقف القرآن فى سورة الروم عند حادث هزيمة الروم أمام الفرس ، ثم الوعد بغلبة الروم على الفرس . ولكنه انطلق من ذكر هذه الحادثة ليربط بين سنة الله فى نصر العقيدة السماوية والحق الكبير الذى قامت عليه السموات والارض وما بينهما ، وليصل بين ماضى البشرية وحاضرها ومستقبلها .

ثم يستطرد إلى الحياة الآخرة ومشاهدها ثم يطوف بالمسلمين فى مشاهد الكون ومشاهد النفس وأحوال البشر وعجائب الفطر ، ومن ثم يرتفع تصورهم لحقيقة الارتباطات وحقيقة العلاقات فى هذا الكون الكبير ، ويشعرون بدقة السنن التى تحكم هذا الكون وتصرف أحداث الحياة وتحدد مواضع النصر ومواضع الهزيمة .

وفى ظل ذلك التصور الواسع الشامل ، تتكشف عالمية هذه الدعوة وارتباطها بأوضاع العالم كله من حولها .

ويدرك المسلم موقفه وموقف أمته فى ذلك الخضم الهائل ، ويعرف قيمته هو وقيمة عقيدته فى حساب الناس وحساب الله ، فيؤدى حينئذ دوره على بصيرة ، وينهض بتكاليفه فى ثقة وطمأنينة واهتمام .

* * *

أهداف سورة لقمان

سورة لقمان سورة مكية وآياتها ٣٤ آية نزلت بعد سورة الصافات ، وسورة لقمان من أواخر ما نزل بمكة فقد نزلت بعد الاسراء وقبيل الهجرة . وقد سميت بسورة لقمان لورود قصة لقمان فيها ، وكان من الحكماء الاقدمين ، ولم يرد اسم حكيم غيره فى القرآن .

وسورة لقمان رحلة هائلة بعيدة الآماد والآفاق تطوف بالقلب فى جولات متعددة لتأكيد قضية العقيدة وترسيخها فى النفوس وهى القضية التى تعالجها السور المكية فى أساليب شتى ، ومن زوايا متنوعة ، تتناول القلب البشرى من جميع أقطاره وتلمس جوانبه بشتى المؤثرات التى تخاطب الفطرة وتوقظها .

هذه القضية الواحدة — قضية العقيدة — تتلخص هنا فى توحيد الخالق وعبادته وحده ، وشكر آلائه ، وفى اليقين بالآخرة ، وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل ، وفى اتباع ما أنزل الله والتخلى عما عداه من مألوفات ومعتقدات .

والسورة تتولى عرض هذه القضية ثلاث مرات فى ثلاث جولات ، تطوف كل منها بالقلب البشرى فتعرض عليه دعوة الهدى من جانب الوحى ومن جانب الحكمة ، ومن جانب الكون الكبير سمائه وأرضه وشمسه وقمره وليله ونهاره وأجوائه وبحاره وأمواجه وأمطاره ونباته وأشجاره وأخيرا من جانب القدرة الألهية المحيطة بكل شىء ، صاحبة الملك فى الاولى والآخرة .

فقرات السورة

يمكن أن نقسم سورة لقمان إلى ثلاث فقرات أو جولات :

الجولة الأولى :

تبدأ الجولة بعد افتتاح السورة بالأحرف المقطعة ، فتقرر أن هذه السورة من جنس تلك الأحرف ، هي آيات الكتاب الحكيم وهي هدى ورحمة للمحسنين ، وهؤلاء المحسنون هم :

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

فتقرر قضية اليقين بالآخرة . وقضية العبادة لله ، ومعها مؤثر نفسي ملحوظ :

﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

ومن ذا الذي لا يريد أن يكون من المفلحين ؟ .. وفي الجانب الآخر فريق من الناس يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ويتخذ تلك الآيات هزوا . وهؤلاء يعاجلهم بمؤثر نفس مخيف مناسب لاستهزائهم بآيات الله :

﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عذابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

ثم يمضي في وصف حركات هذا الفريق :

﴿ وإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ ..

ومع الوصف مؤثر نفسي منفر من هذا الفريق :

﴿ كَأَنَّ في أُذُنَيْهِ وقْرًا ﴾

ومؤثر آخر يخيفه مع التهكم الواضح في التعبير

﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

والبشارة هنـــا فيها ما فيها من التهكم الملحوظ .. ثم يعود إلى المؤمنين يفصل شيئا من فلاحهم الذي أجمله في أول السورة ويبين جزاءهم الحسن في الآخرة ، ثم يعرض صفحة الكون الكبير مجالا للبرهان القاطع

الذى يطالع الفطرة من كل جانب ، ويخاطبها بكل لسان ويواجهها بالحق الهائل الذى يمر عليه الناس غافلين .. وأمام هذه الأدلة الكونية التى تهول الحس وتنبه الشعور يأخذ بتلابيب القلوب الشاردة ، التى تجعل لله شركاء وهى ترى خلقه العظيم :

﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ لقمان ١١

وتستغرق هذه الفقرة من أول السورة إلى الآية ١١ .

الجولة الثانية :

تبدأ الجولة الثانية من خلال نفوس آدمية ، وتتناول القضية ذاتها بأسلوب جديد ومؤثرات جديدة : إنها نصيحة من رجل حكيم يعظ ابنه فيقدم له خلاصة تجاربه وحكمته فيأمره بالتوحيد وينهاه عن الشرك ويحثه على بر الوالدين وطاعتهما فيما يأمران به ، إلا اذا أمرا بالشرك ونحوه ، وينبه لقمان ولده إلى إحاطة علم الله بكل شيء ، إحاطة يرتعش لها الوجدان البشرى .

ثم يتابع لقمان وصيته لابنه فيأمره أن يقوم بتكاليف العقيدة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن يصبر ويحتمل فان الصبر من أمهات الفضائل .

ويحث لقمان ولده على مكارم الاخلاق ، وآداب النفس والسلوك فينهاه عن الكبر والبطر ، ويأمره أن يعتدل فى مشيته وأن يغض من صوته ، وأن يلزم الرفق والهدوء والاعتدال .

وقد استغرقت هذه الجولة من الآية (١٢ — ١٩) .

الجولة الثالثة :

تستغرق الجولة الثالثة بقية السورة من الآية (٢٠ — ٣٤) ، وتبدأ بعرض أدلة التوحيد فى خلق السماء والأرض وفى تسخير الكون واسباغ النعم

الظاهرة والباطنة . وفى ظل هذه النعم الظاهرة والأدلة الملموسة يبدو الجدل فى الله مستنكراً من الفطرة تمجه القلوب المستقيمة .

ثم يتابع السياق استنكار موقف الكفر والجمود وتقليد الآباء دون تبصر وروية ، ومن ثم يعرض قضيـة الجزاء فى الآخرة مرتبطة بقضية الكفر والإيمان .

ثم يقف الكافرون وجهاً لوجه أمام منطق الفطرة وهى تواجه هذا الكون فلا تملك إلا الاعتراف بالخالق الواحد الكبير وتعرض الآيات مشهداً كونياً يهز القلب البشرى مشهد الليل وهو يطول فيدخل فى جسم النهار ويمتد ، والنهار وهو يطول فيدخل فى جسم الليل ويمتد ، ومشهد الشمس والقمر مسخرين فى فلكيهما يجريان فى حدود مرسومة إلى وقت لايعلمه إلا خالقهما . ويتخذ من هذا المشهد الكونى دليله إلى الفطرة على القضية المعهودة وهى قضية التوحيد ،

ثم يلمس القلوب بمؤثر آخر من نعمة الله على الناس فى صورة الفلك التى تجرى فى البحر ، ثم يوقفهم أمام منطق الفطرة حين تواجه هول البحر مجردة من غرور القدرة والعلم الذى يبعدها عن بارئها ، ويتخذ من هذا المنطق دليلا على قضية التوحيد :

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ لقمان ٣٢ .

وبمناسبة موج البحر وهوله ، يذكرهم بالهول الأكبر ، وهو يقرر قضية الآخرة الهول الذى يفر فيه الوالد من ولده ، والولد من والده :

﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ لقمان ٣٣.

وتختم السورة بآية تقر القضايا التى عالجتها فى إيقاع قوى عميق مرهوب فتذكر أن الله قد استأثر بخمس لايعلمهن سواه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

هذه الجولات الثلاث بأساليبها ومؤثراتها ودلائلها وآياتها نموذج من أسلوب القرآن الكريم فى معالجة القلوب ، هذا الأسلوب المختار من خالق هذه القلوب العليم بمداخلها ، الخبير بما يصلح لها وما تصلح به من الأساليب .

أهداف سورة السجدة

سورة السجدة مكية ، وآياتها ٣٠ نزلت بعد سورة غافر ، وقد نزلت سورة السجدة فى المرحلة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، إذ كان نزولها بعد الإسراء وقبيل الهجرة .

أسماء السورة :

لسورة السجدة ثلاثة أسماء ، الإسم الأول سورة السجدة ، لاشتمالها على سجدة التلاوة فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ السجدة ١٥ .

الاسم الثانى : سجدة لقمان(١) ، للتمييز عن حم السجدة وهى سورة فصلت .

الاسم الثالث : المضاجع لقوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ السجدة ١٦ .

مخاطبة القلوب

سورة السجدة نموذج متميز من نماذج الخطاب القرآنى للقلب البشرى ، بالعقيدة الضخمة التى جاء القرآن ليوقظها فى الفطر ، ويركزها فى القلوب عقيدة الدينونه لله الأحد ، الفرد الصمد ، خالق الكون والناس ومدبر السموات والارض وما بينهما ، وما فيهما من خلائق لايعلمها الا الله ،

---

(١) أى سورة السجدة المجاورة لسورة لقمان .

والتصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، الموحى اليه بهذا القرآن لهداية البشر إلى الله و الاعتقاد بالبعث والقيامة، والحساب والجزاء .. هذه هي القضية التي تعالجها السورة ، وهي القضية التي تعالجها سائر السور المكية ،كل منها تعالجها بأسلوب خاص ، ومؤثرات خاصة ، « تلتقي كلها في أنها تخاطب القلب البشري ، خطاب العليم الخبير المطلع على أسرار هذه القلوب وخفاياها ، العارف بطبيعتها وتكوينها ، وما يستكن فيها من مشاعر ، وما يعتريها من تأثرات واستجابات . في جميع الأحوال والظروف .

وسورة السجدة تعالج تلك القضية ، بأسلوب وبطريقة غير أسلوب وطريقة سورة لقمان السابقة ، فهي تعرضها في آياتها الأولى ، ثم تمضي بقيتها ، تقدم مؤثرات موقظة للقلب ، منيرة للروح ، مثيرة للتأمل والتدبر كما تقدم أدلة وبراهين على تلك القضية ، معروضة في صفحة الكون ومشاهده ، وفي نشأة الإنسان وأطواره، وفي مشهد من مشاهد اليوم الآخر حافل بالحياة والحركة ، وفي مصارع الغابرين ، وآثارهم القاطعة الناطقة بالعبرة ، لمن يسمع لها ويتدبر منطقها .

« كذلك ترسم السورة صوراً للنفوس المؤمنة ، في خشوعها وتطلعها إلى ربها ، وللنفوس الجاحدة في عنادها ولجاجها ، وتعرض صوراً للجزاء الذي يتلقاه هؤلاء وهؤلاء ، وكأنها واقع مشهود حاضر للعيان ، يشهده كل قارىء لهذا القرآن .

وفي كل هذه المعارض والمشاهد تواجه القلب البشري بما يوقظه ويحركه ويقوده إلى التأمل والتدبر مرة ، وإلى الخوف والخشية مرة ، وإلى التطلع والرجاء مرة ، وتطالعه تارة بالتحذير والتهديد ، وتارة بالأطماع وتارة بالاقناع . . ثم تدعه في النهاية تحت هذه المؤثرات وأمام تلك البراهين ، تدعه لنفسه يختار طريقه ، وينتظر مصيره على علم وعلى هدى وعلى نور »(1) .

---

(1) ــ في ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٢١ / ٩٢

أفكار السورة ونظامها

بدأت سورة السجدة بالحديث عن القرآن ، وأنه حق من عند الله وبيان قدرة الله وعظمته ، فهو خالق السموات والأرض ، وهو المهيمن على الكون ، وهو المدبر للأمر كله ، وهو الخالق للإنسان ، الذي وهبه السمع والبصر والإدراك ، والناس بعد ذلك قليلا ما يشكرون . وبذلك تبدأ قضية الألوهية وصفتها : صفة الخلق ، وصفة التدبير مذكورة في سياق آيات الخلق والتكوين ، وتستغرق هذه المجموعة ، بما فيها صفة الإحسان ، وصفة الإحكام ، وصفة العلم ، وصفة الرحمة ، تستغرق من أول السورة إلى الآية ٩ .

ثم تحدثت الآيات عن إنكار الكافرين البعث والحساب ، وتجيبهم بأن البعث حق، وتعرض مشهدا من مشاهد القيامة يقف فيه المجرمون أذلاء يعلنون يقينهم بالآخرة ، ويجيبهم بالحق الذي حاق بهم به الحسرة النفسية .

وفي جوار هذا المشهد البائس للمكروب نعرض مشهد المؤمنين في الدنيا وهم يسجدون لله ، ويسبحون بحمده ، ويقومون الليل بالصلاة والعبادة ، ثم نبشرهم بحسن الجزاء:

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ السجدة ١٧

ثم تشير الآيات إلى أن مقتضى العدالة يأبى أن يستوي المؤمن والفاسق فقد اختلفوا في العمل في الدنيا ، فيجب أن يختلف جزاؤه في الآخرة ، فللمؤمنين جنات المأوى ، وللفاسقين عذاب مروع في جهنم ، وتستغرق هذه المجموعة من الآية (١٠ – ١٢) .

وفي الآيات الأخيرة من السورة ترد إشارة إلى موسى عليه السلام ، ووحدة رسالته ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم والمهتدين من قومه .

وتعقب هذه الإشارة جولة في مصارع الغابرين من القرون وهم يمشون في مساكنهم غافلين، ثم جولة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء بالحياة والنماء

فيتقابل مشهد الدنيا ومشهد الحياة في سطور ، ويحكي ما كان الكفار في استعجاله من موعد يوم الفصل من المكذبين ، ويجيب القرآن ، بأنه إذا أتى لا يؤمنون بصدقه ، فلا ينفعهم إيمانهم ، ولا يمهلون ليستدركوا ما فاتهم .

وتختم السورة بتوجيه الخطاب للنبي ، أن يعرض عنهم ، وأن ينتظر ما يحل بهم من جزاء عنادهم وكفرهم . قال تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ . فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ السجدة ٢٨ - ٣٠ .

وتختم السورة على هذا الإيقاع الهادئ ، بعد تلك الإيقاعات والمشاهد والمؤثرات ، وتطالب القلب البشري بشتى الصور التي تأخذه من كل جانب وتأخذ عليه كل طريق .

أهداف سورة الأحزاب

سورة الأحزاب مدنية وآياتها ٧٣ آية نزلت بعد سورة آل عمران :
وتقع أحداث السورة فيما بين السنة الثانية والخامسة من الهجرة . وهى فترة حرجة لم يكن عود المسلمين قد اشتد فيها ، إذا كانوا يتعرضون لدسائس المنافقين واليهود .

وسميت هذه السورة بهذا الإسم ، لذكر غزوة الأحزاب فيها ، في قوله تعالى :

﴿ يَحْسَبُونَ الأَحزابَ لَمْ يَذْهبُوا ﴾ الأحزاب ٢٠ .

أحداث السورة

تتناول سورة الأحزاب قطاعا حقيقياً من حياة الجماعة المسلمة ، فى فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى ، إلى ما قبل صلح الحديبية ، وتصور هذه الفترة من حياة المسلمين فى المدينة ، تصويراً واقعيا مباشرا . وهى مزدحمة بالأحداث التى تشير إليها خلال هذه الفترة ، والتنظيمات التى أنشأتها أو أقرتها فى المجتمع الإسلامى الناشيء .

ولهذه الفترة التى تتناولها السورة من حياة الجماعة المسلمة سمة خاصة فهى الفترة التى بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة فى حياة الجماعة وفى حياة الدولة . ولم يتم استقرارها بعد ، ولا سيطرتها الكاملة . كالذى تم بعد فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا : واستتباب الأمر للدولة الاسلامية .

والسورة تتولى جانبا من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة . وابراز ملامح

الملامح . وتثبيتها فى حياة الأسرة والجماعة . وبيان أصولها من العقيدة والتشريع . كما تتولى تعديل الأوضاع والتقاليد أو ابطالها وإخضاعها فى هذا كله للتصور الإسلامى الجديد . وفى ثنايا الحديث عن تلك الأوضاع والنظم . يرد الحديث عن غزوة الأحزاب وغزوة بنى قريظة . ومواقف الكفار والمنافقين واليهود فيهما ، ودسائسهم فى وسط الجماعة المسلمة ، وما وقع من خلخلة وأذى بسبب هذه الدسائس وتلك المواقف ، كما تعرض بعدها إلى دسائسهم وكيدهم للمسلمين فى أخلاقهم وبيوتهم ونسائهم .

ونقطة الاتصال فى سياق السورة بين تلك الأوضاع والنظم وهاتين الغزوتين وما وقع فيهما من أحداث ، هى علاقة هذه وتلك بموقف الكافرين والمنافقين واليهود ، وسعى هذه الفئات لايقاع الاضطراب فى صفوف الجماعة المسلمة ، سواء عن طريق الهجوم الحربى ، والارجاف فى الصفوف والدعوة إلى الهزيمة ، أو عن طريق خلخلة الأوضاع الاجتماعية والآداب الخلقية . . ثم مانشأ فى أعقاب الغزوات والغنائم من آثار فى حياة الجماعة المسلمة ، تقتضى تعديل بعض الأوضاع الإجتماعية ، ومن هذا الجانب وذاك تبدو وحدة السورة ، وتماسك سياقها ، وتناسق موضوعاتها المنوعة ، وهذا وذاك إلى جانب وحدة الزمن تربط بين الأحداث والتنظيمات التى تتناولها السورة .

فصول السورة

يمكن أن نقسم سورة الأحزاب إلى خمسة فصول ، يبدأ الفصل الأول منها بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تقوى الله ، وعدم الطاعة للكافرين والمنافقين ، واتباع مايوحى إليه ربه ، والتوكل عليه وحده .

وبعد ذلك يلقى بكلمة الحق والفصل ، فى بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية ، مبتدئا ببيان أن الإنسان لايملك إلا قلبا واحدا ، ومن ثم يجب أن يتجه إلى إله واحد ، وأن يتبع نهجاً واحد . ولذلك يأخذ فى أبطال عادة الظهار ، وهو أن يحلف الرجل على امراته أنها عليه كظهر أمه ، فتحرم عليه حرمة أمه ويقرر أن هذا الكلام يقال بالأفواه ولاينشىء حقيقة وراءه ، بل تظل الزوجة زوجة ولا تصير أما بهذا الكلام ، ثم من هذا إلى أبطال التبنى :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾

والدعي هو المتبنى يدعي الإنسان بنوته ، وهو لايصير ابنا بمجرد القول، ثم يأمرهم أن يدعو المتبنى إلى أبيه ،فإن ذلك أقسط وأعدل من دعوتهم لمن يتبنونهم .

ثم ينشيء الولاية العامة لرسول الله على المومنين جميعاً ، كما ينشيء صلة الأمومة الشعورية ، بين أزواج النبي — صلى الله عليه وسلم — والمؤمنين، ويعقب على هذا التنظيم الجديد ، بالإشارة إلى أن ذلك مسطور في كتاب الله القديم ، وإلى الميثاق المأخوذ على النبيين وعلى أولى العزم منهم بصفة خاصة : على طريقة القرآن فى التعقيب على النظم والتشريعات والمبادىء والتوجيهات لتستقر فى الضمائر والنفوس ، ويستغرق هذا الفصل من أول السورة إلى الآية ٨

غزوة الأحزاب وبنى قريظة

نجد الفصل الثانى من السورة ممتدا من الآية ٩ إلى الاية ٢٧ ويتناول هذا الفصل غزوة الأحزاب ، ويصف مشاهدها وملابساتها ، ويصور أحوال المسلمين فيها ، وقد جاءتهم قريش من أسفل الوادى ، وغطفان من أعلاه ، وأسقط فى يد المسلمين ، فالأحزاب أمام المدينة ، ويهود بنى قريظة نقضوا عهودهم ، وأظهروا الخيانة والغدر للمسلمين ، وحفر المسلمون خندقاً لحماية المدينه ، وكان المسلمون فى غاية الإجهاد والعسرة المادية ، واشتدت الفتن ، وفى وسط هذه المحن بشر النبي المؤمنين بالنصر ، ووعدهم كنوز كسرى وقيصر وظهر النفاق من بعض المنافقين فقالوا : ان محمدا يعدنا كنوز كسرى وقيصر،وأحدنا اليوم لايستطيع الخروج إلى الخلاء وحده وفى ذلك يقول القرآن :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ الأحزاب ١٢

واستنجد النبي ربه ، ورفع يديه إلى السماء ، وقال : « اللهم رب الأرباب ومسبب الأسباب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم يارب العالمين » . فأرسل الله ريحا عاتية ، فى ليلة شاتية مظلمة ، خلعت خيـــام

الكافرين ، وكفأت قدورهم ، وانسحبت قريش وأحزابها ، في ظلام الليل يجرون أذيال الخوف والانكسار ، وسجل الله ذلك في القرآن بقوله :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ الأحزاب ٩ – ١١ .

وتصف الآيات صدق بعض المؤمنين وبلاءهم الحسن ، وإخلاصهم لله في الجهاد حتى رؤى بعض الشهداء ، وفيه أكثر من سبعين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، وفي مثل هؤلاء تقول السورة :

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَازَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا * مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَاعَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَابَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ الأحزاب ٢٢ – ٢٤

ثم تصف الآيات رحيل الكافرين بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وحماية الله للمسلمين في هذه الموقعة ، وهو سبحانه القوى العزيز . ولما رحلت الأحزاب عن المدينة ، نزل جبريل من السماء وقال : يامحمد إن الملائكة لم تضع السلاح بعد ، اذهب إلى بنى قريظة فان الله ناصرك عليهم ، جزاء خيانتهم وغدرهم فقال عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بنى قريظة » . وهناك حاصر المسلمون بنى قريظة ، ثم أجلوهم عن ديارهم ، وغنم المسلمون أرضهم ودورهم وأموالهم وحصونهم المنيعة بقدرة الله وهو على كل شيء قدير . قال تعالى :

﴿ وَرَدَّ اللهُ الذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنْزَلَ الَّذِين ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ الأحزاب ٢٥ — ٢٧ .

زوجات الرسول

تتناول الآيات ٢٨ — ٣٦ حديثا عن زوجات الرسول ﷺ ، وكانت الغنائم قد جاءت للمسلمين ، وأقبل المال بعد غزوة بنى قريظة ، فتطلعت زوجات الرسول إلى المتعة والنفقة الواسعة ، وقلن يا رسول الله نساء كسرى وقيصر بين الحلى والحلل ، والإماء والخدم ، ونساؤك على ما ترى من هذه الحال .

فنزلت الآيات تخيرهن بين متاع الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة . وخيّر النبي نساءه ، وبدأ بعائشة ، فقال لها : سأعرض عليك أمرين ، أرجو ألا تقطعى فى اختيار أحدهما ، حتى تستشيرى أبويك وقرأ عليها الآيتين :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ الاحزاب ٢٩ ، ٢٨ .

فقالت عائشة أفيك أشاور أبوى يارسول الله؟ أختار الله ورسوله، وقالت كل نسائه مثل ذلك ، فجعلهن الله أمهات المؤمنين وأشارت الآيات التالية إلى جزائهن المضاعف فى الأجر إن اتقين ، وإلى العذاب المضاعف ان ارتكبن فاحشة مبينة ، لأنهن فى بيت النبوة والقدوة والأسوة ، فلهن ضعف

الأجر إن أحسن ، وضعف العقوبة إن أسأن ، فزلة العالم يقرع بها الطبل، وزلة الجاهل يخفيها الجهل، ثم أمرت الآيات زوجات الرسول بخفض الصوت وجعله مستقيما بدون تكسر ، حتى لايطمع الشباب المنافق فيهن ، وحثهن على الاستقرار فى البيت ، وعدم التبرج ، وتلاوة القرآن والتفقه فى أحكامه واستطردت الآيات فى بيان جزاء المؤمنين كافة والمؤمنات ، وكان هذا هو الفصل الثالث فى سورة الأحزاب .

قصة زينب بنت جحش

أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم للناس كافة ، فحرر العبيد ، وعلم الناس المساواة ، وكرم إنسانية الإنسان ، وبين أن الناس سواسية كأسنان المشط ، لافضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى .

وخطب النبى صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش ، لزيد بن حارثة رضى الله عنه ، فاستنكفت وقالت : أنا خير منه حسباً — وكانت امرأة فيها حدة — فأنزل الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِينًا ﴾ الأحزاب ٣٦

فقالت زينب هل رضيته لى يارسول الله زوجاً ؟ قال رسول الله : نعم قالت إذن لا أعصى الرسول — صلى الله عليه وسلم— قد أنكحته نفسى .

وتم هذا الزواج ، ولأمر أراده الله لم يدم طويلا ، فقد كانت زينب تفخر على زيد بن حارثة بأنها حرة قريشة جميلة ، وأنه عبد لايدانيها فى نسبها وحسبها ، فلما تكرر ذلك منها عزم زيد على طلاقها ، وذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبى أمسك عليك زوجك واتق الله ، رغبة فى إبقاء هذا الزواج ، وكان النبى يعلم بوحى من السماء أن زينب ستطلق وأنها ستكون زوجة للرسول ، ليبطل بهذا الزواج آثار التبنى بسابقة عملية

يختار لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بشخصه ، لشدة عمق هذه العادة فى البيئة العربية ، وصعوبة الخروج عليها . ولما طلقت زينب من زيد خطبها النبي لنفسه ونزل الوحي من السماء بذلك ، حتى كانت زينب تفخر على أزواج النبي فتقول زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات .

ولم تمر المسألة سهلة ، فقد فوجىء بها المجتمع الإسلامى كله ، كما انطلقت ألسنة المنافقين تقول : تزوج حليلة ابنه .

وكانت المسألة مسألة تقرير مبدأ جديد ، لأن العرف السائد كان يعد زينب مطلقة ابن لمحمد لا تحل له ، حتى بعد ابطال عادة التبنى فى ذاتها ، ولم يكن قد نزل بعد إحلال مطلقات الأدعياء ، إنما كان حادث زواج النبي بزينب هو الذى قرر القاعدة عملياً ، بعد ما قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار .

وفى هذا مايهدم كل الروايات ، التى رويت عن هذا الحادث ، والتى تشبث بها أعداء الإسلام قديما وحديثا ، وصاغوا حولها الأساطير المفتريات . إنما كان الأمر أمر الله ، تحمله النبي وواجه به المجتمع الكاره لهذا الأمر كل الكراهية ، حتى ليتردد النبي فى تحمله ومواجهة الناس به . قال تعالى :

﴿ وإذ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ ، وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ، لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا ﴾ الأحزاب ٣٧ .

واستمرت الآيات توضح أنه لاحرج على النبي فيما فرض الله له ، فقد فرض له أن يتزوج زينب ، وأن يبطل عادة العرب فى تحريم أزواج الأدعياء ، وذكرت الآيات أن محمدا لم يكن أبا أحد من رجال العرب ،

حتى يحرم عليه الزواج من مطلقته ، وإنما محمد رسول الله وخاتم النبيين ، فهو يشرع الشرائع الباقية ، لتسير عليها البشرية إلى يوم الدين ، ثم حثت الآيات على ذكر الله وطاعته .

وقد استغرق هذا الموضوع الرابع ، الآيات من ٣٦ — ٤٤ .

ادب بيت النبوة

يستغرق الموضوع الخامس الآيات من ٤٥ إلى آخر السورة ، ويبدأ ببيان حكم المطلقات قبل الدخول ، ثم يتناول تنظيم الحياة الزوجية للنبي صلى الله عليه وسلم ، فيبين من يحل له من النساء المؤمنات ومن يحرم عليه ، ويستطرد إلى تنظيم علاقة المسلمين ببيوت النبي ، وزوجاته في حياته وبعد وفاته ، وتقرير احتجابهن إلا على آبائهن أو إخوانهن أو أبناء إخوانهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن ، وإلى بيان جزاء الذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم — في أزواجه وبيوته وشعوره ، وهددهم باللعن في الدنيا والآخرة ، مما يشى بأن المنافقين وغيرهم كانوا يأتون من هذا شيئا كثيرا .

ويعقب على هذا بأمر أزواج النبي وبناته ونساء المؤمنين كافة أن يدنين عليهن من جلابيبهن :

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ .

وبتهديد المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، والمرجفين في المدينة ، بتسليط النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ، وإخراجهم من المدينة كما خرج بنو قينقاع من قبل وبنو النضير بعدهم ، أو القضاء عليهم كما وقع لبني قريظة ، وكل هذا يشير إلى إيذاء هذه المجموعة للمجتمع الإسلامي بوسائل شريرة خبيثة .

ثم ذكر من شرور هؤلاء الناس أنهم كانوا يسألون النبي متى تكون الساعة على سبيل الاستهزاء والاستخفاف ، وأجابهم بأن علم الساعة عند الله ، ولوح بأنها قد تكون قريبا ، وأتبع هذا بمشهد من مشاهد القيامة

حيث يتقلب المجرمون فى جهنم ، ويتمرغون في العذاب والندامة .

ثم تعقب السورة بنهى المؤمنين عن إيذاء النبي ، حتى لايكونوا كالذين آذوا موسى بالطعن عليه ، ثم برأه الله وجعله نزيها وجيها .

تحمل الانسان للأمانة

فى آخر السورة نجد آية شهيرة تكشف عن جسامة العبء الملقى على عاتق البشرية ، وعلى عاتق الجماعة الإسلامية بصفة خاصة ، وهى التى تنهض وحدها بعبء الأمانة الكبرى أمانة العقيدة والاستقامة عليها .

لقد عرض الله حمل الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين حملها لخطر أمرها ، وحملها الانسان الذى خلق مزودا بالإرادة والكسب والاختيار ، والقدرة على الطاعة والمعصية .

فالسماء والأرض والجبال والبحار والكون كله يخضع لله خضوع القهر والغلبة ، ولا يحتمل التكاليف ، ولايستطيع أن يتحمل الأمانة والتكاليف الشرعية ، فيثاب على الطاعة ويعاقب على المعصية ، إنما الإنسان وحده الذى ميزه الله بالعقل والإرادة ، وكرمه وفضله بالكسب والاختيار ، فله قدرة على الطاعة وقدرة على الظلم والجهل ، وقد استعمر الله الإنسان فى الأرض واستخلفه فيهالعلمه ،أنه وحده هو الذى يصلح خليفة عنه ، لما ركز فى غرائزه وطبائعه من حب التنافس ، والتسابق فى عمارة الأرض ، فمن أطاع الله من طائفة الإنسان فله الجنة وله التوبة عند الخطأ ، ومن كفر ونافق فله العذاب والعقاب . قال تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً * لِيُعَذِّبَ اللهُ المُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ وَالمُشْرِكِينَ وَالمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ الأحزاب ٧٢ و ٧٣

● ● ●

أهداف سورة سبأ

سورة سبإ سورة مكية ، نزلت بعد سورة لقمان . وقد نزلت سورة سبأ فى الفترة مابين السنة الحادية عشر والثانية عشر من حياة الرسول بمكة بعد البعثة ، فقد جاء الوحى إلى النبى وعمره ٤٠ سنة ، ثم مكث فى مكة ١٣ عاما ، وفى المدينة ١٠ أعوام ومات وعمره ٦٣ سنة .

وكانت سورة سبأ ضمن مجموعة السور التى نزلت فى السنوات الأخيرة من حياة المسلمين بمكة .

وعدد آيات سورة سبأ ٥٤ آية ، وسميت بهذا الاسم لاشتمالها على قصة سبأ ، وهى مدينة من المدن القديمة فى اليمن ، وكانت عاصمة دولة قديمة به ، وقد خربت عند انهيار سد مأرب بسبب سيل العرم ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا من رِّزْقِ رَبِّكُم وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إلاَّ الكَفُورَ ﴾ سبأ ١٥ — ١٧ .

موضوعات السورة

موضوعات سورة سبأ هى موضوعات العقيدة الرئيسية : توحيد الله والإيمان بالوحى ، والاعتقاد بالبعث ، وإلى جوارها تصحيح بعض القيم الأساسية المتعلقة بموضوعات العقيدة الرئيسية ، وبيان أن الإيمان والعمل الصالح — لا الأموال ولا الأولاد — هما قوام الحكم والجزاء عند الله ،

وأنه ما من قوة تعصم من بطش الله ، وما من شفاعة عنده إلا باذنه .

والتركيز الأكبر فى السورة على قضية البعث والجزاء ، وعلى إحاطة علم الله وشموله ، ودقته ولطفه ، وتتركز الإشارة فى السورة إلى هاتين القضيتين بطرق منوعة ، وأساليب شتى ، وتظلل جو السورة كله من البدء إلى النهاية .

فعن قضية البعث تقول السورة :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ سبأ ٣ .

ويرد قرب ختام السورة :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَّامُ الغُيُوبِ ﴾ سبأ ٤٨

وقد عرض الفيروزبادى مقصود السورة فقال :

بيان حكمة التوحيد ، وبرهان نبوة الرسول — صلى الله عليه وسلم — ومعجزات داود وسليمان ووفاتهما ، وهلاك سبأ ، وشؤم الكفران ، وعدم الشكر ، وإلزام الحجة على عباد الأصنام ، ومناظرة أهل الضلالة وذكر معاملة الأمم الماضية مع النبيين ، ووعد المنفقين والمصدقين بالاخلاف والعودة إلى إلزام الحجة على منكرى النبوة ، وتمنى الكفار فى وقت الوفاة الرجوع الى الدنيا .

ونلاحظ أن هذه القضايا التى تعالجها السورة ، قد عالجتها السور المكية فى صور شتى ، ولكنها تعرض فى كل سورة مصحوبة بمؤثرات منوعة جديدة على القلب فى كل مرة ، ومجال عرضها فى سورة سبأ يأتى مصحوبا بمؤثرات عدة ، ممثلة فى رقعة السموات والأرض الفسيحة ،

وفى عالم الغيب المجهول المرهوب ، وفى ساحة الحشر الهائلة العظيمة ، وفى أعماق النفس المطوية اللطيفة ، وفى صحائف التاريخ المعلومة والمجهولة ، وفى مشاهد من ذلك التاريخ عجيبة غريبة ، وفى كل منها مؤثر موقظ للقلب البشرى ، موقظ له من الغفلة والضيق والهمود .

فمنذ افتتاح السورة وهى تفتح العيون على هذا الكون الهائل ، وعلى صحائفه وما فيها من آيات الله ، وعلى مجال علمه اللطيف الشامل ، الدقيق الهائل .

وتستمر السورة فى مناقشة المكذبين وإلزامهم بالحجة وإيقافهم أمام فطرتهم وأمام منطق قلوبهم بعيداً عن الغواشي والمؤثرات المصطنعة(١) . قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ سبأ ٤٦ .

وهكذا تطوف السورة بالقلب البشرى فى مجالات متنوعة ، وتواجهه بالحقائق والأدلة والحجج ، حتى تنتهى بمشهد عنيف أخاذ من مشاهد القيامة .

فصول السورة

يجرى سياق السورة فى عرض موضوعاتها فى جولات قصيرة متلاحقة متماسكة ، يمكن تقسيمها إلى ستة فصول :

١ ـ الألوهية وإثبات البعث

تحدثت الآيات التسع الأولى من السورة ، عن عظمة الخالق المالك لما فى السموات والأرض ، المحمود فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ، وقررت شمول علمه الدقيق لما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من

(١) أنظر فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٢٢/٥٣ – ٥٦

السماء وما يعرج فيها ، ثم تطرقت للحديث عن إنكار الكافرين لمجيء الساعة ، وردت عليهم بتأكيد إتيانها ، ليتم إثابة المؤمنين ، وعقوبة الكافرين ، وليستقين العلماء والمؤمنون ، أن القرآن حق وصدق ، وهداية إلى صراط العزيز الحميد ، ثم تحدثت عن عجب الكفار من قضية البعث واستبعادهم لوقوعه ، بعد أن يموتوا ويمزقوا كل ممزق ، وأجابت عن ذلك بأنه لاوجه لاستبعادهم ، وهم يرون من كمال قدرة الله مابين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ، وهددت المكذبين بخسف الأرض من تحتهم ، أو إسقاط السماء كسفا عليهم .

٢ ـ داود وسليمان

تتناول الآيات من (١٠ـ١٤) طرفا من قصة داود وسليمان وتذكر نعمة الله عليهما وفضله ، فقد أعطى داود النبوة والزبور والصوت الحسن وإذا سبح الله سبحت معه الجبال والطير . وألان الله له الحديد ، وأوحى إليه أن يعمل دروعا سابغات للحرب ، كما حثه الله على العمل الصالح ، فإنه سبحانه بصير خبير .

وقد سخر الله لسليمان الريح ذهابها شهر ورجوعها شهر ، تحمل بساطه هو وخاصته إلى حيث يشاء ، وقد ذلل الله له الجن تعمل له أنواع المصنوعات ، فلما انقضى أجله مات واقفاً متكئا على عصاه وما دل الجن على موته إلا أرضة قرضت عصاه فسقط فانطلقوا بعد أن كانوا مسجونين .

٣ ـ قصة سبأ

ضرب الله مثلا للشاكرين بداود وسليمان ، وقليل من الناس من يدرك فضل الله عليه ، وعظيم نعمائه التي لاتعد ولاتحصى . ثم ضرب الله مثلا للبطر وجحود النعمة بمملكة سبأ ، وقد سبق أن ذكرت في سورة النمل بالعظمة والقوة ، فلما آمنت بلقيس وكفر من جاء بعدها وأعرضوا عن شكر الله أصابهم الدمار .

وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبي اليمن ، وكانوا في أرض

مخصبة ماتزال منها بقية إلى اليوم ، وقد ارتقوا فى سلم الحضارة ، حتى تحكموا فى مياه الأمطار الغزيرة التى تأتيهم من البحر فى الجنوب والشرق . فأقاموا خزانا طبيعيا يتألف جانباه من جبلين ، وجعلوا على فم الوادى بينهما سداً به عيون تفتح وتغلق ، وخزنوا المياه بكميات عظيمة وراء السد وتحكموا فيها وفق حاجتهم، فكان لهم من هذا مورد مائى عظيم ، وقد عرف باسم : سد مأرب .

وهذه الجنان عن اليمين والشمال . رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل ، ولكنهم لم يشكروا نعمة الله ولم يذكروا آلاءه ، فسلبهم هذا الرخاء ، وأرسل السيل الجارف الذى يحمل العرم فى طريقه – وهى الحجارة – لشدة تدفقه ، فحطم السد وانساحت المياه فطغت وأغرقت ، ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك فجفت الجنان واحترقت ،وتبدلت تلك الجنان الفيحاء صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة .

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ﴾ سبأ ١٧

بنعمة الله

(وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الكَفُورَ)

وقد استغرقت قصة سبأ الآيات من (١٥–٢١) .

٤ – الشرك والتوحيد

المتأمل فى الآيات من (٢٢ – ٢٧) فى سورة سبأ يجد ظاهرة متميزة فقد تكرر قول : قل فى أول هذه الآيات ، كما تضمنت عدداً من الأسئلة والحقائق ، فى أسلوب رائع قوى .

لقد بدأت الآيات تتحدى المشركين أن يدعو الذين يزعمون أنهم آلهة من دون الله ، وهم لايملكون نفعاً ولا ضرا ، ولايملكون شفاعة عند الله – ولو كانوا من الملائكة – فالملائكة يتلقون أمر الله بالخشوع الراجف ولا يتحدثون حتى يزول منهم الفزع والارتجاف العميق . ويسألهم الله

عمن يرزقهم من السموات والأرض ، والله مالك السموات والأرض ، وهو الذى يرزقهم بلا شريك ، ثم يفوض أمر النبى وأمرهم إلى الله ، وهو الذى يفصل فيما هم فيه مختلفون ، ويختم هذا الفصل بالتحدى كما بدأه ، أن يروه الذين يلحقونهم بالله شركاء .

﴿ كَلَّا بلْ هُوَ اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ سبأ ٢٧ .

وهكذا تطوف الآيات بالقلب البشرى فى مجال الوجود كله : حاضره وغيبه ، سمائه وأرضه دنياه وآخرته ، وتقف به أمام رزقه وكسبه وحسابه وجزائه ، كل ذلك فى فواصل قوية ، وضربات متلاحقة وآيات تبدأ كل آية منها بفعل الأمر قل ، وكل قولة منها تدمغ بالحجة ، وتصدع بالبرهان فى قوة وسلطان .

وفى أعقاب هذه الآيات بيان لرسالة الرسول وأنها عامة للناس أجمعين :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً للنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سبأ ٢٨ .

٥ ـ مشاهد القيامة والجزاء

يستغرق الفصل الخامس فى السورة من الآية ٢٩–٤٢ . ويبدأ بسؤال يوجهه الكفار للنبى عن يوم القيامة ، استبعاداً لوقوعه ، والجواب أن ميعاده لايتقدم ولا يتأخر ، وقد اعتز الكفار بالأموال والأولاد ، وقالوا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب السابقة عليه .

وهنا يعرض القرآن موقف الظالمين أمام ربهم يتحاورون ، فيراجع بعضهم بعضا ، كل منهم يحاول أن يلقى التبعة على أخيه ، فيقول الضعفاء : للسادة والكبراء ، لقد تصديتم لنا بالإغراء ، والمكر بنا ليلا ونهارا ، حتى أفسدتم علينا رأينا ، وجعلتمونا نكفر بالله ، ونجعل له نظراء من الآلهة الخيالية ويحتج الكبراء ويقولون أنحن منعناكم عن الهدى

بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين إذ أخذتم الكفر عنا بالتقليد .

وعض الجميع بنان الندم حين رأوا العذاب ، والأغلال في أعناقهم .
ثم نرى المترفين يقاومون كل إصلاح ، ويكذبون كل رسالة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ سبأ ٣٤.

وقد احتج المترفون بكثرة أموالهم وأولادهم ، واعتقدوا أن فضلهم في الدنيا سيمنعهم من العذاب في الآخرة ، وهنا يضع القرآن موازين الحق والعدل ، ويقرر القيم الحقيقية التي يكون عليها الجزاء والحساب ، وهي قيم الإيمان والعمل الصالح ، لا الأموال والأولاد .

وفي مشاهد القيامة يتضح أنه لا الملائكة ولا الجن الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ، يملكون لهم في الآخرة شيئا .

كما توضح الآيات أن بسط الرزق وقبضه أمران يجريان وفق إرادة الله ، وليسا دليلا على رضى أو غضب ، ولا على قربى أو بعد . إنما ذلك إبتلاء واختبار .

٦ ـ الدعوة الى التأمل والتفكر

في الآيات الأخيرة من السورة من ٤٣ ـ ٥٤ ، حديث عن عناد الكافرين وجحودهم ، من غير برهان ولا دليل ، وتنبيه من القرآن بما وقع لأمثالهم ، وعرض لمصارع الغابرين الذين أخذهم النكير في الدنيا وهم كانوا أقوى منهم وأعلم وأغنى .

ويعقب هذا عدة إيقاعات عنيفة ، كأنما هي مطارق متوالية ، يدعوهم في أول إيقاع منها إلى أن يقوموا لله متجردين ، ثم يتفكروا غير متأثرين بالحواجز التي تمنعهم من الهدى ومن النظر الصحيح . وفي الإيقاع الثاني يدعوهم إلى التفكير في حقيقة البواعث التي تجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يلاحقهم بالدعوة ، وليس له من وراء ذلك نفع ، ولا هو

يطلب على ذلك أجرا ، فما لهم يتشككون فى دعوته ويعرضون ؟

وتوالت الآيات تبدأ بلفظ قل .. وكل منها يهز القلب هزا ، فمحمد لم يسألهم أجرا بل أجره على الله ، ومحمد مؤيد صلى الله عليه وسلم بالحق. والحق غالب والباطل مغلوب .

ثم تلطف فى وعظهم فذكر أن محمدا صلى الله عليه وسلم إن ضل فضلاله إنما يعود عليه وحده وإن اهتدى فبهدى الله له ، ثم بين سوء حالهم إذا فزعوا يوم القيامة إلى ربهم ، فلا يكون لهم فوت منه ولا مهرب ، وذكر أنهم يؤمنون به فى ذلك الوقت فلا ينفعهم إيمانهم ، وتختم السورة بمشهد هؤلاء الكفار ، وقد حيل بينهم وبين مايشتهون من الإيمان فى غير موعده ، والإفلات من العذاب والنجاة من أهوال القيامة ، كما فعل أشياعهم من كفرة الأمم التى قبلهم ، إنهم كانوا فى شك موقع فى الارتياب

وهكذا تختم السورة بمشهد يثبت قضية البعث والجزاء ، وهى القضية التى ظهرت خلال السورة من بدايتها ، قال تعالى :

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَايَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ سبأ ٥٤ .

***

أهداف سورة فاطر

سورة فاطر سورة مكية نزلت بعد سورة الفرقان ، وقد نزلت سورة فاطر فيما بين الهجرة إلى الحبشة والأسراء . وإذا قسمنا حياة المسلمين بمكة إلى ثلاث فترات : الفترة المبكرة للدعوة ، والفترة المتوسطة فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، والفترة الأخيرة فيما بين الإسراء والهجرة إلى المدينة ، رأينا أن سورة فاطر نزلت فى الفترة المتوسطة من حياة المسلمين بمكة ، ولسورة فاطر إسمان : الاسم الأول سورة فاطر ، والاسم الثانى سورة الملائكة ؛ لقوله تعالى فى أول السورة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فاطر ١ .

موضوعات السورة

قال الفيروزبادى : مقصود سورة فاطر هو : « بيان خلق الملائكة ، وفتح أبواب الرحمة ، وتذكير النعمة ؛ والتحذير من إغراء الشياطين ؛ وتسلية الرسول وصعود كلمة الشهادة إلى الله وذكر عجائب البحر ؛ واستخراج الحلية منه ؛ وسير الليل والنهار ؛ وعجز الأصنام عن الربوبية ، وفقر العباد إلى الله ، وفضل القرآن وشرف تلاوته ، وأصناف الخلق فى وراثة القرآن ، وخلود الجنة لأهل الإيمان ، وخلود النار لأهل الكفر والطغيان ، والمنة على العباد بحفظ السماء والأرض من الخلل والاضطراب . . » (١) .

---

(١) أنظر بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزبادى ١/٣٨٦

سياق السورة

سورة فاطر لها نسق خاص في موضوعها وفي سياقها ، أقرب ماتكون إلى نسق سورة الرعد . « فهي تمضي في إيقاعات تتوالى على القلب البشرى من بدئها إلى نهايتها ، وهي إيقاعات موحية مؤثرة تهز القلب هزا ، وتوقظه من غفلته ليتأمل عظمة هذا الوجود ، وروعة هـذا الكون ، وليتدبر آيات الله المبثوثة في تضاعيفه ، المتناثرة في صفحاته ، وليتذكر آلاء الله ويشعر برحمته ورعايته ، وليتصور مصارع الغابرين في الأرض ومشاهدهم يوم القيامة ، وليخشع ويعنو وهو يواجه بدائع صنع الله ، وآثار يده في أطواء الكون ، وفي أغوار النفس ، وفي حياة البشر ، وفي أحداث التاريخ ، وهو يرى ويلمس في تلك البدائع وهذه الآثار وحدة الحق ووحدة الناموس ، ووحدة اليد الصانعة المبدعة القوية القادرة . . ذلك كله في أسلوب وفي إيقاع لايتماسك له قلب يحس ويدرك ، ويتأثر تأثر الأحياء .

« والسورة وحدة متماسكة متوالية الحلقات ، متتالية الإيقاعات يصعب تقسيمها إلى فصول متميزة الموضوعات فهي كلها موضوع ، كلها إيقاعات على أوتار القلب البشرى ، تستمد من ينابيع الكون والنفس والحياة والتاريخ والبعث ، فتأخذ على النفس أقطارها وتهتف بالقلب من كل مطلع إلى الإيمان والخشوع والإذعان .

« والسمة البارزة الملحوظة هي تجميع الخيوط كلها في يد القدرة المبدعة وإظهار هذه اليد تحرك الخيوط كلها وتجمعها ، وتقبضها وتبسطها ، وتشدها وترخيها فلا معقب ولا شريك ولا ظهير . » (١) .

فقرات السورة

رغم أن السورة كلها وحدة متماسكة إلا أنه يمكن تقسيمها إلى خمس موضوعات أو مجموعات :

---

(١) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٩٦/٢٢

١ ــ رحمة الله وفضله

إذا تأملنا الآيات : من (١ ــ ٨) فى سورة فاطر ، نجد فيضا من أنعم الله التى لا تعد ولا تحصى على عباده ، فهو خالق السماء والأرض وجاعل الملائكة رسلا يوصلون آثار قدرته وجليل وحيه إلى عباده ، وإذا لاحظت عناية الله عبداً زالت من أمامه القيود والسدود (مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) فاطر / ٢ . لقد فتح الله رحمته لأنبيائه وأصفيائه ، جعل النار بردا وسلاماً على إبراهيم ، وأنقذ يوسف من الجب ومن السجن واستجاب دعاء يونس فى بطن الحوت ، وآزر موسى فى طريقه إلى فرعون ، وأنزل رحمته بأصحاب الكهف وحفظهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، وشملت رحمة الله محمداً صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ، وهو طريد :

﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ التوبة ٤٠ .

وإذا أمسك الله رحمته عن عبد ، فلن ينفعه مال ولا رجال . وإذا استقر اليقين فى القلب تنبه إلى كيد الشيطان وفنه ، فالمؤمن يعلم أن الشيطان عدو لنا يزين لنا الشر ليوقعنا فى المعصية ، فمن أطاع الشيطان زين له سوء عمله فرآه حسنا ، ووقع فى الضلال ، ومن يضلل الله فما له من هاد .

٢ ــ آيات الله فى الكون

فى الآيات من (٩ ــ ١٥) نلحظ آثار القدرة الالهية ، فى نفس الإنسان وفى صفحة الكون ، وفى الرياح يسوقها الله ، ثم تثير السحب فتسوقها يد القدرة مطرا يحيى الأرض بعد موتها ، وكذلك البعث والحياة بعد الموت .

والله خالق الإنسان وبيده رعايته فى مراحل تكوينه ، وتخليقه فى بطن أمه ، ثم رعايته وليدا وناشئاً وزوجاً ، وهو عليم بمن يموت مبكرا ، إن ذلك على الله يسير .

وتمتد قدرة الله إلى كل مظهر من مظاهر الوجود ، فتراها فى مشهد البحرين

المتميزين أحدهما عذب فرات ، والآخر ملح أجاج ، وفيهما من نعم الله على الناس مايقتضى الشكر والعرفان .

وفى مشهد الليـل والنهار يتداخلان ، ويطولان ويقصران ، دليل على التقدير والتدبير ، وكذلك مشهد الشمس والقمر ، مسخرين بهذا النظام الدقيق .

هذه آثار قدرة الله ، والذين يدعون من دونه لايسمعون ولا يستجيبون ويوم القيامة يتبرءون من عبادهم الضلال . ولا يخبر بهـذه الحقائق مثل الإلـه الخبير .

٣ ـ الله غنى عن عبادتنا

فى الآيات من ١٥ — ٢٦ بيان لحقيقة أساسية ، هى أن الله غنى عن عبادتنا ، فلا تنفعه طاعتنا ، ولا تضره معصيتنا ، ولكننا نحن الفقراء المحتاجون إلى رضاه وعنايته ، فمن وجد الله وجد كل شىء : وجد الهداية والسعادة والثقة بالنفس ، والأمل فى الغد ، ومن فقد الله فقد كل شىء . ولو شاء الله أن يذهب الناس لأهلكهم ، وأتى بخلق جديد يعرفون فضله عليهم .

ويشير القرآن إلى أن طبيعة الهدى غير طبيعة الضلال ، وأن الاختلاف بين طبيعتهما أصل عميق ، كأصالة الاختلاف بين العمى والبصر ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ، والموت والحياة ، وأن بين الهدى والبصر والنور والظل والحياة صلة وشبها ، كما أن بين العمى والظلمة والحرور والموت صلة وشبها ، ثم تنتهى الجولة بإشارة إلى مصارع المكذبين للتنبيه والتحذير .

٤ ـ كتابان الهيان

عند قراءة الآيات من ٢٧ ـ ٣٨ يتضح أمامنا أن الله عز وجل كتابين يدلان عليه ، أحدهما كتاب الكون والثانى الكتاب المنزل ، والمؤمن يقرأ دلائل القدرة فى كتاب الكون : فى صحائفه العجيبة الرائعة ، المتنوعة الألوان والأنواع والأجناس ، والثمار المتنوعة الألوان ، والجبال الملونة الشعاب ، والناس

والدواب والأنعام وألوانها المتعددة الكثيرة .. هذا اللفتة العجيبة إلى تلك الصحائف الرائعة فى كتاب الكون المفتوح .

والمؤمن يقرأ فى الكتاب المنزل ويستيقن بما فيه من الحق المصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة : وتوريث هذا الكتاب للأمة المسلمة . ودرجات الوارثين وما ينتظرهم جميعاً من نعيم بعد عفو الله وغفرانه للمسيئين ، ومشهدهم فى دار النعيم ، ومقابلهم مشهد الكافرين الأليم ، وتختم الجولة العجيبة المديدة المنوعة الألوان بتقرير أن ذلك كله يتم وفقاً لعلم الله العليم بذات الصدور .

٥ ـ دلائل الايمان

تشتمل الآيات من (٣٩ ـ ٤٥) على الفقرة الأخيرة من السورة وفيها دلائل يقدمها القرآن ليحرك القلوب نحو الإيمان . وتجول الآيات جولات واسعة المدى تشتمل على إيحاءات شتى : جولة مع البشرية فى أجيالها المتعاقبة يخلف بعضها بعضا ، « وجولة فى الأرض والسموات للبحث عن أى أثر للشركاء ، الذين يدعونهم من دون الله ، وجولة فى السموات والأرض كذلك لرؤية يد الله القوية تمسك بالسموات والأرض أن تزولا ، وجولة مع هؤلاء المكذبين بتلك الدلائل والآيات كلها ، وهم قد عاهدوا الله من قبل لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، ثم نقضوا هذا العهد وخالفوه فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا ، وجولة فى مصارع المكذبين من قبلهم وهم يشهدون آثارهم الداثرة ، ولا يخشون أن تدور عليهم الدائرة : وأن تمضى فيهم سنة الله الجارية » (١) . ثم الختام الموحى الموقظ للقلب ، المبيِّن فضل الله العظيم فى إمهال العصاة : فان تابوا قبل توبتهم ، وإن أصروا على المعصية عاقبهم وحاسبهم قال تعالى :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ، وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ فاطر ٤٥ .

---

(١) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٢٢/١٣٩ .

أهداف سورة يس

سورة يس مكية ، نزلت فى الفترة المتوسطة من حياة المسلمين بمكة ، أى فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، وآياتها ٨٣ آية نزلت بعد سورة الجن .

وللسورة إسمان : سورة يس لافتتاحها بها ، وسورة حبيب النجار لاشتمالها على قصته ، فقد جاء فى تفسير قوله تعالى :

﴿ وجاءَ من أقصى المدِينةِ رجُلٌ يسْعَى قالَ يا قوْمِ اتبِعُوا المُرْسلِين ﴾

أن هذا الرجل يسمى حبيب النجار .

مقصود السورة

قال الفيروزبادى : « معظم مقصود سورة يس : تأكيد أمر القرآن والرسالة ، وإلزام الحجة على أهل الضلالة ، وضرب المثل بأهل قرية أنطاكية ، فى قوله تعالى :

﴿ واضرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ القَرْيَةِ إذ جاءَها المُرْسلونَ ﴾ يس ١٣

وذكر قصة حبيب النجار الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، وبيان البراهين المختلفة فى إحياء الأرض الميتة ، وإبداء الليل والنهار ، وسير الكواكب ودوران الأفلاك ، وجرى الجوارى المنشآت فى البحار ، وذلة الكفار عند الموت ، وحيرتهم ساعة البعث ، وسعادة المؤمنين المطيعين ، وشغلهم فى الجنة ، وتميز المؤمن من الكافر فى القيامة ، وشهادة الجوارح على أهل المعاصى بمعاصيهم ، والمنة على الرسول صلى الله عليه وسلم بصيانته من الشعر ونظمه ، وإقامة

البرهان على البعث ، ونفاذ أمر الحق فى كن فيكون ، وكمال ملك ذى الجلال على كل حال » (١) فى قوله سبحانه .

﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يس ٨٣

ملامح السورة

سورة يس لها وقع خاص فى نفوس المسلمين ، يرددون قراءتها فى الصباح والمساء ، وتقرأ على المريض للشفاء ، وعلى المحتضر لتيسير خروج الروح ، وعلى المقابر لتنزل الرحمة على الموتى ، وقد أخرج ابن حبان فى صحيحه مرفوعا : « من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر الله له » (٢) .

وتتميز سورة يس بقصر الآيات ، وسهولة القراءة ، وتتابع المشاهد وتنوعها ، من بدء السورة إلى نهايتها .

والموضوعات الرئيسية فى السورة ، هى موضوعات السور المكية ، وهدفها الأول هو بناء أسس العقيدة ، فهى تتعرض لطبيعة الوحى وصدق الرسالة ، وتسوق قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحى والرسالة ، وتعرض هذه العاقبة فى القصة على طريقة القرآن فى استخدام القصص لتدعيم قضاياه ، وقرب نهاية السورة تعود إلى الموضوع ذاته فتوضح أن ما يوحى إلى محمد ليس شعرا ولكنه ذكر وقرآن مبين .

كذلك تتعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية ، فيجىء استنكار الشرك على لسان الرجل المؤمن ، الذى جاء من أقصى المدينة ليعلن إيمانه بالمرسلين ، وهو يقول :

﴿ وَمَالِىَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .. ﴾ يس ٢٢

والقضية التى يشتد عليها التركيز فى السورة ، هى قضية البعث والنشور ، وهى تتردد فى مواضع كثيرة من السورة ، وتحكى السورة قصة أبى بن خلف ،

---

(١) بصائر ذوى التمييز ١ / ٣١٠ بتصرف .

(٢) انظر بصائر ذوى التمييز ١ / ٣٩٢

حين جاء بعظم قد رمَّ وبلى وصار ترابا ، ثم ضغط عليه بيديه ،ونفخ فيه فطار فى الفضاء ، ثم قال: يامحمد تزعم أن ربك يبعث هذا بعد ما رم وبلى وصار ترابا ، فقال له النبى نعم ويبعثك ويدخلك النار ، قال تعالى :

﴿ وضَرب لَنَا مثَلًا ونَسِى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ العِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ يس ٧٨، ٨٩ .

« والقضايا المتعلقة ببناء العقيدة ، تتكرر فى السور المكية ، ولكنها تعرض كل مرة من زاوية معينة ، تحت ضوء معين ، مصحوبة بمؤثرات تناسب جوها ، وتتناسق مع إيقاعها وصورها .

« وهذه المؤثرات منتزعة فى هذه السورة من مشاهد القيامة — بصفة خاصة — ومن مشاهد القصة ومواقفها وحوارها ، ومن مصارع الغابرين على مدار القرون ، ثم من المشاهد الكونية الكثيرة ، المتفرعة الموحية : مشهد الأرض الميتة تدب فيها الحياة ، ومشهد الليل يسلخ منه النهار فإذا هو ظلام ، ومشهد الشمس تجرىَ لمستقرها ، ومشهد القمر يتدرج فى منازله حتى يعود كالعرجون القديم ، ومشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين ، ومشهد الأنعام مسخرة للآدميين ، ومشهد النطفة وتحولها فى النهاية إلى إنسان فإذا هو خصيم مبين ، ومشهد الشجر الأخضر تكمن فيه النار التى يوقدون » (١) :

فصول السورة

يجرى سياق السورة فى عرض موضوعاتها فى ثلاثة فصول :

١ ـ رسالة ورسول

يستغرق الفصل الأول من السورة الآيات من (١ — ٢٩) ، ويبدأ بالقسم بالحرفين « يا ـ سين » وبالقرآن الحكيم على صدق رسالة النبى صلى الله

(١) فى ظلال القرآن ٧/٢٢

عليه وسلم ، وأنه على صراط مستقيم ، ثم يبين أن القرآن منزل من عند الله ، لإنذار العرب الذين لم ينذر آباؤهم من قبل : لموقعوا فيما وقعوا من الغفلة ، وحق العذاب على أكثرهم بسببها ، وقد جرت سنة الله ألا يعذب قوما إلا بعد أن يرسل إليهم من ينذرهم ، ثم وصف حرمانهم من الهداية وإمعانهم في الغواية ، كأنما وضعت أغلال في أعناقهم بلغت إلى أذقانهم ، ووضعت سدود بين أيديهم ومن خلفهم فصاروا لا يبصرون ، وبين أن الإنذار إنما ينفع من اتبع الذكر ، وخشي الرحمن بالغيب ، فاستعد قلبه لاستقبال دلائل الهدى ، وموحيات الإيمان. ثم يوجه النبي إلى أن يضرب لهم مثلا أصحاب القرية .

قصة اصحاب القرية

ضرب الله لأهل مكة مثلا قصة أهل أنطاكية بالشام ، أرسل الله إليهم رسولين ، هما يوحنا وبولس من حواريي عيسى ، فكذبهما أهل القرية ، فأرسل الله ثالثا على درجة من الذكاء في توجيه الدعوة ، واستمر التكذيب من الكافرين ، وبيان الحجة وأدلة الإيمان من المرسلين . ثم جاء رجل مؤمن يسمى حبيب النجار فدعا قومه إلى الإيمان بالرسل ، فاتهموه بأنه مؤمن ، فأعلن إيمانه في ظروف حرجة ، وتعرض الرجل للإيذاء والقتل ، فحظي بالشهادة والجنة ، وتمنى لو أن قومه يعلمون منزلته الآن عند الله .

أما القرية الظالمة فقد صاح بها ملك صيحة أهلكتها ، أفلا يعتبر أهل مكة بهذه القرية ، وبالقرون التي هلكت جزاء كفرها ؟ وسيجتمع الجميع أمام الله يوم القيامة ، ويتميز المؤمنون بحسن الثواب ، ويحل بالكافرين سوء العقاب .

٢ ـ ادلة الايمان

بعد الحديث في الدرس الأول عن المشركين الذين واجهوا دعوة الإسلام بالتكذيب ، والمثل الذي ضربه الله لهم في قصة أصحاب القرية المكذبين ، وما انتهى إليه أمرهم من الهلاك بصيحة الملاك فإذا هم خامدون ، تحدثت الآيات من (٣٠ ـ ٦٨) عن موقف المكذبين بكل ملة ودين ، وعرضت صور البشرية الضالة على مدار القرون ، ثم أخذت في استعراض الآيات الكونية ، التي يمرون عليها معرضين غافلين ، وهي مبثوثة في أنفسهم وفيما حولهم .

فالماء الذى يحيى الأرض بأنواع الجنان والنخيل والأعناب ، والليل والنهار والشمس والقمر ، والنبات والإنسان . وكل ما فى الكون قد أبدع بنظام دقيق ، فللشمس مدارها ، وللقمر مساره ، ولليل وقته ، وللنهار أوانه : لا يتأخر كوكب عن موعده ، ولا يختل نظام ، ولا تضطرب حركات الكون :

﴿ وكلٌّ فِى فلكٍ يسْبحُونَ ﴾ يس ٤٠

ثم تحدثت الآيات عن عناد المشركين ، واستعجالهم بالعذاب غير مصدقين :

﴿ ويقولونَ متَى هَذَا الوعْدُ إنْ كنْتمْ صادِقِينَ ﴾ يس ٤٨

وبمناسبة ذلك يستعرض مشهدا من مشاهد القيامة ، يرون فيه مصيرهم الذى به يستعجلون ، كأنه حاضر تراه العيون .

٣ ـ وحى لا شعر

يشتمل الدرس الثالث على الآيات من ٦٩ الى آخر السورة ، ويكاد هذا الفصل يلخص موضوعات السورة كلها ، فينفى فى أوله أن ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم شعر ، وينفى عن الرسول كل علاقة بالشعر أصلا ، ثم يعرض بعض المشاهد والملمسات الدالة على الألوهية المنفردة ، وينعى عليهم اتخاذ آلهة من دون الله يبتغون عندهم النصر ، وهم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة المدعاة ، ويتناول قضية البعث والنشور ، فيذكرهم بالنشأة الأولى من نطفة ، ليروا أن إحياء العظام وهى رميم كتلك النشأة ولا غرابة ، ويذكرهم بالشجر الأخضر الذى تكون فيه النار ، وهما فى الظاهر بعيدان ، وبخلق السموات والأرض وهذا الخلق شاهد بالقـدرة على خلق أمثالهم من البشر فى الأولى والآخرة ، وفى ختام السورة نجد برهان القدرة الإلهية والإرادة الربانية ، فالله مالك كل شئ فى الدنيا والآخرة ، واليه المآب والمرجع قال تعالى :

﴿ إنّما أمْرُهُ إذَا أرادَ شَيْئًا أنْ يقولَ لَهُ كنْ فَيكونُ • فَسُبْحانَ الَّذِى بيدِهِ ملَكُوتُ كلِّ شَىْءٍ وإلَيْهِ ترْجعُونَ ﴾ يس ٨٢ و٨٣

* * *

أهداف سورة الصافات

سورة الصافات مكية وآياتها (١٨٢) آية نزلت بعد سورة الأنعام فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة، فقد نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة إلى المدينة.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لابتدائها بالقسم بالصافات والمراد بها الملائكة التى تقف صفوفا للعبادة، أو تصف أجنحتها فى الهواء امتثالا للطاعة، وانتظارا لوصول أمر الله اليها .

مقصود السورة

قال الفيروزبادى : معظم مقصود السورة هو : الإخبار عن صف الملائكة والمصلين للعبادة، ودلائل الوحدانية، ورجم الشياطين، وذل الظالمين، وعز المطيعين فى الجنان، وقهر المجرمين فى النيران، ومعجزة نوح وحديث إبراهيم وفداء إسماعيل فى جزاء الانقياد، وبشارة إبراهيم بإسحاق، والمنة على موسى وهارون بإيتاء الكتاب. وحكاية الناس فى حال الدعوة، وهلاك قوم لوط، وحبس يونس فى بطن الحوت، وبيان فساد عقيدة المشركين فى إثبات النسبة (١)، ودرجات الملائكة فى مقام العبادة، وما منح الله الأنبياء من النصر والتأييد، وتنزيه حضرة الجلال عن الأنداد والأضداد فى قوله سبحانه :

﴿ سُبْحَانَ ربِّكَ ربِّ العِزَّةِ عمَّا يصِفونَ ﴾ الصافات ١٨٠

---

(١) أى فى اعتقاد نسب بينه سبحانه وبين الجنة والملائكة، فى قولهم الملائكة بنات الله، وهو إشارة إلى قوله تعالى : «وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا» والمراد بالجنة الملائكة أو الجن.

سياق السورة

تميزت سورة الصافات بقصر الآيات ، وسرعة الإيقاع ، وكثرة المشاهد والمواقف ، وتنوع الصور والمؤثرات .

وهي تستهدف ـ كسائر السور المكية ـ بناء العقيدة في النفوس ، وتخليصها من شوائب الشرك في كل صوره وأشكاله ، ولكنها بصفة خاصة تعالج صورة معينة من صور الشرك ، التي كانت سائدة في البيئة العربية الأولى ، وتقف أمام هذه الصورة طويلا ، وتكشف عن زيفها وبطلانها بوسائل شتى . . تلك هي الصورة التي كانت جاهلية العرب تستسيغها ، وهي تزعم أن هناك قرابة بين الله سبحانه وبين الجن ، وتستطرد في تلك الأسطورة فتزعم أنه من التزاوج بين الله ـ سبحانه ـ والجنة ولدت الملائكة . ثم تزعم أن الملائكة إناث وأنهن بنات الله !

هذه الأسطورة تتعرض لحملة قوية في هذه السورة ، تكشف عن تفاهتها وسخفها ، ونظرا لأنها هي الموضوع البارز الذي تعالجه السورة ، فانها تبدأ بالإشارة إلى طوائف من الملائكة :

﴿ والصَّافَّاتِ صفًّا ، فالزَّاجِراتِ زَجْرًا ، فَالتَّالِياتِ ذِكْرًا ﴾

ويتلوها حديث عن الشياطين المردة ، وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة ، كي لا يقربوا من الملأ الأعلى ، ولا يتسمعوا لما يدور فيه ، ولو كانوا حيث تزعم لهم أساطير الجاهلية ما طوردوا هذه المطاردة .

وبمناسبة ضلال الكافرين وتكذيبهم ، تعرض السورة سلسلة من قصص الرسل : نوح وإبراهيم وابنه ، وموسى وهارون ، وإلياس ولوط ويونس ، تكشف فيها رحمة الله ونصره لرسله وأخذه للمكذبين بالعذاب والتنكيل ، ويمكننا أن نقسم سورة الصافات إلى ثلاثة موضوعات رئيسية .

١ – وصف الملائكة ومشاهد الآخرة

يستغرق الموضوع الأول من السورة الآيات من (١ – ٧٠)
ويتضمن افتتاح السورة بالقسم بتلك الطوائف من الملائكة :
﴿ والصَّافَّاتِ صفًّا ، فَالزَّاجِرات زَجْرًا ، فَالتَّالِيات ذِكْرًا ﴾
على وحدانية الله رب المشارق ، مزين السماء بالكواكب ، ثم تجيء مسالة الشياطين ، وتسمعهم للملأ الأعلى ، ورجمهم بالشهب الثاقبة ، يتلوها سؤال لهم :

﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ؟ ﴾

من الملائكة والكواكب والشياطين والشهب ؟ ، للتوصل من هذا إلى تسفيه ما كانوا يقولونه عن البعث ، وإثبات ما كانوا يستبعدونه ويستهزئون بوقوعه ، ومن ثم يعرض ذلك المشهد المطول للبعث والحساب والنعيم والعذاب ، وهو مشهد فريد ، حافل بالصورة والحركة ، والمقابلة بينه ومنازل الأبرار ، وآلام الفجار .

قصص الأنبياء

تتعرض الآيات من ٧١ – ١٤٨ لبيان أن هؤلاء الضالين لهم نظائر في السابقين ، الذين جاءتهم النذر فكان أكثرهم من الضالين ، ويستطرد في قصص أولئك المنذرين ، من قوم نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس ، وكيف كانت عاقبة المنذرين وعاقبة المؤمنين ؟

ومن الظواهر المؤثرة في هذا القصص تجرد الأنبياء لربهم ، وإخلاصهم له ، فيونس يسبح بحمد ربه ويناجيه في بطن الحوت ، وإبراهيم يطيع الله ويستسلم لأمره ، في قصة الذبح والفداء ، ونشاهد من الذابح والذبيح التجرد والامتثال لأمر الله ، في أعمق صورة وأروعها وأرفعها .

وقد كانت الإشارة إلى قصص الأنبياء لمحات سريعة في آيات قصيرة ، تحتوي على عبرة القصة ، والتذكير بمضمونها .

٣ ــ اسطورة تعقبها الحقيقة

تناولت الآيات من ١٤٩ إلى الآية ١٨٢ حيث آخر السورة ، الحديث عن الأسطورة الكاذبة ، أسطورة نسبة الجن والملائكة إلى الله ثم فندت هذه الأسطورة ونزهت الله عنها وبينت أن الملائكة خلق من خلق الله ملتزم بطاعته .

﴿ وما مِنَّا إلَّا لَهُ مقَامٌ معْلومٌ ، وإنَّا لنَحْنُ الصَّافُّونَ ، وإنَّا لَنَحْنُ المُسبِّحُونَ ﴾ الصافات ١٦٤ – ١٦٦

وقررت الآيات وعد الله لرسله بالظفر والغلبه :

﴿ ولَقَدْ سبَقَتْ كَلِمتنَا لِعِبادِنَا المُرْسلِينَ ، إنَّهُم لَهُمُ المنْصُورُونَ ، وإنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ الصافات ١٧١ – ١٧٣ .

وتنتهى السورة بتنزيه الله سبحانه ، والتسليم على رسله ، والاعتراف بربوبيته ، وهى القضايا التى تناولتها السورة فى الصميم .

﴿ سُبْحانَ ربِّكَ ربِّ العِزَّةِ عَمَّا يصِفونَ ، وسلَامٌ علَى المُرْسلِينَ ، والْحمْدُ لِلهِ ربِّ العَالَمِينَ ﴾ الصافات ١٨٠ – ١٨٢

أهداف سورة ص

سورة ص سورة مكية نزلت فى الفترة المتوسطة من حياة المسلمين بمكة، فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء، وآياتها ٨٨ آية، وسميت سورة ص لابتدائها بهذا الحرف.

مقاصد السورة

قال الفيروز آبادى « معظم مقصود سورة ص : بيان تعجب الكفار من نبوة المصطفى — صلى الله عليه وسلم — ووصف الكافرين لرسول الله بالاختلاق والافتراء، واختصاص الحق تعالى بملك الأرض والسماء، وظهور أحوال يوم القضاء، وعجائب حديث داود وأوريا، وقصة سليمان :. وذكر أيوب فى الابتلاء والشفاء وذكر إبراهيم وأولاده من الأنبياء، وحكاية أحوال ساكنى جنة المأوى، وعجز حال الأشقياء فى سقر، ولظى وواقعة إبليس مع آدم وحواء وتهديد الكفار على تكذيبهم للمجتبى »(١) قال تعالى :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ص ٨٧، ٨٨

قضايا السورة

أثارت سورة ص عددا من القضايا أهمها قضية التوحيد، وقضية الوحى، وقضية الحساب فى الآخرة، وقد عرضت هذه القضايا الثلاث فى مطلعها، الذى يمثل الدهشة والاستغراب من كبار المشركين فى مكة،

---

(١) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ تحقيق الأستاذ محمد على النجار ج ١ ص ٤٠٠.

حين جاءهم محمد — صلى الله عليه وسلم — يدعوهم إلى التوحيد ، وساقت السورة شبهات الكافرين حول قضية الوحى :

فقد استكثروا أن يختار الله سبحانه رجلا منهم لينزل عليه الذكر من بينهم ، وأن هذا الرجل هو محمد بن عبد الله الذى لم تسبق له رئاسة فيهم ولا إمارة فقالوا :

﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بينِنَا ﴾ ؟ صٓ ٨ .

وبينت السورة لهم أن رحمة الله لا يمسكها شىء ، إذا أراد أن يفتحها على من يشاء ، وأنه ليس للبشر شىء من ملك السموات والأرض ، وإنما يفتح الله رزقه ورحمته على من يشاء . . وأنه يختار من عباده من يعلم استحقاقهم للخير ، وينعم عليهم بشتى الإنعامات ، بلا قيد ولا حد ولا حساب .. وفى هذا السياق جاءت قصة داود وقصة سليمان ، وما أغدق الله عليهما من النبوة والملك ، ومن تسخير الجبال والطير ، وتسخير الجن والريح ، فوق الملك وخزائن الأرض والسلطان والمتاع ، وجاء مع القصتين توجيه النبى صلى الله عليه وسلم إلى الصبر على ما يلقاه من المكذبين :

﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ صٓ ١٧

كذلك جاءت قصة أيوب تصور ابتلاء الله للمخلصين من عباده بالضراء ، وصبر أيوب . . مثل فى الصبر رفيع ، وتصور السورة حسن العاقبة للصابرين .

ونلاحظ أن السياق يجرى فى سورة صٓ فيربط بين أربعة موضوعات رئيسية : هى شبه الكافرين ، وقصص الأنبياء ، والمقابلة بين نعيم المتقين وعذاب الكافرين ، ثم قصة خلق آدم وسجود الملائكة له وإباء إبليس .

١ — شبهات الكافرين

تشتمل الآيات (من ١ — ١٦)

على شبه الكافرين حول بشرية الرسول ، واختصاصه بالوحى ، وإنكار توحيد الآلهة فى إله واحد ، والرد على هذه المفتريات ، وبيان جزاء المكذبين ،

من قوم نوح وعاد وفرعون وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة

﴿ إنْ كُلٌّ إلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحقَّ عِقَابِ ﴾ ص ١٤

٢ ــ قصص الأنبياء

تشتمل الآيات من (١٧ ــ ٤٨) على قصص وأمثلة من حياة الرسل صلوات الله عليهم .

وفى هذا القصص بيان لآثار رحمة الله بالرسل من قبل ، وتذكير بما أغدق الله عليهم من نعمة وفضل ، وبما آتاهم من ملك وسلطان ومن رعاية وإنعام ، وذلك ردا على عجب الكافرين من اختيار الله لمحمد رسولا من بينهم ، وما هو ببدع من الرسل ، وفيهم من آتاه الله إلى جانب الرسالة الملك والسلطان ، وفيهم من سخر له الجبال يسبحن معه والطير ، وفيهم من سخر الله له الريح والشياطين ، كداود وسليمان . . فما وجه العجب أن يختار الله محمدا الصادق ، لينزل عليه الذكر من بين قريش فى آخر الزمان .

كذلك يصور هذا القصص رعاية الله الدائمة لرسله ، وحياطتهم بتوجيهه وتأديبه فقد كانوا بشرا ــ كما أن محمدا صلى الله عليه وسلم بشر ــ وكان فيهم ضعف البشر ، وكان الله يرعاهم فلا يدعهم لضعفهم ، إنما يبين لهم ويوجههم ، ويبتليهم ليغفر لهم ويكرمهم ، وفى هذا مايطمئن قلب الرسول إلى رعاية ربه له ، وحمايته له من أذى المشركين ، وفى تلك القصص سلوى ومواساة لما لقيه النبى من تكذيب واتهام وتحجيب وإفتراء ، وفيه دعوة إلى الصبر حتى ينال رضوان الله ، كما ناله السابقون من الأنبياء .

٣ ــ النعيم والجحيم

تعرض الآيات من (٤٩ ــ ٦٤) مشهد المؤمنين فى الجنة ، وقد فتحت أبوابها ، وجرت أنهارها ، وكثر حورها وولدانها ، وتنوعت أرزاقها :

﴿ إنَّ هذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ ص ٥٤

كما تعرض مشهد الطاغين فى النار ، وقد اشتد لهيبها ، وتنوع عذابها ، واختصم الأتباع والرؤساء فيها ، وأخذوا يبحثون عن ضعفاء

المؤمنين بينهم فلا يجدونهم فى النار ، لأن هؤلاء الضعفاء فى الجنة والرضوان .

سجود الملائكة لآدم

تشتمل الآيات من ٦٥ إلى آخر السورة ، على تأكيد وحدانية الله ، وشمول قدرته وملكه لمـا فى السموات والأرض .

وتستعرض قصة آدم وسجود الملائكة له ، كدليل على أن هؤلاء الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، كما تتضمن القصة لونا من الحسد فى نفس الشيطان ، هو الذى أبعده وطرده من رحمة الله ، حينما استكثر على آدم فضل الله الذى أعطاه ، وفى هذا إيحاء لهم ألا يستكثروا على محمد فضل الرسالة وتبليغ وحى السماء ، كذلك تصور الآيات المعركة المستمرة بين الشيطان وأبناء آدم ، والتى لا يهدأ أوارها ، ولا تضع أوزارها ، والتى يهدف من ورائها إلى إيقاع أكبر عدد منهم فى حبائله ، لإيرادهم النار معه ، انتقاما من أبيهم آدم ، وقد كان طرد إبليس من الجنة بسبب امتناعه من السجود له ، فالمعركة بين إبليس وذرية آدم معروفة الأهداف ولكن أبناء آدم يستسلمون لعدوهم القديم .

وتختم السورة بتوكيد قضية الوحى ، وإخلاص الرسول فى تبليغ الرسالة ، لا يبتغى أجرا ولا يتكلف قولا ، وإنما يبلغ القرآن ، وسيكون لهذا القرآن أبلغ الأثر فى حياة البشرية .

أهداف سورة الزمر

سورة الزمر مكية نزلت فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، بعد الإسراء وقبيل الهجرة وآياتها ٧٥ آية .

نزلت بعد سورة سبأ ، وقد سميت سورة الزمر بذلك الاسم لقوله تعالى فى آخرها :

﴿ وسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جهنَّمَ زُمَرًا ﴾ الزمر ٧١

﴿ وسِيقَ الَّذِين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمرًا ﴾ الزمر ٧٣ .

وللسورة اسمان : سورة الزمر ، وسورة الغرف ، لقوله تعالى :

﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا ربَّهُمْ لَهُمْ غُرفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ ﴾ الزمر ٢٠ .

أدلة التوحيد

سورة الزمر تهـز القلب هزا ، وتسكب فيه مؤثرات الإيمان بالله ، وتستعرض أمامه أدلة القدرة الإلهية ، والجزاء العادل فى الدنيا والآخرة ، وتفتح باب الرجاء الآمل فى رحمة الله ورضوانه ، ومن آياتها الشهيرة قوله تعالى :

﴿ قُلْ ياعِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرفُوا علَى أَنْفُسِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جمِيعًا إِنَّهُ هُو الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ الزمر ٥٣ .

ومنذ افتتاح السورة إلى نهايتها وهى تؤكد على قضية التوحيد الخالص ، فى مطلع السورة :

﴿ أَلَا لِلهِ الدِّينُ الخَالِصُ .. ﴾ الزمر ٣ .

وفى خلال السورة نجد لمسات متوالية القلوب والأفئدة ، تعرض عليها أدلة القدرة ومشاهد الكون ، وخلق الليل والنهار ، وإنزال المطر وإنبات النبات ، وبدء الخليقة ، ومراحل خلق الجنين ، وطبيعة النفس فى اللجوء إلى الله فى الضراء ، والإعراض عنه فى السراء ، مع أن الموت قائم على رءوس العباد .

ظل الآخرة

مشاهد الآخرة تظلل السورة وتسيطر على ختامها ، حيث نجد الملائكة حافين من حول العرش ، ونرى المؤمنين يساقون إلى الجنة ، أفواجا وجماعات فى تكريم إلهى ، وسلام ونعيم فى الخلود ، ونرى الكفار يساقون إلى جهنم زمرا فى مهانة وإذلال .

« وظل الآخرة فى السورة يتناسق مع جوها ، وأهداف اللمسات التى تأخذ القلب البشرى بها ، فهذه اللمسات أقرب إلى جو الخشية والخوف والفزع والارتعاش ، ومن ثم نجد الحالات التى ترسمها للقلب البشرى هى حالات ارتعاشة وانتفاضة وخشية ، نجد هذا فى صورة القانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، وفى صورة الذين يخشون ربهم ، حيث تقشعر جلودهم لهذا القرآن ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، كما نجده فى التوجيه إلى التقوى ، والخوف من العذاب والتخفيف منه ، ثم نجده فى مشاهد القيامة ، وما فيها من فزع ومن خشية ، وما فيها كذلك من إنابة وخشوع »(١) .

فقرات السورة

فى الآيات الأولى من السورة حث على إخلاص العبادة لله ثم نهى عن اتخاذ الأنداد والأولياء ، ثم نجد القرآن يلمس القلوب فيبين قدرة الله فى خلق الناس من نفس واحدة ، وتزويجها من جنسها ، وخلق الأنعام أزواجا كذلك ، وخلقهم فى بطون أمهاتهم فى ظلمات ثلاث ، ومنحهم

(١) فى ظلال القرآن ٢٤ /٨

خصائص جنسهم البشرى أول مرة ، ثم منحهم خصائص البقاء والارتقاء . وقد استغرقت هذه الفقرة الآيات من (١ — ٧) .

٢ ـ أنواع الانسان وحالته

فى الفقرة الثانية نجد أن الآيات من (٨ — ٢٠)

قد لمست القلوب لمسة أخرى ، وهى تعرض على الناس صورتهم فى الضراء وصورتهم فى البأساء ، وتريهم تقلبهم وضعفهم وقلة ثباتهم على نهج إلا حين يتصلون بربهم ويتطلعون إليه ، ويقنتون له ، فيعرفون الطريق ، ويعلمون الحقيقة وينتفعون بما وهبهم الله من خصائص الإنسان .

ثم وجهت الآيات النبى صلى الله عليه وسلم إلى إعلان كلمة التوحيد الخالصة ، وإعلان خوفه من معصية الله وإعلان تصميمه على منهجه وطريقه وتركهم هم إلى منهجهم وطريقهم ، وبيان عاقبة هذا الطريق وذلك يوم يكون الحساب .

٣ ـ مظاهر القدرة

فى الآيات من (٢١ — ٣٥)

لفتة إلى حياة النبات فى الأرض عقب إنزال الماء من السماء ، ثم نهاية النبات فى فترة وجيزة ، وكذلك شأن الدنيا ، ثم تشير الآيات إلى الكتاب المنزل من السماء كذلك لتحيا به القلوب وتنشرح له الصدور مع تصوير لعاقـبة المستجيبين لذكر الله ، والقاسية قلوبهم من ذكر الله .

ثم تضرب الآيات مثالا لمن يعبد إلها واحداً ، ومن يعبد آلهة متعددة ، وهما لايستويان مثلا ، ولا يتفقان حالا ، كما لايستوى العبد الذى يملكه سادة متنازعون ، والعبد الذى يعمل لسيد واحد لاينازعه أحد فيه .

ثم تضع حقيقة واقعة ، وهى تعرض الناس جميعاً الموت والفناء ، الرسول والمرسل اليهم ، وسيتنوع الجزاء يوم القيامة ، فيجازى الكافرون فى جهنم ، ويجازى الصادقون المصدقون جزاء المحسنين .

٤ ــ نقاش متنوع

فى الآيات من (٣٦ ـــ ٦١) .

نلمس قدرة القرآن الفائقة على إقامة الحجة واقناع الإنسان ، وأخذ السبيل على النفس البشرية حتى لا تجد بدا من الإذعان والانقياد ، وقد تناولت هذه الفقرة التوحيد من جوانب متعددة فى لمسات متنوعة ، تبدأ بتصوير حقيقة القلب المؤمن ، وموقفه بإزاء قوى الأرض واعتداده بالقوة الوحيدة ، واعتماده عليها هون مبالاة بسواها من القوى الضئيلة الهزيلة ، ومن ثم ينفض يده من هذه القوى الوهمية ، ويكل أمره وأمر المجادلين له إلى يوم القيامة ، ويمضى فى طريقه ثابتا واثقا مستقيماً بالمصير .

يتلو هذا بيان الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وأنه ليس وكيلا على العباد فى هداهم وضلالهم ، إنما الله هو المسيطر عليهم ، الآخذ بناصيتهم فى كل حالة من حالاتهم ، وليس لهم من دونه شفيع فإن الشفاعة لله جميعاً وإليه ملك السموات والأرض وإليه المرجع والمصير .

ثم تتعرض الآيات لوصف المشركين وانقباض قلوبهم عند ذكر كلمة التوحيد ، وانبساطها عند ذكر كلمة الشرك ، وتعقب على هذا بدعوة الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ إلى إعلان كلمة التوحيد خالصة وترك أمور المشركين لله ، وتُصوِّرهم يوم القيامة يودون لو يفتدون بملء الأرض ومثله معه ، وقد تكشف لهم من الله مايذهل ويخيف !

وتعرض الآيات حال الإنسان فى حال الهلع والجزع ، ثم فى حال النعمة والرخاء فهو إذا أصابه الضر دعا الله وحده ، فإذا وهبه الله النعم والرخاء ادعى دعاوى عريضة ، وقال : إنما أوتيته على علم عندى ، هذه الكلمة التى قالها من سبق من المتبطرين والمتكبرين فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وهو قادر على أن يبطش بكل جبار عنيد ، وما كان بسط الرزق وقبضه إلا سنة من سنن الله تجرى وفق حكمته وتقديره ، وهو وحده الباسط القابض بيده الخلق والأمر .

ثم فتح الله أبواب رحمته على مصاريعها بالتوبة ، ودعا العصاة إلى الإنابة والاستقامة ، واتباع منهج الحق والعدل من قبل أن يأتى يوم الحساب فتندم كل نفس ظالمة ، وتتمنى أن تعود إلى الدنيا لتستدرك مافاتها ، وفى هذا اليوم تظهر الكآبة فى وجوه الكافرين ، ويظهر الفوز والسرور فى وجوه المؤمنين .

٥ ـ الله مستحق للعبادة دون سواه

تعرض الآيات الأخيرة فى السورة من (٦٢ ـ ٧٥)

ألوان قدرة الله وجلاله وتفرده بالملك والتصرف فى كل شىء ، وإذا تبين لنا آثار هذه القدرة ظهرت أمامنا دعوة المشركين للنبى إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم فى مقابل أن يشاركوه عبادة إلهه ، مستغربة مستنكرة ، فكيف يعبد معه سبحانه غيره ؟ وله وحده مقاليد السموات والأرض .

﴿ ومَا قَدرُوا الله حقَّ قَدْرِهِ ﴾

وهم يشركون به وهو وحده المعبود القادر القاهر .

﴿ والْأَرْضُ جميعًا قَبْضَتُهُ يوْم الْقِيامَةِ ﴾

فهى فى تصرفه وملكه كما يتصرف الإنسان فيما هو داخل قبضته .

﴿ والسَّمواتُ مَطْويَّاتٌ بيَمِينِهِ ﴾

وستطوى هذه السموات وتبدل بقدرة الله ، وبمناسبة تصوير هذه الحقيقة على هذا النحو يوم القيامة يعرض مشهداً فريداً من مشاهد القيامة ، ينتهى بموقف الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم .

﴿ وقُضِي بيْنَهُمْ بِالْحق وَقِيل الحَمْدُ لِلهِ ربِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الزمر ٧٥

أهداف سورة غافر

سورة غافر سورة مكية ، نزلت فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، بعد الإسراء وقبيل الهجرة . وآياتها ٨٥ آية نزلت بعد سورة الزمر .

أربعة أسماء : تسمى هذه السورة سورة غافر لقوله تعالى فى أولها .

﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ غافر ٣

وتسمى سورة المؤمن لاشتمالها على حديث مؤمن آل فرعون — واسمه خربيل — فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ غافر ٢٨

وسورة الطول ، لقوله تعالى :

﴿ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ غافر ٣

وتسمى حم الأولى لأنها أول سورة فى الحواميم (١) .

روح السورة

الروح السارى فى سورة غافر هو الصراع الدائر بين الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والدعوة والتكذيب ، وأخيراً قضية العلو فى الأرض والتجبر بغير الحق ، وبأس الله الذى يأخذ المتجبرين ، وفى ثنايا أهداف السورة الأصلية نجد أنها تلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين ، ونصر الله إياهم ، واستغفار الملائكة لهم ، واستجابة الله لدعائهم ، وما ينتظرهم فى الآخرة من نعيم .

* * *

---

(١) انظر بصائر ذوى التمييز ١/٤٠٩

وجو السورة كله – من ثم – كأنه جو معركة ، وهى المعركة بين الإيمان والطغيان ، وبين الهدى والضلال ، وبين المتكبرين المتجبرين فى الأرض ، وبأس الله الذى يأخذهم بالدمار والتنكيل ، وتتنسم خلال هذا الجو نسمات الرحمة والرضوان حين يجيء ذكر المؤمنين .

* * *

ويتمثل روح السورة فى عرض مصارع الغابرين ، كما يتمثل فى عرض مشاهد القيامة – وهذه وتلك تتناثر فى سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر – وتعرض فى صورها العنيفة المرهوبة المخيفة ، ومنذ بداية السورة إلى نهايتها نجد آيات تلمس القلب وتهز الوجدان وتعصف بكيان المكذبين وقد ترق آيات السورة فتتحول إلى لمسات وإيقاعات تمس القلب برفق ، وهى تعرض صفات الله غافر الذنب وقابل التوب ، ثم تصف حملة العرش ، وهم يدعون ربهم ليتكرم على عباده المؤمنين ، ثم تعرض الآيات الكونية والآيات الكامنة فى النفس البشرية .

موضوعات السورة

يمكننا أن نقسم سورة غافر بحسب موضوعاتها إلى أربعة فصول :

الفصل الأول : صفات الله

تبدأ الآيات من (٤ – ٢٠) بعرض افتتاحية السورة وبيان أن الكتاب منزل من عند الله :

﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وقَابِلِ التَّوْبِ ﴾

للمؤمنين التائبين ، وهو :

﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾

للعصاة المذنبين .

ثم تقرر أن الوجود كله مسلم مستسلم لله ، وأنه لا يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فيشذون عن سائر الوجود بهذا الجدال ، ومن ثم فهم لا يستحقون أن يأبه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مهما تقلبوا فى

الخير والمتاع ، فإنما هم صائرون إلى ما صارت إليه أحزاب المكذبين قبلهم وقد أخذهم الله أخذاً ، بعقاب يستحق العجب والإعجاب ومع الأخذ فى الدنيا ، فإن عذاب الآخرة ينتظرهم هناك . . . ذلك بينما حملة العرش ومن حوله يعلنون إيمانهم بربهم ، ويتوجهون إليه بالعبادة ، ويستغفرون للذين آمنوا من أهل الأرض ، ويدعون لهم بالمغفرة والنعيم والفلاح . .
وفى الوقت ذاته تعرض مشهد الكافرين وهم ينادون :

﴿ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ غافر ١٠

وهم فى موقف المذلة والانكسار يقرون بذنبهم ، ويعترفون بربهم ، فلا ينفعهم الاعتراف والإقرار ، ومن هذا الموقف بين يدى الله فى الآخرة يعود السياق ليعرض أمام الناس مظاهر أنعم الله عليهم ، ليأخذ بأيديهم إلى طريق الإيمان بالله .

﴿ فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ غافر ١٤ ، ١٥ .

ويعرض السياق مشهد ذلك اليوم فى صورة حية مؤثرة ، فقد برز الجميع أمام الله ، العالم بالظواهر والبواطن ، وفى هذا المشهد تبلغ الروح الحلقوم ، وتذهب صولة الظالمين والطغاة ، فلا يجدون حميما ولا شفيعاً يطاع فى شفاعته ، لقد أصبح الملك والأمر والقضاء ، لله الواحد القهار .

الفصل الثانى : رجل مؤمن يجاهد بالكلمة

يستغرق الفصل الثانى الآيات من (٢١ — ٥٥)

ويبدأ بلفت أنظار المشركين إلى ما أصاب المكذبين قبلهم ، ثم يعرض جانبا من قصة موسى — عليه السلام — مع فرعون وهامان وقارون ، يمثل موقف الطغاة من دعوة الحق ، ويعرض فيها حلقة جديدة لم تعرض فى قصة موسى من قبل ، ولا تعرض إلا فى هذه السورة وهى حلقة ظهور

رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، يدافع عن موسى ، ويصدع بكلمة الحق والإيمان فى تلطف وحذر فى أول الأمر ، ثم فى صراحة ووضوح فى النهاية ، ويعرض فى جدله مع فرعون حجج الحق وبراهينه قوية ناصعة ، ويحذرهم يوم القيامة ، ويمثل لهم بعض مشاهده فى أسلوب مؤثر ، ويذكرهم موقفهم وموقف الأجيال قبلهم من يوسف عليه السلام ورسالته ويستطرد السياق بالقصة حتى يصل طرفها بالآخرة فإذا هم هناك ، وإذا هم يتحاجون فى النار ، وإذا حوار بين الضعفاء والذين استكبروا ، وحوار لهم جميعا مع خزنة جهنم يطلبون فيه الخلاص ، ولات حين خلاص ، وفى ظل هـذا المشهد يوضح الحق سبحانه أن العاقبة للمرسلين فى الدنيا ويوم القيامة ، فقد نصر الله موسى رغم جبروت فرعون ، ثم يدعو الرسول الأمين إلى الصبر والثقة بوعد الله الحق ، والتوجه إلى الله بالتسبيح والحمد والاستغفار .

الفصل الثالث : الترغيب والترهيب

يستغرق الفصل الثالث من الآية (٥٦ – ٧٧) ويبدأ بتقرير أن الذين يجادلون فى آيات الله بغير حجة ولا برهان إنما يدفعهم إلى هذا كبر فى نفوسهم عن الحق ، وهم أصغر وأضأل من هذا الكبر ، ويوجه القلوب حينئذ إلى هذا الوجود الكبير الذى خلقه الله ، وهو أكبر من الناس جميعاً ، لعل المتكبرين يتصاغرون أمام عظمة خلق الله ، وتتفتح بصيرتهم فلا يكونون عميا :

﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأَعْمَى والْبَصِيرُ والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا المُسِىءُ قليلاً ما تَتَذَكَّرُونَ ﴾ غافر ٥٨ .

ويذكرهم بمجىء الساعة ، ثم يفتح الباب أمامهم إلى دعاء الله والاستجابة لأمره ، فأما الذين يستكبرون فسيدخلون جهنم أذلاء صاغرين ، ويعرض فى هذا الموقف بعض آيات الله الكونية التى يمرون عليها غافلين ، يعرض عليهم الليل وقد جعله الله سكنا ، والنهار مبصراً ، والأرض قراراً ، والسماء بناء ، ويذكرهم بأنفسهم وقد صورهم ، ويوجههم إلى

دعوة الله مخلصين له الدين ، ويلقن الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبرأ من عبادتهم ، وأن يعلن إسلامه لرب العالمين ثم يلمس قلوبهم بأن الله الواحد هو الذى أنشأهم من تراب ثم من نطفة .. وهو الذى يحيى ويميت ثم يعود فيعجب رسوله — صلى الله عليه وسلم — من أمر الذين يجادلون فى الله وينذرهم عذاب يوم القيامة فى مشهد عنيف ، تعلق فيه الأغلال فى أعناقهم ويسحبون فى الحميم ، ويحرقون فى النار جزاء كفرهم وشركهم بالله وعلى ضوء هذا المشهد يوجه الله رسوله إلى الصبر والثقة بأن وعد الله حق ، سواء أبقاه حتى يشهد مايعدهم ، أو توفاه قبل أن يراه فسيتم الوعد هناك .

الفصل الرابع : نهاية الظالمين

يشتمل الفصل الرابع على الآيات الأخيرة فى السورة من (٧٨ — ٧٥) ويذكر أن الله أرسل رسلا وأنبياء كثيرين لهداية الناس ، منهم من ذكر فى القرآن ومنهم من لم يذكر :

﴿ وَما كَانَ لِرَسُول أَنْ يأْتِى بآيَةٍ ﴾

وأن يقدم معجزة لقومه :

﴿ إِلَّا بإِذْنِ اللهِ ﴾

على أن فى الكون آيات قائمة وبين أيديهم آيات قريبة ، ولكنهم يغفلون عن تدبرها .. هذه الأنعام المسخرة لهم من سخرها ؟ وهذه الفلك التى تحملهم أليست آية يرونها ! ومصارع الغابرين ألا تثير فى قلوبهم العظة والتقوى وتختم السورة بإيقاع قوى على مصرع من مصارع المكذبين وهم يرون بأس الله فيؤمنون ، حيث لا ينفعهم الإيمان :

﴿ فَلَمْ يكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رأَوْا بأْسنَا ، سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبادِهِ وخَسِر هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ غافر ٨٥

أهداف سورة فصلت

سورة فصلت مكية نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة وآياتها (٥٤) آية نزلت بعد سورة غافر .

أسماؤها : تسمى سورة فصلت لقوله تعالى فى أوائلها :

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرآنًا عربيًا لِقَوْمٍ يعْلَمُونَ ﴾ فصلت ٣

وتسمى سورة حم السجدة لاشتمالها على السجدة ، وسورة المصابيح لقوله تعالى :

﴿ وزَيَنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمصابِيح وحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيزِ العَلِيمِ ﴾

فصلت ١٢.

روح السورة

الروح السارى بين آيات سورة فصلت هو عرض أهداف الدعوة الجديدة وأركانها وحقائقها الأساسية ، وهذه الحقائق هى :

الإيمان بالله وحده، وبالحياة الآخرة، وبالوحى والرسالة ، ويضاف إلى ذلك طريقة الدعوة إلى الله وخلق الداعية .

وكل مافى السورة هو شرح لهذه الحقائق ، واستدلال عليها ، وعرض لآيات الله فى الأنفس والآفاق ، وتحذير من التكذيب بها ، وتذكير بمصارع المكذبين فى الأجيال السابقة ، وعرض لمشاهد المكذبين يوم القيامة ، وبيان أن المكذبين من الجن والإنس هم وحدهم الذين لا يسلمون بهذه الحقائق ، ولا يستسلمون لله وحده ، بينما السماء والأرض والشمس والقمر والملائكة . . . كلهم يسجدون لله ويخضعون لأمره ويسلمون ويستسلمون .

موضوعا السورة

تنقسم سورة فصلت إلى موضوعين اثنين :

الموضوع الأول

يشمل نصف السورة الأول من الآية (١ – ٣٦)

ويبدأ بالآيات التى تتحدث عن تنزيل الكتاب وطبيعته ، وموقف المشركين منه ، وتليها قصة خلق السماء والأرض ، فقصة عاد وثمود ، فمشهدهم فى الآخرة تشهد عليهم الأسماع والأبصار والجلود ، ومن هنا يرتد إلى الحديث عنهم فى الدنيا وكيف ضلوا هذا الضلال ، فيذكر أن الله قيض لهم قرناء سوء من الجن والإنس ، يزينون لهم مابين أيديهم وماخلفهم ومن آثار هذا قولهم :

(لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) فصلت ٢٦

ثم موقفهم يوم القيامة حانقين على هؤلاء الذين خدعوهم من قرناء الجن والإنس ! وفى الجهة الأخرى نجد الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، وهؤلاء تتنزل عليهم الملائكة – لاقرناء السوء – يطمئنونهم ويبشرونهم ويعلنون ولايتهم لهم فى الدنيا والآخرة ، ويلى هذا ماجاء عن الدعوة والداعية ، وبذلك ينتهى الموضوع الأول .

الموضوع الثانى

تتحدث الآيات من (٣٧ – ٥٤) عن آيات الله من الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والملائكة العابدة ، والأرض الخاشعة ، والحياة التى تهتز فيها وتربو بعد الموات ، ويلى هذا الحديث عن الذين يلحدون فى آيات الله وفى كتابه ، وهنا يجىء ذلك الحديث عن هذا الكتاب ، ويشار إلى كتاب موسى واختلاف قومه فيه ، وأنه لولا سبق حكمه بإمهالهم لعجل بفصله بينهم .

وهنا يرد حديث عن الساعة واختصاص علم الله بها ، وعلمه بما تكنه الأكمام من ثمرات ، وماتكنه الأرحام من أنسال ، ويعرض مشهد الكافرين وهم يسألون عن الشركاء ، يلى هذا الحديث عن النفس البشرية عارية من أستارها ، ومع حرص الإنسان على نفسه هكذا فإنه لايحتاط لها ، فيكذب ويكفر ، غير محتاط لما يعقب هذا التكذيب من دمار وعذاب .

وتختم السورة بوعد من الله أن يكشف للناس عن آياته فى الآفاق وفى أنفسهم.

وقد صدق الله وعده فكشف لهم عن آياته فى الآفاق خلال الأربعة عشر قرنا التى تلت هذا الوعد .

فعرفوا كثيرا عن مادة هذا الكون ، وعرفوا أن أساس بناء هذا الكون هو الذرة ، وعرفوا أن الذرة تتحول إلى إشعاع وعرفوا أن الكون كله من إشعاع .

وعرفوا الكثير عن كروية الأرض وحركتها حول نفسها وحول الشمس ، وعرفوا الكثير عن المحيطات والأنهار والمخبوء فى جوف الأرض من الأرزاق .

وفى آفاق النفس اهتدى الإنسان إلى معرفة الكثير عن خصائص الجسم البشرى وأسراره ، ووظائفه وأمراضه ، وغذائه وتمثيله ، وأسرار عمله وحركته ثم عن تطور المعرفة حول ذكاء الإنسان ونفسية الأفراد والجماعات وقياس السلوك ، ومايزال الإنسان فى الطريق إلى اكتشاف نفسه ، واكتشاف الكون من حوله ، حتى يحق وعد الله بأن كلماته حق ، وآياته صدق ، وكتابه منزل ، وهو على كل شيء شهيد .. قال تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ، أَلَا إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُحِيطٌ ﴾ فصلت ٥٣ ، ٥٤ .

أهداف سورة الشورى

سورة الشورى مكية نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة :

وآياتها ٥٣ آية نزلت بعد سورة فصلت .

ولها اسمان : عسق لافتتاحها بها ، وسورة الشورى لقوله سبحانه :

﴿ وَأَمْرُهُمْ شورى بينَهُمْ ﴾ الشورى ٣٨ .

روح السورة

هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السورة المكية ، ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة ، حتى ليصح أن يقال إن هذه الحقيقة هي المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلها .

وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعا لتلك الحقيقة الرئيسية فيها .

هذا مع أن السورة تتوسع في الحديث عن حقيقة الوحدانية ، وتعرضها من جوانب متعددة ، كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها ، ويأتي ذكر الآخرة ومشاهدها في مواضع متعددة منها ، وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التي يمتازون بها ، كما تلم بقضية الرزق ، بسطه وقبضه ، وصفة الإنسان في السراء والضراء . ولكن حقيقة الوحي والرسالة ومايتصل بها ، تظل — مع ذلك هي الحقيقة البارزة في محيط السورة ، والتي تطبعها وتظللها ، وكأن سائر الموضوعات الأخرى مسوقة لتقوية تلك الحقيقة الأولى وتوكيدها .

ويسير سياق السورة في عرض تلك الحقيقة ، ومايصاحبها من موضوعات أخرى بطريقة تدعو إلى مزيد من التدبر والملاحظة ، « فهي تعرض من جوانب متعددة ، يفترق بعضها عن بعض ببضع آيات تتحدث عن وحدانية

الخالق ، أو وحدانية الرازق، أو وحدانية المتصرف فى القلوب ، أو وحدانية المتصرف فى المصير .. ذلك بينما يتجه الحديث عن حقيقة الوحى والرسالة إلى تقرير وحدانية الموحى — سبحانه — وو حدة الوحى، ووحدة العقيدة ، ووحدة المنهج والطريق . وأخيراً وحدة القيادة البشرية فى ظل العقيدة .

ومن ثم يرتسم فى النفس خط الوحدانية بارزا واضحاً ، بشتى معانيه وشتى إيحاءاته من وراء موضوعات السورة جميعاً » . (١)

موضوع السورة

يمكن أن نقسم سورة الشورى إلى فصلين رئيسيين .

يتناول الفصل الأول وحدة الأهداف الرئيسية للرسالات السماوية ، ويتناول الفصل الثانى بعض صفات المؤمنين ودلائل الإيمان .

الفصل الأول : وحدة أهداف الرسالات

يتناول النصف الأول من السورة الآيات من (١ — ٢٤) ، ويبدأ عن الوحى ، ثم يعالج قصة الوحى منذ النبوات الأولى ، ليقرر وحدة الدين ووحدة المنهج ، ووحدة الطريق ، وليعلن القيادة الجديدة للبشرية ممثلة فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى العصبة المؤمنة بهذه الرسالة .

* * *

وتشير السورة إلى هذه الوحدة فى مطالعها :

﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الشورى ٣.

لتقرر أن الله هو الموحى بجميع الرسالات لجميع الرسل ، وأن الرسالة الأخيرة هى امتداد لأمر مقرر مطرد من قديم .

وتأتى الإشارة الثانية بعد قليل :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ الشورى ٧ .

(١) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٢٤ / ٧٠

لتقرر مركز القيادة الجديدة ، فقد اختار الله بلاد العرب لتكون مقر الرسالة الأخيرة التى جاءت للبشرية جميعاً ، والتى تتضح عالميتها منذ أيامها الأولى .

كانت الأرض المعمورة — عند مولد الرسالة الأخيرة — تكاد تتقسمها إمبراطوريات أربعة هى :

الإمبراطورية الرومانية ، والفارسية ، والهندية ، والصينية .

وفى هذا الوقت جاء الإسلام لينقذ البشرية كلها ،مما انتهت إليه من انحلال وفساد وإضطهاد ، وجاهلية عمياء فى كل مكان من المعمورة .

جاء ليهيمن على حياة البشرية ، ويقودها فى الطريق إلى الله على هدى ونور .

ولم يكن هنالك بد من أن يبدأ الإسلام رحلته من أرض حرة ، لاسلطان فيها لإمبراطورية من تلك الإمبراطوريات ، وكانت الجزيرة العربية وأم القرى وما حولها بالذات ، هى أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام يومئذ ، وأصلح نقطة يبدأ منها رحلته العالمية .

لم تكن فى بلاد العرب حكومات منظمة ، ولا ديانة ثابتة واضحة المعالم ، وكان خلخلة النظام السياسى للجزيرة ، إلى جانب خلخلة النظام الدينى ، أفضل ظرف يقوم فيه دين جديد ، متحررا من كل سلطان عليه فى نشأته .

وهكذا جاء القرآن عربيا لينذر أم القرى ومن حولها ، فلما خرجت الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام ، حملت الراية وشرقت بها وغربت ، وقدمت الرسالة للبشرية جميعها ، وكان الذين حملوها هم أصلح خلق الله لحملها ، وقد خرجوا بها من أصلح مكان فى الأرض لميلادها ، وهكذا تبدو سلسلة طويلة من الموافقات المختارة لهذه الرسالة :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ . الأنعام ١٢٤

وفى آية مشهورة من سورة الشورى ، تطالعنا وحدة الرسالات جميعا ، ووحدة الرسل ، ووحدة الدين ، ووحدة الهدف للجميع ، وهو توحيد

الله وتدعيم القيم والأخلاق ، ومحاربة الرذائل والانحراف . قال تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَاتَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاء وَيَهْدِى إِلَيْهِ منْ يُنِيبُ ﴾ الشورى ١٣

وتقرر الآيات بعد ذلك أن التفرق قد وقع مخالفا لهذه التوصية ، ولم يقع عن جهـل من أتباع أولئك الرسل الكرام ولكن عن علم ، وقع بغياً وحسداً :

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بيْنَهُمْ ﴾ الشورى ١٤

وتصف أتباع الأديان وحملة الكتب السماوية بأنهـم فى حيرة وشك لاضطراب أحوال الديانات ، وخروجها عن الهدف الذى جاءت له :

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتَابَ مِنْ بعْدِهِمْ لَفِى شَكٍ مِنْهُ مُرِيب ﴾

وعند هذا الحد يتبين أن البشرية قد آلت إلى فوضى وارتياب ، ولم تعد لها قيادة راشدة تقوم على نهـج ثابت قويم . . ومن ثم يعلن القرآن انتداب الرسالة الأخيرة وحاملها — صلى الله عليه وسلم — لهذه القيادة :

﴿ فَلِذَلِك فَادْعُ وَاسْتَقِم كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُم اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لَاحُجَّةَ بَيْنَنَا وبينَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بيْنَنَا وَإِلَيهِ الْمَصِيرُ ﴾ الشورى ١٥

الفصل الثانى : صفات الجماعة المسلمة

يشتمل النصف الثانى من السورة على الآيات من (٢٥ — ٥٣) . ويتحدث عن صفات الجماعة المسلمة ، التى انتدبها الله لحمل هـذه الرسالة ، ويبدأ هذا الفصل باستعراض آيات الله فى بسط الرزق وقبضه ، وفى تنزيل الغيث برحمته ، وفى خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة ، وفى الفلك الجوارى فى البحر كالأعلام ، ويستطرد من هذه

الآيات إلى صفة المؤمنين التى تميز جماعتهم ، ومع أن سورة الشورى مكية ، نزلت قبل قيام الدولة الإسلامية فى المدينة ، إلا أنها تذكر أن الشورى من صفات المؤمنين فتقول :

﴿ وَأَمْرُهُمْ شورَى بينَهُمْ ﴾ الشورى ٣٨

مما يوحى بأن وضع الشورى أعمق فى حياة المسلمين من مجرد أن يكون نظاما سياسيا للدولة ، فهو طابع أساسى للجماعة كلها ، يقوم على أمرها كجماعة ، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة ، بوصفها ممثلة للجماعة .

والتأمل فى صفات المؤمنين يوحى بأن الإسلام دين القيم ، دين يهتم بالجوهر لا بالعرض ، وبتكوين النفس البشرية لا بالقيم الزائلة :

فما قيم الجماعة المؤمنة ؟

إنها الإيمان . والتوكل ، واجتناب كبائر الإثم والفواحش ، والمغفرة عند الغضب ، والاستجابة لله ، وإقامة الصلاة ، والشورى الشاملة ، والإنفاق مما رزق الله ، والانتصار من البغى . والعفو والإصلاح والصبر.

وبهذه القيم تحول العرب من أشتات مختلفين إلى أمة متماسكة ، متراحمة مؤمنة بالله مستقيمة على هدى الله وتعاليمه ، فوطأ الله لهم أكناف الأرض ، وصاروا خير أمة أخرجت للناس .

وبعد تقرير صفة المؤمنين وما ينتظرهم من عون وإنعام ، تعرض الآيات فى الصفحة المقابلة صورة الظالمين الضالين ، وما ينتظرهم من ذل وخسران فى يوم القيامة :

﴿ يَقولونَ هلْ إلَى مردٍّ مِنْ سَبِيل ، وتَرَاهُمْ يُعْرضونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِن الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفيٍّ ﴾ الشورى ٤٤ ، ٤٥ .

وفى ظل هذا المشهد نجد القرآن يدعو الناس إلى إنقاذ أنفسهم من مثل هذا الموقف قبل فوات الأوان :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكمْ مِنْ قَبْلِ أنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ﴾ الشورى ٤٧

ويمضى سياق السورة حتى ختامها ، يدور حول محور الوحى والرسالة ، وأثرهما فى صفات المؤمنين ، مع بعض الاستطراد إلى وصف الكافرين .

وبيان صفات الله الخالق الوهاب ، القابض الباسط ، قال تعالى :

﴿ لِلّهِ مُلْكُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُق ما يَشَاءُ يهبُ لِمنْ يشَاءُ إِنَاثًا ويهبُ لِمنْ يشَاءُ الذُّكورَ ، أَوْ يُزَوِجُهُمْ ذُكرانًا وَإِنَاثًا وَيجْعلُ منْ يَشَاءُ عقِيمًا إِنَّهُ علِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ الشورى ٤٩ ، ٥٠

ويعود السياق فى نهاية السورة إلى الحديث عن طبيعة الوحى وطريقته ، وهناك ارتباط ظاهر بين الحديث عن الوحى فى القسم الأول من السورة ، وبين الحديث عن صفات المؤمنين ، ودلائل الإيمان فى القسم الثانى منها ، فإن الهداية والإيمان من آثار الوحى وبركات الرسالة ، أى أن القسم الثانى وهو السلوك مترتب عن القسم الأول وهو العقيدة والوحى .

أهداف سورة الزخرف

سورة الزخرف مكية نزلت بعد سورة الشورى ، وقد نزلت فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وقد سميت بسورة الزخرف لقوله تعالى فيها :

﴿ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كلُّ ذَلِكَ لَمَّا متَاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا والآخِرَة عِنْد ربِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الزخرف ٣٥ .

افكار السورة

تعرض هـذه السورة جانبا من مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات ، ومن جدال واعتراضات ، وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها فى النفوس ، وكيف يقرر فى ثنايا علاجها حقائقه وقيمه فى مكان الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلة الزائفة ، التى كانت قائمة فى النفوس إذ ذاك ، ولايزال جانب منها قائما فى النفوس فى كل زمان ومكان ؛

وقال الفيروزبادى : معظم مقصود سورة الشورى هو : « بيان إثبات القرآن فى اللوح المحفوظ ، وإثبات الحجة والبرهان على وجود الصانع ، والرد على عباد الأصنام الذين قالوا الملائكة بنات الله ، والمنة على الخليل إبراهيم بإبقاء كلمة التوحيد فى عقبه ، وبيان قسمة الأرزاق ، والإخبار عن حسرة الكفار وندامتهم يوم القيامة ، ومناظرة فرعون وموسى ، ومجادلة عبد الله بن الزبعرى للمؤمنين بحديث عيسى ، وإدعاؤه أن الملائكة أحق بالعبادة من عيسى ، ثم بيان شرف الموحدين فى القيامة ، وعجز الكفار

فى جهنم ، وإثبات ألوهية الحق سبحانه فى السماء والأرض ، وأمر الرسول بالإعراض عن مكافأة الكفار(١) » فى قوله :

﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ الزخرف ٨٩ .

فصول السورة

إذا تأملنا سورة الزخرف وجدنا أنه يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ شبهات الكافرين

يشمل الفصل الأول الآيات من (١ ــ ٢٥) . ويبدأ بالتنويه بشأن القرآن والوحى ، وبيان أن من سنة الله إرسال الرسل لهداية الناس وإرشادهم ، ولكن البشرية قابلت الرسل بالاستهزاء والسخرية ، فأهلك الله المكذبين .

والعجيب أن كفار مكة كانوا يعترفون بوجود الله ، ثم لايرتبون على هذا الاعتراف نتائجه الطبيعية ، من توحيد الله وإخلاص التوجه إليه ، فكانوا يجعلون له شركاء يخصونهم ببعض ماخلق من الأنعام .

وفى هذه السورة تصحيح لهذه الانحرافات الاعتقادية ، ورد النفوس إلى الفطرة ، وإلى الحقائق الأولى ، فالأنعام من خلق الله ، وهى طرف من آية الحياة ، مرتبط بخلق السموات والأرض جميعاً ، وقد خلقها الله وسخرها للبشر ليذكروا نعمة ربهم عليهم ويشكروها ، لا ليجعلوا له شركاء ، ويشرعوا لأنفسهم فى الأنعام مالم يأمر به الله ، بينما هم يعترفون بأن الله هو الخالق المبدع ، ثم هم ينحرفون عن هذه الحقيقة ، ويتبعون خرافات وأساطير :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ... ﴾

---

(١) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ١ / ٤٢١ ، مع تعديل يسير .

وكانت الوثنية الجاهلية تقول ، إن الملائكة بنات الله ، ومع أنهم يكرهون مولد البنات لهم فانهم كانوا يختارون لله البنات ويعبدونهن من دونه ، ويقولون إننا نعبدهم بمشيئة الله ولو شاء ماعبدناهم !! وكانت مجرد أسطور ناشئة عن انحراف العقيدة :

وفى هذه السورة يناقشهم بمنطقهم هم ، ويحاجهم كذلك بمنطق الفطرة الواضح حول هذه الأسطورة التى لاتستند إلى شىء على الإطلاق :

﴿ وجعَلوا لهُ مِنْ عِبادِهِ جُزءًا إنَّ الإِنْسانَ لَكَفورٌ مُبِينٌ * أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يخْلق بنَات وأَصْفَاكمْ بِالبنِينَ * وإِذَا بُشِّرَ أَحدُهُمْ بِما ضَربَ لِلرَّحْمَنِ مثَلاً ظَلَّ وجْهُهُ مُسْودًّا وهُو كَظِيمٌ * أَو مَنْ يُنَشَّأُ فِى الحِلْيَةِ وهُو فِى الخِصَامِ غَيرُ مُبِينٍ * وَجعلوا الملَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ،أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتكْتَبُ شَهَادتهُمْ ويُسأَلونَ..﴾ الزخرف ١٥ــ١٩

ثم يكشف القرآن عن سندهم الوحيد فى اعتقاد هذه الأسطورة ، وهو المحاكاة والتقليد ، وهى صورة زرية تشبه صورة القطيع يمضى حيث هو منساق بدون تفكير :

ثم يبين القرآن أن طبيعة المعرضين عن الهدى واحدة ، وحجتهم مكرورة بدون تدبر لما يلقى إليهم ولوكان أهدى وأجدى ، ومن ثم لا يكون عاقبتهم إلا التدمير والتنكيل ، انتقاماً منهم وعقاباً لهم :

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرسلْنَا فِى قَرْية مِنْ نَّذِيرٍ إلَّا قَال مُترفوها إِنَّا وَجدنَا آباءنَا علَى أُمَّةٍ وإنَّا علَى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ ، قَالَ أَوَلَوْ جِئْتكمْ بِأَهْدَى مِمَّا وجدْتمْ علَيْهِ آباءكمْ قالوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتمْ بِهِ كَافِرُونَ ، فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظرْ كَيْف كَانَ عَاقبة المُكَذِّبِينَ ﴾ الزخرف ٢٣ ــ ٢٥ .

٢ ـ مناقشة ومحاجة

تشتمل الآيات من (٢٦ـ ٥٦) على القسم الثانى من السورة ، وهو استمرار لمناقشة قريش فى دعاويها فقد كانت قريش تقول : إنها من ذرية إبراهيم ــ وهذا حق ــ وأنها على ملة إبراهيم ــ وهذا إدعاء باطل ــ فقد أعلن إبراهيم كلمة التوحيد قوية واضحة ، لا لبس فيها ولاغموض ، ومن أجلها هجر أباه وقومه بعد أن تعرض للقتل والتحريق ، وعلى التوحيد قامت شريعة إبراهيم ، ثم أوصى بها ذريته وعقبه ، فلم يكن للشرك فيها أى خيط رفيع .

وفى هذا القسم من السورة يردهم إلى هذه الحقيقة التاريخية ، ليعرضوا عليها دعواهم التى يدعون . ثم يحكى اعتراضهم على رسالة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقولهم ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ الزخرف ٣١ ، ويناقش قولتهم هذه ، وما تنطوى عليه من خطأ فى تقدير القيم الأصيلة التى أقام الله عليها الحياة ، والقيم الزائفة التى تتراءى لهم ، وتصدهم عن الحق والهدى . وعقب تقرير الحقيقة فى هذه القضية يطلعهم على عاقبة المعرضين عن ذكر الله ، بعد أن يطلعهم على علة هذا العمى ، وهو من وسوسة الشيطان . .

ويلتفت فى نهاية هــذا الدرس إلى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يسليه ويواسيه عن إعراضهم وعماهم ، فما هو بهادى العمى أو مسمع الصم وسيلقون جزاءهم ، سواء شهد انتقام الله منهم ، أو أخره الله عنهم ، ويوجهه إلى الاستمساك بما أوحى إليه فانه الحق ، الذى جاء به الرسل أجمعون ، فكلهم جاءوا بكلمة التوحيد ، ثم يعرض من قصة موسى ــ عليه السلام ــ حلقة تمثل هذا الواقع من العرب مع رسولهم ، وكأنما هى نسخة مكررة تحوى ذات الاعتراضات التى يعترضونها ، وتحكى اعتزاز فرعون وملئه بذات القيم ، التى يعتز بها المشركون : المال ، الملك ، الجاه ، السلطان ، مظاهر البذخ ، وقد بين القرآن فيما سبق أنها لاتزن عند الله جناح بعوضة ، ولو

شاء الله لأعطى هذه الأموال للكافر فى الدنيا لهوانها على الله من جهة ، ولأن هذا الكافر لاحظ له فى نعيم الآخرة من جهة أخرى ، ولكن الله لم يفعل ذلك خشية أن يفتن الناس ، وهو العليم بضعفهم ، ولولا خوف الفتنة لجعل للكافر بيوتا سقفها من فضة ، وسلالمها من ذهب ، بيوتا ذات أبواب كثيرة ، وتصورا فيها سرر للاتكاء ، وفيها زخرف للزينة . . رمزا لهوان هذه الفضة والذهب ، والزخرف والمتاع ، بحيث تبذل هكذا رخيصة لمن يكفر بالرحمن .

وهذا المتاع الزائل لا يتجاوز حدود الدنيا ، ولكن الله يدخر نعيم الآخرة للمتقين

٣ ـ من اساطير المشركين

تشمل الآيات من (٥٧–٨٩) على الدرس الأخير من سورة الزخرف وفيها يستطرد السياق إلى حكاية أساطير المشركين حول عبادة الملائكة ، ويحكى جادثا من حوداث الجدل الذى كانوا يزاولونه ، وهم يدافعون عن عقائدهم الواهية ، لابقصد الوصول إلى الحق ، ولكن مراء ومحالا .

فلما قيل : إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم ، وكان القصد هو أصنامهم التى جعلوها تماثيل للملائكة ، ثم عبدوها بذاتها ، وقيل لهم إن كل عابد ومايعبد من دون الله فى النار . . لمـــا قيل لهم هذا ضرب بعضهم المثل بعيسى بن مريم ــ وقد عبده المنحرفون من قومه ــ أهو فى النار ؟ وكان هذا مجرد جدل ، ومجرد مراء ،

ثم قالوا : إذا كان أهل الكتاب يعبدون عيسى وهو بشر ، فنحن أهدى منهم إذ نعبد الملائكة وهم بنات الله ، وكان هذا باطلا يقوم على باطل .

وبهذه المناسبة يذكر السياق طرفا من قصة عيسى بن مريم ، يكشف حقيقته وحقيقة دعوته ، واختلاف قومه من قبله ومن بعده .

ثم يهدد المنحرفين عن سواء العقيدة جميعاً بمجيء الساعة بغتة ، وهنا يعرض مشهداً مطولا من مشاهد القيامة ، يتضمن صفحة من النعيم للمتقين ، وصفحة من العذاب الأليم للمجرمين . ثم بين إحاطة الله بجميع مايصدر منهم ، وتسجيل ذلك عليهم .

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ الزخرف ٨٠ .

ثم تلطف القرآن فى تنزيه الله عما يصفون ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يذكر لهم أنه لو كان للرحمن ولد لكان النبى أول العابدين له ، ولكن الله منزه عن اتخاذ الولد ، فهو سبحانه له الملكية المطلقة للسماء والأرض والدنيا والآخرة .

ثم يواجههم القرآن بمنطق فطرتهم ، فهم يؤمنون بالله فكيف يصرفون عن الحق الذى تشهد به فطرتهم ، ويحيدون عن مقتضاه :

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ ؟ ليقولنَّ اللهُ فأنَّى يُؤْفكون ﴾ الزخرف ٨٧

وفى ختام السورة يعظم من أمر اتجاه الرسول — صلى الله عليه وسلم — اربه ، يشكو إليه كفرهم وعدم إيمانهم :

﴿ وَقِيلِهِ يارب إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنونَ ﴾ الزخرف ٨٨

ويجيب عليه فى رعاية ، فيدعوه إلى الصفح والإعراض ، فسيلقون جزاءهم المحتوم :

﴿ فاصْفَحْ عنْهُمْ وقُلْ سلَامٌ فَسوْف يعْلَمُونَ ﴾ الزخرف ٨٩ .

أهـداف سورة الدخان

سورة الدخان مكية نزلت فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة، بعد الإسراء . وقبيل الهجرة ، وآياتها ٥٩ آية ، نزلت بعد سورة الزخرف، وقد سميت سورة الدخان لقوله تعالى فيها :

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ الدخان ١٠

افكار السورة

قال الفيروز آبادى : معظم مقصود سورة الدخان هو :

نزول القرآن فى ليلة القدر ، وآيات التوحيد ، والشكاية من الكفار ، وحديث موسى وبنى إسرائيل وفرعون ، والرد على منكرى البعث ، وذل الكفار فى العقوبة ، وعز المؤمنين فى الجنة ، والمنة على الرسول بتيسير القرآن على لسانه فى قوله :

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) الدخان ٥٨ ﴾

فضل السورة

سورةالدخان سورة يكثر المسلمون قراءتها ، خصوصا ليلة النصف من شعبان، وليلة القدر فى رمضان ، وليلة الجمعة ، وهى تبدأ ببيان أن القرآن أنزل من السماء فى ليلة مباركة ، يحمل الرحمة والهدى من رب العالمين ، ثم تنذر المشركين بالعذاب وتذكر طرفا من قصة موسى مع فرعون ، يعقبه مشاهد القيامة ، وفيها نعيم المتقين ، وعقاب المشركين .

ومن السنة قراءة سورة الدخان ليلة الجمعة لتثبيت الإيمان وتقوية اليقين

بقدرة الله رب العالمين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ حم التي يذكر فيها الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفورا له »(١) .

سياق السورة

سورة الدخان سريعة الإيقاع ، قصيرة الفواصل ، لها سمات السور المكية ، إذ تشتمل على صور عنيفة متقاربة ، ونذر متكررة ، تشبه المطارق التي تقع على أوتار القلب البشرى . «ويكاد سياق السورة أن يكون كله وحدة متماسكة ، ذات محور واحد ، تشد إليه خيوطها جميعا ، سواء في ذلك القصة ، ومشهد القيامة ، ومصارع الغابرين ، والمشهد الكونى ، والحديث المباشر عن قضية التوحيد والبعث والرسالة ، فكلها وسائل ومؤثرات لإيقاظ القلب البشرى ، واستجاشته لاستقبال حقيقة الإيمان حية نابضة ، كما يبثها هذا القرآن في القلوب (٢) » .

تبدأ السورة بهذه الآيات القصيرة المتلاحقة ، المتعلقة بالكتاب والإنذار والرسالة والهداية :

﴿ حمٓ ، والْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ، فِيها يُفْرق كلُّ أَمْرٍ حَكِيم ، أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾.

ثم تعريف للناس بربهم : رب السموات والأرض وما بينهما ، وإثبات الوحدانية لله المحيي المميت ، رب الأولين والآخرين .

ثم يضرب السياق عن هذا الحديث ليتناول شأن القوم :

﴿ بلْ هُمْ فِى شَكٍّ يلْعَبُونَ ﴾

ويعاجلهم بالتهديد المرعب جزاء الشك واللعب :

﴿ فَارْتَقِب يوْم تَأْتِى السَّماءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ، يغْشَى النَّاس هذَا عذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الدخان ٩ ، ١٠

---

(١) في حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٨ : ١٤٨ «هذا الحديث أخرجه الترمذى وهو موضوع»

(٢) في ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب ٢٤ / ١٠٥

ثم ذكر مايكون من دعائهم لله أن يكشف عنهم العذاب ، وإعلانهم الاستعداد للايمان فى وقت لايقبل منهم فيه إيمان .

وتذكيرهم بأن هذا العذاب لم يأت بعد ، وهو الآن عنهم مكشوف فلينتهزوا الفرصة ، قبل أن يعودوا إلى ربهم فيكون ذلك العذاب المخيف :

﴿ يوْمَ نَبْطِشُ البطْشَةَ الْكبْرى إنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ الدخان ١٦

ومن هذا الإيقاع العنيف بمشهد العذاب ، ومشهد البطشة الكبرى والانتقام ، ينتقل بهم إلى مصرع فرعون وملئه ، يوم جاءهم رسول كريم ، يدعوهم إلى الايمان بالله ، فأبوا أن يستجيبوا لدعوته ، وهموا بالانتقام من موسى فأغرقهم الله ، وتركوا وراءهم الجنات والزروع ، والفاكهة والمقام الكريم ، يستمتع بها سواهم ، ويذوقون هم عذاب السعير .

وفى غمرة هذا المشهد الموحى يعود إلى الحديث عن تكذيبهم بالآخرة وإنكارهم للبعث وقولهم :

﴿ إنْ هِيَ إلَّا مَوْتَتنَا الأُولَى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ، فَأْتوا بِآبائِنَا إنْ كنْتمْ صادِقِينَ ﴾ الدخان ٣٥ ، ٣٦

ليذكرهم بأنهم ليسوا أقوى من قوم تبع الذين هلكوا لإجرامهم ، ويربط السياق بين البعث ، وحكمة الله فى خلق السموات والأرض فلم يخلقهما عبثا وإنما لحكمة سامية هى أن تكون الدنيا للعمل والابتلاء ، والآخرة للبعث والجزاء .

ثم يحدثهم عن يوم الفصل « ميقاتهم أجمعين » . وهنا يعرض مشهدا عنيفاً لعذاب المكذبين ، إنهم يأكلون من شجرة مؤلمة طعامها مثل دردى الزيت المغلى - وهو المهل - يغلى فى البطون كغلى الجحيم ، ويشد المجرم شدا فى جفوة وإهانة ، ويصب فوق رأسه من الحميم الذى يكوى ويشوى .

ومع الشد والجذب ، والدفع والعتل والكى ، التأنيب والإهانة ، جزاء الشك والتكذيب بالبعث والجزاء :

﴿ ذقْ إنَّكَ أنْتَ العزِيز الكَرِيمُ ﴾ الدخان ٤٩

وفى الجانب الآخر من ساحة القيامة نجد المتقين فى مقام أمين ، يلبسون الحرير الرقيق وهو السندس ، والحرير السميك وهو الاستبرق ، ويجلسون متقابلين يسمرون ويتمتعون بالحور العين ، وبالخلود فى دار النعيم .

﴿ فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْعَظِيمُ ﴾ الدخان ٥٧

ثم يأتى الختام يذكرهم بنعمة الله فى تيسير هذا القرآن على لسان الرسول العربى ، الذى يفهمون كلامه ويدركون معانيه ، ويخوفهم العاقبة والمصير ، فى تعبير ملفوف ولكنه مخيف .

﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾ الدخان ٥٩ .

* * *

أهداف سورة الجاثية

سورة الجاثية مكية نزلت فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وآياتها ٣٧ آية نزلت بعد سورة الدخان ، والسورة لها اسمان : سورة الجاثية ، لقوله تعالى :

(وَتَرَى كلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً) الجاثية ٢٨ ،

وسورة الشريعة لقوله :

(ثمَّ جعَلْنَاكَ علَى شَرِيعةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ولَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يعْلَمُونَ) الجاثية ١٨ .

الغرض من السورة

تحمل سورة الجاثية الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى ، والرد على الدهرية الذين لايؤمنون به ، وينكرون البعث بعد الموت ، وقد دعت السورة إلى هذا تارة بالدليل ، وتارة بالترهيب والترغيب ، وشأنها فى ذلك شأن السورة السابقة ، وشأن السورة التى ذكرت قبلها ووافقتها فى هذا الغرض ، كما وافقتها فى الحروف التى ابتدأت بها ، ولهذا ذكرت هذه السورة معها ، وسميت مجموعة هذه السور بالحواميم ، نسبة إلى بدايتها بقوله تعالى : حم .

وقال الفيروزبادى : معظم مقصود سورة الجاثية هو : بيان حجة التوحيد ، والشكاية من الكفار والمنكرين ، وبيان النفع والضر والإساءة والاحسان[1] ، وبيان شريعة الإسلام والإيمان ، وتهديد العصاة والخائنين.

---

(١) لعله يقصد الأشارة إلى آيات الله الكونية فى نفع العباد فى الدنيا ثم فى عقوبة الكفار فى الآخرة .

من أهل الإيمان ، وذم متابعي الهوى ، وذل الناس في المحشر ، ونسخ كتب الأعمال من اللوح المحفوظ ، وتأبيد الكفار في النار ، وتحميد الرب المتعال بأوجز لفظ وأفصح مقال (١) ... في قوله :

﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ وَرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

سمات السورة

لاحظنا أن سورة الدخان تتميز بقصر الآيات ، وعنف الإيقاع كأنه مطارق تقرع القلوب ، وسورة الجاثية بجوارها تسير في يسر وهوادة ، وإيضاح هادئ ، وبيان دقيق عميق .

والله سبحانه خالق القلوب ، ومنزل هذا القرآن ، يأخذ القلوب تارة بالقرع والطرق ، وتارة باللمس الناعم الرفيق وتارة بالبيان الهادى الرقيق ، حسب تنوعها هي واختلافها . فمن الناس من ينفع معه الزجر والوعيد ، ومنهم من يأسره التوجيه الهادى الرشيد ، والقلب الواحد يتقلب على حالات متعددة ، والله يختار له ما يناسبها ، وهو سبحانه اللطيف الخبير ، السميع البصير ، وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم يامقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك ، فقالت عائشة : يارسول الله أراك تكثر من هذا الدعاء ... فقال النبي : ياعائشة إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء .

منهج السورة

سورة الجاثية تصور جانبا من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية ، وطريقتهم في مواجهة حججها وآياتها ، وتعنتهم في مواجهة حقائقها وقضاياها واتباعهم للهوى اتباعا كاملا ، في غير ما تحرج من حق واضح أو برهان ظاهر ، كذلك تصور كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجامحة ، الشاردة مع الهوى ، المغلقة دون الهدى ، وهو يواجهها بآيات الله القاطعة ، العميقة التأثير والدلالة ، ويذكرهم عذابه ، ويصور لهم ثوابه ، ويقرر لهم سننه ، ويعرفهم بنواميسه الماضية في هذا الوجود .

(١) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١ / ٤٢٦ .

دروسان فى السورة

سورة الجاثية وحدة فى علاج موضوعها ، وهذه الوحدة تشتمل على درسين :

الدرس الأول : يتناول أدلة الشرك بالتفنيد ، وأدلة الإيمان بالتوضيح والتأييد .

والدرس الثانى: يعرض عناد الكافرين فى الدنيا ثم يذكر أحوالهم فى مشاهد القيامة .

١ ــ شبهات الكفر وادلة الايمان

تبدأ سورة الجاثية بهذين الحرفين حم ، والملاحظ أن هذه الأحرف يتبعها عادة الحديث عن القرآن ، مما يشير الى أنها نزلت لتنوه بهذا القرآن ، وتستلفت الأنظار إلى خصائصه المتميزة وتبرهن بذلك على أنه ليس من صنع بشر وإنما هو من عند الله :

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ الجاثية ٢ .

وتعرض أدلة الإيمان والتوحيد ، وتستلفت الأنظار إلى جلال الله ، ودلائل قدرته فى السماء والأرض ، والخلق والدواب ، والليل والنهار ، والمطر والزرع والرياح ، حتى تأخذ على النفس أقطارها ، وتواجهها بالحجج والبراهين ساطعة واضحة فتقول :

﴿ إِنَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ الجاثية ٣ ــ ٦ .

ومن خلال الآيات التالية ، نرى فريقا من الناس مصرا على الضلالة مكابرا فى الحق ، شديد العناد ، سيئ الأدب فى حق الله وحق كلامه

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . ﴾ الجاثية ٧ ، ٨

ونرى جماعة من الناس ، ربما كانوا من أهل الكتاب ، سيئى التصوير والتقدير ، لا يقيمون وزنا لحقيقة الإيمان الخالصة ، ولا يحسون بالفارق الأصيل بينهم وهم يعملون السيئات ، وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات والقرآن يشعرهم بأن هناك فارقاً أصيلا فى ميزان الله بين الفريقين :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ الجاثية ٢١

ونرى فريقا من الناس لا يعرف حكما يرجع إليه إلا هواه فهو إلهه الذى يعبده ، ويطيع كل ما يراه ، نرى هذا الفريق مصورا تصويرا فذا فى هذه الآية التى تعجب من أمره ، وتشهر بغفلته وعماه

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الجاثية ٢٣ .

أرأيت كيف تناولت هذه السورة الهادئة ، أصناف المشركين وفرقهم المناوئة للدعوة ، ويجوز أن يكون هؤلاء جميعا فريقا واحدا من الناس يصدر منه هذا وذاك ، ويصفه القرآن فى السورة هنا وهناك ، كما يجوز أن يكونوا فرقا متعددة .

وعلى أية حال فقد واجه القرآن هؤلاء الناس بصفاتهم تلك وتصرفاتهم ، وتحدث عنهم فى هذه السورة ذلك الحديث ، كذلك واجههم الله بآياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، وفى البر والبحر حيث يقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَـوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الجاثية ١٢و١٣

ويستغرق الدرس الأول من السورة الآيات من (١ – ٢٣) .

٢ ـ عناد الكافرين وعقابهم يوم الدين

يشمل الدرس الثاني من السورة الآيات من (٢٤ – ٣٧) .

ويبدأ بعرض أقوال المشركين عن الآخرة وعن البعث والحساب ، ودعواهم أن الأيام تمضي ، والدهر ينطوي ، فإذا هم أموات ، والدهر في ظنهم هو الذي ينهي آجالهم ، ويلحق بأجسامهم الموت فيموتون ، وقد فند القرآن هذه الدعوى وبين أنها لاتستند إلى حقيقة أو يقين ، وإذا قرعتهم الآيات الدالة على ثبوت البعث لم يجدوا لهم حجة إلا أن يقولوا :

﴿ ائتوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ الجاثية ٢٥ .

والله سبحانه له حكمة في خلق الناس ، فقد خلقهم للاختبار والابتلاء في الدنيا ، ثم يجازيهم في الآخرة ولايرجعهم إلى الدنيا قبل الموعد الذي قدره وفق حكمته العليا .

والله هو الذي يحيي وهو الذي يميت ، فلا عجب إذن في أن يحيي الناس ويجمعهم الى يوم القيامة ، وهو سبحانه مالك السموات والأرض ، وهو القادر على الإنشاء والإعادة .

مشاهد القيامة

تعرض الآيات الأخيرة من سورة الجاثية ، مشاهد الآخرة ظاهرة ملموسة للعين ، ومن خلال الآيات ترى المشركين وقد جثوا على الركب متميزين أمة أمة في ارتقاب الحساب المرهوب .

ثم يأخذون كتابهم وقد سجل كل شيء فيه ، ونسخت فيه كل أعمالهم

﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ • هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ماكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الجاثية ٢٨ .

ثم تنقسم الحشود الحاشدة والأمم المختلفة على مدى الأجيال إلى فريقين اثنين ، الذين آمنوا ، وهؤلاء يدخلهم ربهم فى رحمته ، والذين كفروا ، وهؤلاء يلقون التشهير والتوبيخ جزاء عنادهم ، وعندئذ يظهر أمامهم سيئات ماعملوا ، ويحيق بهم المهانة والعذاب ، ويسدل الستار عليهم ، وقد أوصدت عليهم أبواب النار :

﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُم آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمْ الحَيَاةُ الدُّنْيَا فَاليَوْمَ لَايُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَاهُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ الجاثية ٣٥ .

وهنا ينطلق صوت التحميد يعلن وحدة الربوبية فى هذا الكون ، سمائه وأرضه ، وإنسه وجنه ، وطيره ووحشه ، وسائر مافيه ومن فيه ، فكلهم فى رعاية رب واحد ، له الكبرياء المطلقة فى هذا الوجود ، وله العزة القادرة والحكمة المدبرة :

﴿ فَلِلَّهِ الْحمْدُ ربِّ السَّمَـوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ العَالَمِينَ • وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِى السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وهُو الْعزِيزُ الْحكِيمُ ﴾ الجاثية ٣٦ ، ٣٧

* * *

خاتمة

أتممت بفضل الله أهداف كل سورة ومقاصدها فى القرآن الكريم من أول القرآن إلى نهاية الجزء الخامس والعشرين .

أما الاجزاء الخمسة الأخيرة فلها كتاب خاص بها إن شاء الله ، تكون فيه السورة القرآنية مكتوبة بجوار هدفها ومقاصدها . ليساعد ذلك الفتيان والفتيات على قراءة القرآن والإحاطة بأهدافه .

ولا أستطيع أن أترك القلم قبل أن أقرر أننى أفدت فائدة كبرى من جهود السيد الأستاذ سيد قطب طيب الله ثراه ، لقد كان تفسيره « فى ظلال القرآن » منهلا عذبا ، وقطوفا دانية ، وطريقا مذللا ، فقد أفاض الله عليه بفتوحاته ، وكان رحمه الله يدرك مابين الآيات من تجانس ، ويلمس مابين السطور ، ويرشد إلى الروابط الخفية بين آيات السورة وقد نقلت من كتابه ، واقتبست منه ، وكتابى هذا مدين له ، وللسابقين فى هذا المضمار ، جزاهم الله عنا خير الجزاء ، وحشرهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

والحمد لله الذى بنعمه تتم الصالحات — وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرس

تصويبات

يرجى اجراؤها قبل البدء في القراءة

الصفحة	السطر	الصواب
٣٥	٩	وأنْفُسِكُمْ
٤٩	١	فَواحِدَةٌ
١٠٣	٢٣	أَمَنَةً
١١٠	٢١	مَرَدُوا
١٣٢	١٦	افْتَرَاهُ
١٣٢	١٦	قُلْ فأْتُوا بِعَشْرِ
١٣٧	١٨	بِنَاصِيَتِهَا
١٦٤	٢٠	ذُنُوبِكُمْ
١٨٢	٢٠	تَلْبَسُونَهَا
١٨٥	٢٣	يَتَفَكَّرُونَ
٢٠٣	١٢	أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
٢٠٧	٢٣	أَنَّمَا إِلَهُكُمْ
٢٢٨	١٨	إِلا أَنَا
٢٤٥	١	فَكَأَيِّن
٢٤٥	١٢	الْمُخْبِتِينَ
٢٥١	١٥	اعْبُدُوا
٢٥٣	٢٢	ما آتَوْا
٢٦٢	٧	فَلا تُطِع
٢٧٣	٨	وَعُلُوًّا
٢٩٨	٩	وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ
٣٠٦	٣	فَرِيقًا
٣٠٦	٥	تَطَؤُوهَا
٣٠٨	١٧	أَمْسِكْ
٣١٣	١١	أَعِظُكُمْ
٣١٣	١٢	بِصاحِبِكُمْ
٣١٨	١٥	مُرِيب
٣٢٦	٥	يُخْفِيها
٣٣٧	١٥	أَنْفُسِهِمْ
٣٤٦	١٤	يأْتِيَ
٣٤٦	٢٢	بَأْسَنَا
٣٥٣	١٦	وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ
٣٥٣	١٨	لِأَعْدِلَ
٣٥٣	١٨	رَبُّنا
٣٥٦	٥	كُلُّ
٣٦٦	٥	جَاثِيَةً
٣٦٧	٤	وربِّ الأرْضِ ربِّ...

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٩٠٥/١٩٧٦

ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ١٥٦ ٥

